الرسول صلى الله عليه وسلم واعظاً بليغاً

﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾

صدق الله العظيم

(النساء : ٦٣)

دكتور

عبد القادر حسين

رئيس قسم البلاغة - جامعة الأزهر سابقا



الكتاب : الرسول (ص) واعظًا بليغًا

المؤلف : د. عبد القادر حسين

رقم الإيداع : ٢٤٠٦٠ / ٢٠٠٥

تاريخ النشر : ٢٠٠٦

الترقيم الدولى : I. S. B. N. 977 - 215 - 882 - 5

الناشر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)

ت : ٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ٧٩٥٤٣٢٤

التوزيع : دار غريب ٣,١ شارع كامل صدقى الفجالة – القاهرة

ت ٥٩٠٢١٠٧ – ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق والمعرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر – الدور الأول
ت ٢٧٣٨١٤٢ – ٢٧٣٨١٤٣

مقدمة

تذكر كتب السيرة أحداثا جمّة اقترنت بولادة الرسول ﷺ وصاحبت رسالته احتفاء به وبشرى بولادته ، وما سوف يتحقق على يديه من خلال الرسالة التى أوحى الله بها إليه ودعا قومه نحوها ، ومن هذه الأحداث :

١- تمايل الأصنام وانكفاؤها على وجهها ، استشعارا بأن محمدا الوليد سوف يهدمها ويحطمها ويقضى عليها.

٢- أن تاجرا يهوديا كان يسكن مكة صرخ فى قومه يا معشر يهود : قد طلع نجم أحمد الذى يولد الليلة.

٣- اهتز إيوان كسرى ليلة مولد الرسول، وسقطت منه أربع عشرة غرفة.

٤- خمدت نيران فارس التي يعبدها المجوس ، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة.

٥- بحيرا الراهب الذى كان علم بالتوراة والإنجيل استضاف القافلة التى كان بها محمد بن عبد الله ، ثم جالس محمدا ورأى فيه صفات النبوة، ونظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه ، في موضعه من صفته التى عنده فقال : هذا رسول رب العالمين . وخاتم النبوة هو : لحم ناتئ بين كتفى النبى ﷺ فى نسق ليس فيه تشويه للمنظر كأنه تفاحة.

٦- دخول النبى وصاحبه أبى بكر غار ثور ، فكسته خيوط العنكبوت ، حتى اعتقد طالبوه أن أحدا لم يدخل الغار ، إذ كيف يمكن ونسج العنكبوت الواهى باق فى مكانه ، وعّش اليمامة قريب منه ، فلو دخل أحد الغار لجفل اليمام وطار.

٧- خروج سراقة بن مالك فى أثره ليحظى بالمكافأة السخية، وقدرها مائة ناقة إذا أحضر محمدا لقريش ، فغاصت قوائم فرسه فى رمال الصحراء ، وسقط عنه، عاود الكرة مرات، وفى كل مرة كانت تغوص قوائم الفرس ويسقط عنه ؛ لأن الله يحفظ نبيه ويكلؤه بعنايته ، حتى يؤدى رسالته المكلف بها.

٨- مسح ضرع شاة لأم معبد ، وكانت شاة عجوزا ليس بها لبن فذكر محمد اسم الله ، ومسح على ضرعها فدرّت باللبن ، وشربت أم معبد ، وشرب أصحابه منها.

تقول أم معبد تصف رسول الله :

كان الرسول ظاهر الوضاءة ، حسن الخلق ، مليح الوجه، قسيم وسيم ، فى عينيه سواد واتساع . إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء. حلو المنطق، فصل الخطاب لا نزْر ولا هذْر ، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ، أبهى الناس وأجملهم من بعيد ، وأحسنهم من قريب ، له رفقاء يحفّون به ، إن قال استمعوا لقوله ، وإن أمر تبادروا لأمره.

وقد نشأ رسول الله ﷺ فى قريش وهى أفصح العرب قاطبة ، فكان كلامه عذبا يسرى فى النفوس فترتاح إليه ، وحديثه يخاطب العقول فتقنع به ، ينطق بالحكمة والموعظة الحسنة.

كان في منطقه حلاوة ، وفى ألفاظه فصاحة ، وفى معانيه بلاغة، إذا تكلم تكلم بكلام بيّن يحفظه من يجلس إليه ، كما تقول السيدة عائشة رضى الله عنها.

وكان صوته هادئا عميقا مزدانا بالصدق ، بعيدا عن اللغو ، لا ضجيج ولا صخب ، لا يتكلم فى غير حاجة ، يتكلم بجوامع الكلم ، لا فضول ولا تقصير ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غضّ طرفه ، لا يزيد فى ضحكه عن التبسم ، ويفترّ عن مثل حب الغمام.

كلامه يلَج القلب مباشرة فيستقر فيه ، لسهولة ألفاظه وبساطة معانيه ، يجئ عفوا بلا تكلف ، ويرسخ فى الذهن بلا تعنت ، ينطق بالسليقة ، ويتكلم بالفطرة.

والقاضى عياض يصف بلاغة الرسول فيقول :

وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول ، فقد كان محمد ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل ، والموضع الأعرف ، سلامة طبع وبراعة صوت ، وفصاحة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معنى ، وقلة تكلف ، كان يخاطب كل أمة بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويقنعها بلهجاتها .

ولا غرابة فى ذلك فهو صفّى الله وخليله ، أوحى إليه برسالته ليبلغها للناس ، فينبغى أن يكون ذا منطق جذاب ، وعبارة حلوة ، حتى يخلب المشاعر والعقول معا ، ويستميل إليه القلوب فتتجاوب مع رسالته ، يدعو بالحكمة البالغة ، والموعظة الحسنة ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران :١٥٩) وانظر إلى عباراته التى تتدفق نورا فيتجاوب صداها فى آفاق العالمين كقوله :

الناس كأسنان المُشْط

المرء مع من أحب.

المستشار مؤتَمن.

خير الأمور أوساطها.

الظلم ظلمات يوم القيامة.

ليس الغنى عن كثرة العَرَض - المال- ولكن الغنى غنى النفس.

ليس الشديد بالصُرَعة- الذى يصرع الناس- إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب.

وغير ذلك من هذه الحكم البليغة الرائعة الموجزة التى تجرى على كل لسان. مما يدل على فصاحة رسول الله وبلاغته فى معان ينحدر منها شلالات النور ، وألفاظ تتدفق منها بحور النغم ، معبقة بالجمال الطبيعى والإبهار الآخاذ.

وما نجده فى هذا الكتاب من أحاديث تدل على بلاغة الرسول ﷺ ، هى أحاديث تستولى على اهتمام الناس فى عباداتهم ، ومعاملاتهم ، أخلاقهم وسلوكهم ،

أحاديث يتأسى بها الناس ويهتدون بها، لتعلقهم بحب رسول الله ﷺ ، وائتلافهم مع أحاديثه ، فهو القدوة والمثل ، والنبى والرسول وكلها من صحيح البخارى.

وأما عن صفاته :

فقد كان رسول الله ﷺ رجلا رَبْعة ليس بالطويل ولا بالقصير ، أى ليس بالطويل البائن المفرط فى الطول ؛ لأن هذا الإفراط فى الطول يصحبه اضطراب فى القامة ، وذلك عيب فى الرجال والنساء على حد سواء ، وليس بالقصير فيغرى الناس بمناوشته ومداعبته.

أزهر اللون ، أى فيه بياض مشرب بالحمرة ، والأزهر هو الأبيض الناصع ، ليس أمْهقَ ، أى بياضه ليس شديدا ولا يصل إلى الغاية ، وهى صفة لا يحب العربى أن يوصف بها ، فالأبيض الأمهق هو بياض لا يخالطه حمرة ولا صفرة أى بياض ليس نيّرا .

وليس آدمَ ، أى ليس شديد الأُدْمة ، فالرسول ﷺ يجمع بين البياض النيّر وبين السمرة الخفيفة ، ويخالط بياضه شئ من الحمرة ، فيبدو مهيبا مضيئا .

وشعره ليس بَجعْدٍ قَططٍ ، ولاسبْطٍ رَجِلٍ ، أى ليس جعدا غير مرسل ، وليس جعدا بيّن الجعودة ، فالشعر القطط شبيه بشعر أهل السودان.

والحاصل أنه وسط بين الجعودة والسبوطة ، أى بين الخشونة والنعومة ، وإنما هو بين الصفتين ، وليس بهاتين الصفتين .

لم يستعمل الخضاب فى صدغيه ؛ لأنه لم يكن له شئ من الشيب إلا قليلا ، فكان يصبغ فى وقت ويتركه فى أكثر الأوقات ، وكان البياض القليل موزعا بين الرأس والصدغين وعنفقته ، أى ماتحت شفته السفلى ، وعن أنس رضي الله عنه قال : ما كان فى رأس النبى ﷺ ولحيته إلا سبع عشرة شعرة بيضاء ، وسئل أنس : هل خضب النبىُ فإنى رأيت شعرا من شعره قد لون؟ فقال : إنما هذا الأثر قد لون من

الطيب الذى كان يطيب به شعره، فهو الذى غير لونه ، يعنى أنه أحمرّ من الطيب ولم يخْضِب.

وكان رسول الله ﷺ عريض أعلي الظهر ، رحب الصدر تكاد جُمّته-مجمع شعره - تصيب شحمة أذنيه ، اى أن معظم شعره كان عند شحمة أذنه، وما استرسل منه يصل إلى المنكب.

وكان وجه رسول الله ﷺ يجمع بين الحسن والاستدارة ، كان مثل القمر فى اللمعان ، والشمس فى الإشراق .

سئل البَراء : أكان وجه النبى ﷺ مثل السيف؟ قال : لا ، بل مثل القمر، أى مثل السيف فى الطول ، أو أنه صقيل لامع؟ فقال : لا ، بل مثل القمر الذى فوق السيف فى اللمعان ؛ لأن القمر فيه تدوير بالإضافة إلى اللمعان ؛ بل التشبيه به أبلغ لأن التشبيه بالقمر لوجه الممدوح شائع ذائع .

وكانت يداه أبرد من الثلج ، والحكمة فى ذلك أن برودة يده تدل على سلامة جسده من العلل والعوارض .

ورائحته أطيب من المسك، وكانت هذه صفته وإن لم يمس طيبا ، ومع ذلك كان يستعمل الطيب فى كثير من الأوقات مبالغة فى طيب ريحه ، لملاقاة الملائكة ومجالسة المسلمين ، وكان إذا مر فى طريق من طرق المدينة وجد منه رائحة المسك، فيقال : مر رسول الله ﷺ من هذا الطريق.

وكان إذا سُرّ استنار وجهه ، وأضاء جبينه ، وإذا غضب ظهرت الكراهة فى وجهه ، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها .

وكان ناعم الجلد قوى البدن ، يقول معاذ رضي الله عنه : أردفنى النبى ﷺ خلفه فى سفر ، فما مسست شيئا قط ألين من جلده.

وكان رسول الله ﷺ يتكلم بكلام متتابع مفهوم واضح على سبيل التأنى حتى لا يلتبس معناه على المستمع ، فلم يكن يتابع الحديث استعجالا ، على الرغم من أنه كان واسع الرواية شديد الفطنة.

ولم يكن رسول الله فاحشا ولا متفشحا ولا صخابا فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يصفو ويصفح ، وكان دائما يحث على حسن الخلق ، فإن من خياركم أحسنكم أخلاقا ، فاختيار الفضائل ونبذ الرذائل صفة الأنبياء ، كان خلقه القرآن يغضب لغضبه ويرضى لرضاه .

وما انتقم لنفسه خاصة ، فكان يعفو عمن آذاه ، وعمن جذب رداءه حتى أثر فى كتفه ، وعمن وضع الأحشاء والسقط على رأسه وكتفه وهو يصلى ، فإذا انتهكت حرمات الله ، انتصر لله وانتقم من الذى ينتهك حرمة الله.

وكان إذا خير بين أمرين أخذ أيسرهما مالم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه.

ومن صفات رسول الله ﷺ أنه كان أشد حياء من العذراء فى خدرها ، أى فى سترها ؛ لأن العذراء فى الخلوة يشتد حياؤها أكثر مما تكون خارجة عن الخدر ؛ لأن الخلوة مظنة وقوع الفعل بها.

وكان إذا كره شيئا عرف فى وجهه ، ولا يواجه أحدا بما يكرهه ؛ بل يتغير وجهه فيعرف أصحابه كراهته له.

وإذا قدم إليه طعاما إن قبلته نفسه أكل منه ، وإن كرهه تركه.

كان رسول الله ﷺ جملة من الخصال الشريفة ، ومجموعة من الصفات النبيلة ، حسيا ومعنويا . وكان يقول عن نفسه " أدبنى ربى فأحسن تأديبى" والذى يؤدبه ربه ويحسن تأديبه ، لابد أن يكون مثالا للخلق الرفيع ، والسمت الحميد .

هذه بعض من صفات رسول الله الخَلقية والخُلقية ، قد يعرفها كثير من الناس وآثرنا ذكرها حتى يتأسى بها الخلق فى أخلاقهم وطباعهم وسلوكهم.

مارس ١٩٩٥

★ ★ ★

النبى ﷺ



خاتم الأنبياء

عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال : قال النبى ﷺ :

"مَثَلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارًا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون : لولا موضعُ اللبنة"

رواه البخارى

• • •

تضرب الأمثال لتوضيح ما خفى ، وتفصيل ما أجمل ، وبيان ما أبهم ، وتأكيد ما يحتمل الشك فيه أو التردد منه.

فإذا جاء المثل فى أعقاب المعانى أعطى لها جمالا وحسنا وسرى إلى النفس فتتقبله دون عناء أو ريب.

وهذا رسول الله ﷺ يضرب الأمثال للناس لعلهم يتفقهون ويعلمون مكانته بين الرسل ، فالرسالات قبله على يد الأنبياء لم تتم شرائعها ، ولم تكتمل زينتها كالدار التي أسست وأقيمت إلا أن فيها ثُغرة لا يكمل البناء إلا بها ، فإذا رآها الناس تعجبوا من البناء ، وأسفوا على عدم الكمال ، مع أن كمالها غير بعيد أو مستعصٍ.

والرسول هو هذه اللبنة ، التي يتم بها البناء ويكمل البنيان ، فتزداد العيون به رضا والقلوب قناعة . والرسول هو صاحب الدين القويم النافذ الذى أتى فى نهاية مطاف الأديان جميعا ، فهو خاتم الأنبياء ولا نبىّ بعده. فقد كمُل الدين به ، وتمت النعمة على عباد الله المؤمنين ببركته وشفقته ، وحرصه على سعادة البشر برأفته ورحمته .

أراد رسول الله أن يقربّ الأمر فى بيان حالته المكمّلة لأحوال الأنبياء قبله، فساق إلينا هذا المثل الذى تدركه العين ولا تجد سبيلا إلى إنكاره وجحده ، فالدار المكتملة غير الدار التى لم تكتمل ، فالأولى ترتاح لها العيون والقلوب والأخرى يجد الناس بها نقصا يجب أن يلتئم ، فإذا التأم صار أجمل موضعا، وأحسن بناء، وهشت النفوس إليه وانجذبت نحو.

الأمثـــــال

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

"مَثلى ومَثلُ الناس كمثل رجل استوقدَ نارا فجعل الفَراش وهذه الدوابُّ تقع فى النار" **رواه البخارى**

• • •

أراد رسول الله ﷺ أن يبين صفته وشأنه مع قومه، فهو يدعوهم إلى الإسلام المنقذ لهم من النار ، ويحثهم على تقوى الله والعمل الصالح ، وهم لا يأبهون بدعوته ولا يلقون إليها بالاً ، وإنما استمروا على الاستهزاء به وبرسالته ، وزينت لهم أنفسهم التمادى فى الباطل، واستمراء الملذات ، والولوغ فى الشهوات ، ضاربين بكل ماعدا ذلك عُرض الحائط.

فمثّل رسول الله ﷺ حالته مع حالتهم بحال رجل أوقد نارا وهذه النار من طبعها أن تحرق وتضئ ، فتطير إليها الهوام من بعوض وناموس وصغار البقّ وغير ذلك ، وتنجذب نحو ضوئها وشعاعها كل الحشرات فتتساقط فى النار ، وتؤدى بنفسها إلى الهلاك .

وهكذا حال المخالفين لدعوة رسول الله ، يتساقطون فى نار الآخرة كما يتساقط الفراش فى نار الدنيا ؛ لشدة حرصه على الانجذاب إلى بريق النار ، كما ينجذب الناس إلى بريق الشهوات ولذاتها العاجلة.

والرسول يمنعهم عن ذلك وينصحهم مرة وينذرهم أخرى، ولكنهم لا يعيرونه إلا آذانا صما وقلوبا غلفا ، فيقعون فى عذاب الآخرة كما وقع الفراش فى نار الدنيا والجامع بين الفريقين اتباع الهوى ، وضعف التمييز ، وحرص كل منهما على هلاك

نفسه . وهذا المثل يشتمل على كثير من المعانى التى توضح نفرة الناس عن الهداية.

وأريد بضرب هذا المثل زيادة الكشف والتنبيه بالشئ المحسوس المتمثل أمام العيون فيزداد الأمر توكيدا ، والمعنى توثيقا ويقينا ، ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر:٢١) .

المثـــــل

عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال :

" مـثَل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقيةُ قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادبُ أمسكت المـاء ، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت منها طائفة أخرى ، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به) رواه البخارى

• • •

ومعنى الحديث أن الأرض ثلاثةُ أنواع ، والناس مثل ذلك.

فالنوع الأول من الأرض ينتفعُ بالمطر فتحيا بعد أن كانت مواتا ، وتنبت الكلأ بعد أن أضحت يبابا . فينتفع به الناس والدواب وهذا يشبه النوع الأول من الناس الذى يَبْلغه العلمُ والهدى فيحفظه ويحيى قلبه ويعملُ به ، ويعلّمُه غيرَه ، فينفع وينتفع.

والنوع الثانى من الأرض ، لا يقبل الانتفاع بماء المطر ، ولكن تُمسك الماء لغيرها فينتفعُ به الناسُ والدواب ، وهذا يشبه النوع الثانى من الناس الذين لهم قلوب حافظة ، ولكن ليست لهم أذهان ثاقبة يستنبطون بها المعانى والأحكام ، فهم يحفظونه حتى يجئ أهلُ العلم فيأخذوه منهم وينفعوا به غيرهم.

والنوع الثالث : هو الأرض السَّبِخَة المالحة التى لا تنتفع بالماء ، ولا تُمسكه لينتفع به غيرُها ، وهذا أشبهُ بالنوع الثالث من الناس الذين ليست لهم قلوب حافظة ولا أفهام واعية ، فإذا سمعوا العلم لم ينتفعوا به ولا يحفظوه حتى ينتفع به غيرهم.

هذا التشبيه المركب الذى جمع بين العلم والغيث ، من جهة أن الغيث يحيى الأرض البور ، والعلم ينير القلب المعتم الذى لا بصيص فيه من نور. .

وفى أول الحديث حيث عطف العلم على الهدى ، هو من عطف الخاص على العام ؛ اهتماما به لرفعة شأنه وعلو شرفه.

وحذف المفعول من قوله "فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا" وذلك للعلم بها فلا مقتضى لذكرها ، أى شربوا الماء وسقوا الدواب وزرعوا الأرض.

وقوله فى آخر الحديث " ومثل من لم يرفع بذلك رأسا" فيه كناية تمثيلية عن عدم الانتفاع بما يقدم له من هدى وشرع ، من علم وعمل ، فشأنه شأنُ المنكفئ الرأس ، فلا ترى عيناه ما يواجهه من أنوار كاشفة مبهرة ، فلا ينظر إلا تحت قدميه دون أن يصوبها نحو مايهديه ويجعله فى تقى وورع من الله سبحانه وتعالى .

القاسم

عن جابر بن عبدالله الأنصارى قال : وُلد لرجل منا غلام، فسماه القاسم فقالت الأنصار : لا نكْنيك أبا القاسم ، ولانُنْعمك عيناً ، فقال النبى ﷺ أحسنت الأنصار ، سمّوا باسمى ولا تكنَوا بكنيتى ، فإنما أنا قاسم ».

رواه البخارى

• • •

يروى مسلم عن جابر بن عبدالله أنه قال : ولد لرجل منا غلام فسماه محمدا فقال له قومه : لا ندعك تسمى باسم رسول الله ﷺ فانطلق بابنه يحمله على ظهره، وأخبر النبى بحديث قومه ، فقال رسول الله ﷺ تسموا باسمى ولا تْكتَنُوا بكنيتى فإنما أنا قاسم أقسّم بينكم.

والكنية هى ما صُدّر بأب أو أم كأبى بكر وأم كلثوم ، وهى قسم من أقسام الأعلام .

ولا بأس أن يسمى الرجل ابنه محمدا - اسم رسول الله - للبركة التى تحل به ولما فى هذا الاسم من الفأل الحسن من معنى الحمد ، ليكون محمودا بنواله الحمد من السماء . ونهى عن التكنى بكنيته لما رواه أنس : نادى رجل : يا أبا القاسم فالتفت النبى ﷺ ، فقال الرجل : لا أعْنيك ، ونقل أيضا عن اليهود أنها كانت تناديه بها فإذا قالوا : لم نعنْك ، فحسم الذريعة بالنهى عن التكنى بكنيته . حتى لا يكون هدفا لسهامهم.

وتسمية الأبناء بمحمد وإن كانت مرغوبة إلا أن أحدا من الصحابة لم يكن يجترئ أن ينادى النبى باسمه ؛ لأن النداء بالاسم لا توقير فيه ، بخلاف الكنية فإنها تكون للمدح على خلاف الأعراب الذين لم يرسخ الإيمان فى قلوبهم ، فكانوا ينادونه

باسمه كما ورد فى تفسير سورة الحجرات ، وقيل إن النهى عن تسمية الابن باسم رسول الله محمد كان مخصوصا فى حياته ، أما بعد وفاته فقد رخص بالتسمية به، وهو قول ضعيف ويزيده ضعفا قول النبى فى الحديث الذى معنا "أحسنت الأنصار سموا باسمى ، ولا تكنوا بكنيتى ، فلانكنى بأبى القاسم ولا نسمى الولد بالقاسم لئلا يكون سببا للتكنية ؛ لأن الشخص إذا سمى بالقاسم لزم منه أن يكون أبوه أبا القاسم ، فيصير الأب مكنيا بكنية رسول الله ﷺ.

وقد كنى الرسول بهذه الكنية ؛ لأنه كان يقسم الأموال فى المواريث والغنائم وغيرهما عن الله تعالى ، وليس ذلك لأحد إلا له ، فلا يصح أن يطلق هذا الاسم بالحقيقة إلا عليه ، وعلى ذلك فيمتنع التكنية به مطلقاً وهو مذهب الإمام الشافعى.

غير أننا نجد فى بلادنا كثيرا من الآباء يطلقون على أبنائهم كنية "أبا القاسم" أو اسم القاسم فيقعون فيما نهى الرسول عنه ؛ لأن هذا الاسم كانت له مناسبة خاصة وهى قسمته للغنائم والأموال بين الناس ، فأصبح الاسم من خصوصيات رسول الله دون غيره.

ولذا قالت الأنصار لمن سمى ابنه قاسما ، لا نكْنيك أبا القاسم ولا نُنْعمُك عينا ، أى لا تقرّ عينك بذلك ، ولا تنعم بماله، فكأنهم دعوا عليه بالشقاوة والبؤس ، بعد أن محوا هذه الكنية عنه. والكنية تطلق عند المدح والشاعر يقول :

أكنيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقبه فالسوْءةُ اللقبُ

هذا بالنسبة للتسمية بكنية رسول الله ﷺ. أما بالنسبة للتسمية بأسماء الأنبياء فهى مباحة ، وسمى جماعة من الصحابة بأسماء الأنبياء وكرهوا التسمية بأسماء الملائكة كجبريل وإسرافيل وميكائيل ونحو ذلك من أسمائهم .

وعن عمر رضي الله عنه قال : ما قنعتم بأسماء بنى آدم حتى سميتم بأسماء الملائكة.

★ ★ ★ ★

رؤيا المؤمـــن لرســـول الله

عن أبى هريرة رضي الله عنه قـال : ســمـعت النبى ﷺ يقـول : "من رآني فى المنام فسيراني فى اليقظة ، ولا يتمثل الشيطان بى"

رواه البخارى

• • •

رؤيا النبى ﷺ في المنام صحيحة لا تنكر ، وليست بأضغاث أحلام ، ولا من تشبيهات الشيطان .

ورؤية سيدنا رسول الله ﷺ تدل على الخصب والنماء ، وكثرة الرحمة، وظهور الدين وصحته ، وظفر المسلمين ، وذلك إذا رئى فى الصفات المحمودة.

وقـد تدل رؤية النبى فى المنام على الحـوادث الصـعبـة فى الدين ، وظهـور الفتن والبدع والمستحدثات البعيدة عن الشرع ، إذا رئى فى الصفات المكروهة ، هكذا يقول العلماء.

"ولا يتمثل الشيطان بى" لا يحصل له مثال صورتى ، ولا يتشبه بى. وكما منع اللّه الشيطان أن يتمثل بصورته فى اليقظة ، كذلك منعه فى المنام لئلا يشتبه الحق بالباطل ؛ إذ لا يستطيع الشيطان أن يصير مرئيا بصورته ولا متّشحا بزيّه .

وابن سيرين إذا قصّ عليه رجل أنه رأى النبى فى منامه يقول له : صف الذي رأيته ، فإن وصفه بصفة لا يعرفها عنه ، قال له : لم تره .

وقول رسول الله " من رآنى فقد رآنى" معناه من رآنى رؤيا صحيحة لا تكون أضغاثا ولا من تشبيهات الشيطان ، فقد رآنى حقا .

واتفاق الشرط والجزاء ، من رآنى فقد رآنى ، يدل على الغاية فى الكمال أى فقد رآنى رؤيا ليس بعدها شئ.

يقول البخارى عن قوله "فسيرانى فى اليقظة" إن المراد أهل عصره ، أي من رآه فى المنام وفّقه الله للهجرة إليه والتشرف بلقائه ، أو يرى تصديق تلك الرؤيا فى الدار الآخرة ، أو يراه قريبا منه شفيعا له يوم القيامة.

الخصـــم البليـــغ

عن أم سلمة زوج رسول الله ﷺ ، أن رسول الله سمع خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال : "إنما انا بشر وإنه يأتينى الخَصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحقٍ مسلم ، فإنما هي قطعة من النار ، فليأخذها أو فليتركها"

رواه البخارى

• • •

كان من عادة رسول الله ﷺ أن يسوى بين الخصوم فى مجلس القضاء ، حتى لا يطمع شريف فى حَيْفِه ، ولا ييأس من عدله ، القوى عنده ضعيف حتى يأخذ الحق منه ، والضعيف عنده قوى حتى يأخذ الحق له ، فكان يحتاط للأمر أشد الحيطة ، ويتخذ من الأسباب ما يحاول الوصول به إلى الحق والعدل.

وفى هذا الحديث النبوى يحكم رسول الله بما يعلم ويسمع فى مجلس قضائه، وهو يحكم بالظاهر لا بالباطن تشريفا لأمته فى الأخذ بظواهر الأمور ، أما سريرة النفس فالله أعلم بها ولا يحق للمرء أن يتدخل فيها ، لأنها تحتمل أن تكون حقيقة أو غير ذلك ، ومثل هذه الأمور ليس للظن فيها مجال ، ومن ثَم كان الحكم بالظاهر تشريفا للأمة ، وبعدا لها عن الوقوع فى الخطأ والشك.

فالرسول بشر ، والخصومة التى تكون بين فئتين أو فردين قد يكون الحق مع واحد منهما ، ولكن الخصم قد يكون ذا فصاحة وبلاغة وقدرة على الإقناع لا تتوافر للفرد الآخر ، ومن يسمعه يظن أنه صاحب الحق فيحكم له. ضد الآخر الذى قد يكون عييّاً ، أو غير فصيح ، أو ليست له القدرة على الإقناع بالدرجة التى عند الآخر ، فلا يحكم له رغم أنه صاحب الحق ، لذا يحذر رسول الله ﷺ أنه يأخذ

الرجل حق أخيه دون وجه حق ، وليس له سوى البراعة فى الحديث والقدرة على الإقناع .

سمع رسول الله ﷺ جلبة واختلاط أصوات بباب حجرة زوجه أم سلمة ، فقد جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله فى مورايث وأشياء بينهما ، وليس لأحدهما بيّنة على ما يدعى .

خرج الرسول من حجرته عند سماعه لهذه الأصوات ، واطلع على أمر الخصومة . ولم يكن عند أحدهما بيّنة تؤكد صدق ما يقول ، أو تكذب ادعاء الخصم.

قال رسول الله : إنما أنا بشر مشارك لكم فى البشرية وإن كنت أختص ببعض الصفات دونكم ، فأنا لا أدرى باطن ما تتحاكمون فيه عندى ، وما تختصمون فيه لدى ، وإنما أنا أقضى بينكم على ظاهر ما تقولون ، وإذا كان الأنبياء عليهم السلام يعلمون شيئا من الغيب فقد أعلموا به عن طريق الوحى.

وقول الرسول ﷺ : "إنما أنا بشر" أى لا يعلم الغيب ، وبواطن الأمور كما هو مقتضى الحالة البشرية ، وإنما هو يحكم بالظاهر ، والله أمر أمته بالاقتداء به فأجرى أحكامه على الظاهر حتى تطيب نفوسهم للانقياد له.

و"إنما" أداة حصر تقيد تخصيص رسول الله ﷺ بالبشرية ، فهو ليس ملكًا ولا جنًا ، وإنما هو من جنس البشر الذين أرسل إليهم .

وقوله : "إنه ليأتينى الخصم .. أكد الخصومة بأداة التوكيد وهى "إن" وسماه خصما لوقوع الخصومة بينه وبين من خالفه.

وقوله "أبلغ من بعض" أى أفصح ببيان حجته ، بأن يبلغ بعبارة لسانه كنه ما فى قلبه ، فالبلاغة هى الإيجاز مع الإفهام والتصرف من غير إضمار.

أو البلاغة : هى إيصال المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ ، أو أنها قليل يفهم وكثير لا يسأم ، فالبليغ أحسن الناس لفظاً وأقربهم بديهة وأقواهم تأثيراً .

ولعل فى قوله : ولعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض "ليس معناها الترجى كما هو الأصل ، وإنما جاءت لتشعر بإشفاق الرسول على من يسلك هذا السبيل فى الادعاء ، مستعملا فصاحته ليبلغ ما يريد فيحكم له فتكون عاقبته الخسران ، ومصيره النكال ، والرسول يشفق على من يتبع هذا الاتجاه .

"فمن قضيت له بحق مسلم" ، والتعبير بلفظ مسلم لا يريد به التحديد بالمسلم دون غيره ممن ينتمى للأديان الأخرى ، وإنما ذكره لأنه يخاطب المسلمين ، أو هو اهتمام بشأن المسلم ؛ لأنه ينبغى أن يتمسك بتعاليم الإسلام ، أو على سبيل التغليب، بأن غلب المسلم على غير المسلم ، وهو باب واسع فى العربية كثير .

وقوله " فإنما هى قطعة من النار" أى أن الذى أخذه دون وجه حق إنما هو كقطعة من النار ، نار جهنم ، وهو تمثيل يفهم منه شدة العذاب الذى ينتظره عن استحقاق ، فهو نفس النار وقطعة منها وليس شيئا دون ذلك.

ونكّر "قطعة" ليفيد تعظيمها ، أى ما أخذه قطعة عظيمة من النار.

وأل فى النار للعهد ، أى النار المعهودة لديكم بقسوتها وفظاعتها.

وقوله : "فليأخذها أو فليتركها" الأمر هنا للتهديد وليس للتخيير ، والتهديد لمن يستعمل بلاغته فى كسب حق الآخرين ، وهو ناء عنه ، فما أصاب منه ، فإنما هو قطعة تتلظى من النار تحرقه بلهبها ، وهو أيضا يفيد تحريم الأخذ إن كان مدعيا، والحث على الترك حتى لا يأثم بأخذ شئ ليس من حقه أن يأخذه.

فعلى الحكَم أن يقضى بين المتخاصمين بعد أن يتحرى العدل ويتوخى الحق ثم يقضى بما يرى ، وينبغى عليه أن يجتهد فيما ليس فيه نص صريح.

وفى رواية : فبكى الرجلان ، وقال كل منهما : حقى لأخى الآخر ، قال رسول الله ﷺ : أما إذا فعلتما هذا فاذهبا فاقتسما وتوخيا الحق ثم استهما ، ثم ليحلل كل منكما صاحبه.

أى تحريا الوصول إلى الحق ثم اقترعا ، حتى يحصل كل منكما على حقه وهو خالص النية من ظلم أخيه .

سحـــر البيـــان

عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما أنه قدم رجلان من المشرق فخطبا ، فعجب الناس لبيانهما ، فقال رسول الله ﷺ : "إن من البيان لسحْرا ، أو إن بعض البيان لسحْر." **رواه البخارى**

• • •

جاء رجلان من جهة الشرق ، أى شرق المدينة وهى سكنى بنى تميم من جهة العراق ، والرجلان هما : عمرو بن الأهتم ، والزبرقان بن بدر ، وكان فى لسانهما فصاحةٌ وفي كلامهما حلاوة ، فخطبا الناس فأحسنا الخُطبة ، فعجب الناس لبراعتهما فى البيان . فقال رسول الله ﷺ :

" إن من البيان لسحرا" فأعجب رسول الله بمنطقهما وحلاوة حديثهما ، فعبّر عن هذا الإعجاب بهذه العبارة التى تتردد دَوْما حين يمتلك الخطيب ناصية القول فيبهر السامعين .

قال قوم فى تأويل حديث رسول الله إن هذه المقولة جرت مجرى الذم لا مجرى المدح، فهو يذم البيان ؛ لأنه شبه البيان بالسحر ، والسحر مذموم محرم قليله وكثيره على حد سواء ؛ لما فى البيان من التفيْهق وتصوير الباطل فى صورة الحق ، وقد قال رسول الله ﷺ : "أبغضكم إلىّ الثرثارون المتفيهقون" ويقال : الرجل يكون على الحق فيسحر القوم ببيانه ، فيذهب بالحق ، ويحكم له بغير ما يستحق.

وقال آخرون : إن الحديث خرج مخرج المدح للبيان ، واستدلوا بما جاء فى نص الحديث : "فعجب الناس لبيانهما" والإعجاب لا يكون إلا بما يحسن ويطيب سماعه . وتشبيهه بالسحر مدح ؛ لأن معنى السحر الاستمالة ، وكل من استمالك

فقد سحرك ، وكان رسول الله أميز الناس بفضل بلاغته ، فأعجبه ذلك القول واستحسنه ، فلذلك شبهه بالسحر.

والحقيقة أن الحديث ليس بذم للبيان كله ، ولا بمدح له كله ؛ لأن كلمة "مِنْ" التى وردت فى الحديث تفيد التبعيض ، أى أن بعضه لا كله سحر و "أو" فى الحديث تفيد الشك ، وقد جاء الحديث بتأكيد البيان بـ "إن واللام" حتى جرى ذلك مجرى الأمثال ، وتناقلته الألسنة فى كل مكان.

الشفاعـــة

عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال : (من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمدا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته ، حلت له شفاعتى يوم القيامة). رواه البخارى

• • •

(من قال حين يسمع النداء) أى يسمع الأذان ، وعبر بالمضارع (يسمع) وكان حقه أن يعبر بالفعل الماضى ؛ لأن الدعاء مسنون بعد الفراغ من الأذان ، فكان المعنى حين يفرغ من السماع ، ويفرغ من تمام الأذان .

وقوله (اللهم ربَ هذه الدعوةِ التامة) يعنى ياالله ، فحذفت ياء النداء وعوض عنها الميم ؛ إذ لايجمع بين العوض والمعوض عنه.

وقوله (رب هذه الدعوة) أى أنت ربُّ هذه الدعوة ، والحذف هنا للإيجاز.

وكلمة (رب) كالمربى تفيد أنه المصلح للشأن ، أو أنها مصدر يفيد المبالغة كالوصف بالعدل ، تقول رجل عدل ، أى بالغت فى وصفه بالعدل أكثر من أن تقول رجل عادل.

والمراد بالدعوة هنا ألفاظ الأذان التى يُدعى بها الشخص إلى عبادة الله ، كالدعوة إلى الوليمة يدعى إليها الشخص لتناول الطعام ، فالدعوة إلى العبادة دعوة إلى التوحيد .

ووصف الدعوة بأنها (الدعوة التامة) أى التى لايدخلها تغيير ولاتبديل ، ولا نقصٌ ولاعيب ، وفيها أتمُّ القول : وهو لا إله إلا الله .

"والصلاةُ القائمة" ، أى الدائمة التى لاتغيرها ملة ، ولاتنسخها شريعة ، وإنما هى قائمة مادامت السموات والأرض .

وزبط جملة (الصلاةُ القائمة) بالدعوة التامة. أى ربط الصلاة بالأذان كما ترتبط النتيجة بالمقدمة ، فعطف إحدى الجملتين على الأخرى .

(آت محمدا الوسيلة والفضيلة) أى أعط . أمر من الإيتاء ليس على حقيقته ، وإنما هو من باب الدعاء ، والمراد بالوسيلة منزلةً فى الجنة ، والفضيلةُ : مرتبةً زايدة على سائر الخلق ، فيعْظُم الرسولُ محمدُ على سائر الخلق والرسلِ أجمعين .

(وابعثه مقاما محمودا) أى محمودا بكل لسان ، والمراد بالتنكير تعظيم الرسول وتشريفهُ على جميع الخلائق ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : مقام يحمدك فيه الأولون والآخرون : تُسأل فتعطى ، وتُشفّع فتشفَع ، ليس أحد إلا تحت لوائك .

وقد وعدك الله بهذا المقام وهذه المنزلةِ الرفيعةِ وأنت حقيق بها.

وقوله (حلت له شفاعتى) أى من ردد هذا الدعاء وقت الأذان ، وجبت له شفاعتى يوم القيامة ، وفى ذلك حضّ على الدعاء فى أوقات الصلاة حين تفتح أبواب السماء للرحمة .

إبليـــس

إبليـــــس

إبليس اسم أعجمى ، وكان اسمه عند الملائكة عرازيل ثم أُبلس ويئس من رحمة الله ، وعن ابن عباس أن اسمه الحارث وكنيته أبو مرة أو أبو العمر أو أبوكردوس وهو من الملائكة.

وعن الحسن البصرى أنه من الشياطين ولم يكن من الملائكة قط واحتج بقوله تعالى : ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ (الكهف :٥٠) .

وقال بعض العلماء إبليس لا من الملائكة ولا من الجن ؛ بل خُلق منفردًا من النار كما خلق آدم عليه السلام من الطين .

وقال البعض الآخر كان إبليس من الجن الذين يعيثون فى الأرض فسادا ، فأسره بعض الملائكة وذهب به إلى السماء .

ويقال كان نوع من الجن سكانَ الأرض ، فيهم الملْك والنبوة والدين والشريعة، فاستمروا على ذلك مدة ، ثم طغَوا وأفسدوا وجحدوا الربوبية وسفكوا الدماء ، فأرسل الله إليهم جندًا من السماء فقاتلوا معهم قتالا شديدا وأسروا منهم خلقا كثيرا ، وكان فيمن أسر عزازيل وهو إذا ذاك صبى نشأ مع الملائكة وتكلم بكلامهم، وتعلّم من علمهم ، وأخذ يسوسهم ، وطالت أيامه حتى صار رئيسا فيهم ، وقد أراد الله خلق آدم ، فحدث ما كان من قصة إبليس معه حين رفض السجود له بحجة أنه أسمى مكانة منه ؛ لأنه خلق من نار وآدم من طين .

وعن ابن عباس أنه قال : إبليس أصل الجان والشياطين ، وهو أبو الكل.

وروى عن مجاهد أنه قال : الجان أبو الجن كما أن آدم أبو البشر .

ويقول الطبرى عن إبليس : كان الله قد حسن خَلْقه وشرّفه وكرّمه وملّكه على سماء الدنيا والأرض ، فاستكبر ودعا من كان تحته إلى طاعته وعبادته ، فمسخه الله شيطانا رجيما ، وشوه خلقه ، وسلبه ما كان خوّله إياه ، ولعنه وطرده من سماواته ، وجعل مسكنه فى الآخرة نار جهنم .

يقول ابن عباس فى وصف إبليس إنه مشوه الخلْق ، كريه المنظر ، جسده جسد خنزير ووجه وجه قرد ، وعيناه مشقوقتان طولا ، وأسنانه كلها عظمة واحدة ، وليس له لحية ، ويداه فى منكبه ولد يدان أخريان في جانبه ، وأصابعه خلقت واحدة ، وهو يسكن فى صدور الناس ويجرى فى عروقهم ، دائم الوسوسة لهم ، ولا يعصم الناس منه إلا بغض الدنيا وحب الآخرة .

وله جنود يرسلهم إلى إضلال بنى آدم ، وأعظمهم لديه أعظمهم فتنة لهم.

★★★★★

وقد تواترت الأخبار بوجود الجن ، ولم يخالف أحد من طوائف المسلمين فى وجودهم ، ومن يقر بوجودهم يعلل عدم رؤيتهم لرقة أجسامهم ونفوذ الشعاع منها ، أو أن امتناع رؤيتهم يرجع إلى أنهم لا ألوان لهم.

وقد خلق الله الملائكة من نور ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ (الرحمن:١٥) .

وخلق آدم من تراب ، فأصل الجن النار ، وأصل الإنس الطين .

يقول السهيلى : الجن ثلاثة أصناف .

صنف على صورة الحيات ، وصنف على صورة كلاب سود ، وصنف ريح طيارة . وهم يتشكلون فى صور الحيات والعقارب ، وفى صور الإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير ، وفى صور الطير ، وفى صور بنى آدم . ومنهم من يظهر كنصف آدمى بالطول ، ومنهم من يأنس بالآدميين ولا يؤذيهم ، ومنهم من يختطف النساء الأبكار ، فهم أصناف متعددة لا يمكن حصرها.

وسمى الجن جناً ؛ لأن الجن معناه الستر والخفاء ، وكل ما استتر عنك فهو جن ، ومن ثم سمى الجن بهذا الاسم ،. وكان أهل الجاهلية يسمون الملائكة جناً ؛ لاستتارهم عن العيون .

والجن يأكلون ويشربون ويتناكحون إلا أن أكلهم تشمّم واسترواح ، لا مضغ ولا بلع ، وإذا عملوا صالحا كان ثوابهم النجاة من النار ، ثم يقال لهم كونوا ترابا مثل البهائم وهذا قول أبى حنيفة . أو أنهم يثابون على الطاعة ويعاقبون على المعصية وهو قول الشافعى .

واتفق العلماء علي أن كافر الجن يعذب فى الآخرة لقوله تعالى ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ (الأنعام:١٢٨) .

والجن فِرق شتى : منهم اليهودى والمسلم ، ومنهم الصالح ، والطالح ﴿وأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ (الجن :١١) ، فليس كل الجن شرير أو خبيث .

وقانا الله من شرّهم وحفظنا من خبثهم .

التقاء الرسول بالجـــن

عن رَوْح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : إن عفريتا من الجن تفلّت علىَّ البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع علىَّ الصلاة ، فأمكننى الله منه ، فأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخى سليمان : ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ (ص:٣٥) قال رَوْح : فرده خاسئا. رواه البخارى

• • •

العفريت من مخلوقات الله الخبيثة المنكرة التى تنفذ إلى الأمور فى دهاء ومكر.

والمخلوقات من الأرواح إما سفلية أو علوية . فالسفلية منها الخيّر وهم صالحو الجن ، أو شريرة وهم مردة الشياطين . وسمى الجن جنا لاستجنانهم واستتارهم عن العيون ، ومنه سمى الجنين جنيناً.

والأرواح العلوية تتمثل فى الملائكة على اختلاف أنواعها.

وقد تعرض واحد من الجن لرسول الله فجأة يريد أن يصرفه عن الصلاة.

ولكن الله مكنه منه فأمسك به ، وأراد أن يربطه في أحد أعمدة المسجد ويتركه مربوطا حتى يراه الصحابة ، ولكنه عدل عن ذلك متذكرا دعاء أخيه النبى سليمان فى سورة (ص:٣٥) ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ فالرسول ﷺ لا يريد أن يسيطر على الجن ، لأن ذلك من معجزات النبى سليمان.

ذكر الرسول محمد ﷺ هذه الآية على سبيل الاقتباس من القرآن لا على قصد أنه قرآن - قال رَوح الراوى : فرد النبى ﷺ العفريت مطرودًا ذليلا صاغرا .

أكد الرسول ﷺ هذه الحادثة مع الجن لرفاقه ، ولكن ربما داخلهم الوهم أو عدم التصديق ؛ لأن ذلك شيء لم يعتادوا عليه ، وليس لأنهم يشكون فى صدق رسول الله ، فهو الصادق الأمين فى أقواله وأفعاله . فأراد أن يزيل عن الصحابة هذا الظن فأكده بإن وقال : "إن عفريتا من الجن" ومن هنا بيانية أى عفريت من جنس الجن.

"وتَفلّت علىّ البارحة" أى عرض له فى إلحاح ويدل عليه مادة الفعل تفلّت ؛ لما فيها من المواصلة والاستمرار حتى يمنع الرسول عن الصلاة وأداء حق الله ، والبارحة هى أقرب ليلة مضت ، أى ليلة الأمس القريب ، كان ذلك فى المساء وأراد للصحابة أن يروا الجن فى الصباح ، إلا أن الرسول أطلقه احتراما لأخيه سليمان عليه السلام .

فرؤية الجن غير مستحيلة ، والجن وإن كان من الأجسام اللطيفة إلا أن إدراكه غير ممتنع أصلا.

غير أن رؤية النبى ﷺ للعفريت هى من خصائصه ، كما اختص برؤية الملائكة، وقد رأى النبى جبريل وقال إن له ستمائة جناح . أما بقية الناس فلا يرون العفريت على صورته الحقيقية ، ولكنهم يرونه إذا تشكل بصورة غيره كقط أو كلب أو حمار.

والجن يتصورون فى صور شتى ويتشكلون فى صور الإنسان والبهائم والحيات والعقارب والإبل والبقر والغنم والبغال ، وفى صورة الطير وغير ذلك من الصور التى ذكرناها آنفا .

★★★★★

الشيطـــــان

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

"يَعـقـد الشـيطان على قـافـيـة رأس أحـدكم إذا هو نام ثلاث عـقـد ، يضرب على كل عقدة ، عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة . فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقدة ، فأصبح نشيطا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان". رواه البخارى

• • •

"يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا نام" والعقد هنا على الحقيقة فيكون بمعنى السحر للإنسان ومنعه من القيام ، كما يعقد الساحر من سحره وأكثر ما يفعل ذلك النساء ، تأخذ إحداهن الخيط فتعقد منه عقدا وتتكلم عليه بالكلمات فيتأثر المسحور عند ذلك كما أخبر القرآن الكريم ﴿ومن شرِّ النَّفَّاثات في العُقَد﴾ (الفلق: ٤) أو المعنى على المجاز بأن يوسوس له الشيطان فيصرفه عن القيام للصلاة ، فيثقل نومه فلا يستطيع النهوض ، فكأنه شبه ما يفعله الشيطان بالنائم ، بما يفعله الساحر بالمسحور . وعلى هذا فكأنه استعار العقد من بني آدم حين يستعملونه فى منع الإنسان عن مزاولة شيء معين ، لفعل الشيطان بالنائم حتى لا يقوم من نومه وينصرف عن عبادة الله وذكره .

وقوله "يعقد على قافية رأس أحدكم" أى مؤخر عنقه ، أو وسط رأسه ويضرب عليها بيده تأكيدا وإحكاماً لما يفعله ، قائلا موسوسا للنائم : عليك ليل طويل ، ثم يأمره بالرقاد، يقول ذلك وهو مزهوّ بنفسه ، واثق كل الثقة من عمله ، ووقوع النائم تحت إغوائه.

وقوله "فارقد" أمر أريد به الإغراء ، فهو يغريه بالنوم اللذيذ ، لا بالاستيقاظ والصلاة ، فالليل طويل ، ومهما نام فسوف يستيقظ للصلاة ، يزين له ذلك ويخادعه فإذا لم يستسلم لإغواء الشيطان واستيقظ ، انحلت العقدة الأولى بذكر الله ، والثانية بالوضوء ، والثالثة بالصلاة.

فمن جمع هذه الأمور الثلاثة : الذكر والوضوء والصلاة أصبح نشيطا مسرورا بما وفقه الله من الطاعة وطيب النفس وبما زال عنه من عقد الشيطان.

"وإلا أصبح" أى ومن لم يجمع هذه الأمور الثلاثة يصبح خبيثا كسلان عن طاعة الله . وهذا غاية الإيجاز.

الصبيـــان والشياطيـــــن

عن جابر رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : إذا استجنح الليل ، فكفوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذ ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلّوهم ، واغلق بابك واذكر اسم الله ، وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله ، وأوْك سِقاءك واذكر اسم الله ، وخمّر إناءك واذكر اسم الله ، ولو تعرُض عليه شيئا.

رواه البخارى

• • •

إذا أقبل ظلام الليل فضموا أولادكم إليكم وامنعوهم من الانتشار ، ولا ترسلوهم خارج البيت لقضاء الأشياء ؛ وذلك خوفا عليهم من تعلق الشياطين بهم ، فالنجاسة موجودة مع الصبيان غالبا فيلوذ بها الشيطان وينفذ إلى جسده ، والذكر الذى يستعصم به مفقود لديهم أيضا ، فيجدهم الشيطان فريسة سهلة يكون دائم السيطرة عليها والصلة بها.

والشياطين تستعين بالظلمة وتكره النور وتتشاءم به ، فحركة الشياطين أمكن فى الليل منها فى النهار.

فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلّوهم ، وإذا أقبل الليل ودخل الظلام وانتشر ، فاتركوهم داخل البيوت وأغلقوا أبوابكم حتى لا يصيبهم مكروه بمس الشياطين لأجسادهم ، واذكروا الله تبركا به واحتراسا من الآفات والمصائب.

ونلحظ فى الحديث كلمة جاءت على صيغة الجمع "فخلوهم" وكلمة جاءت على صيغة المفرد (أغلق) والمخاطب واحد ؛ لأن المراد "بأغلق بابك" ، كل فرد من الأفراد فهو عام بحسب المعنى ، والعبرة بالمعانى لا بالألفاظ.

وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله ، والأمر بالإطفاء لتجنب ما يمكن أن يقع من الضرر إذا ترك المصباح موقدا ، فربما تأتى فأرة وتسحب الفتيلة الموقدة وتجرّها من مكان إلى آخر فيحدث حريق ، ومعظم النار من مستصغر الشرر ، وربما يكون على الموقد شيء فينطفئ ويتسرب الغاز فيختنق أهل الدار.

"وأوّك سقاءك واذكر اسم الله" ، أى شد فم القربة حتى لا يتسرب إليها شيء من هوام الأرض فينتقل إليك المرض، وفى عصرنا : لا نترك الشراب مكشوفا فربما تشرب منه حية أو فأر أو صرصار ، فيكون ذلك سببا لنقل الأمراض.

وخمّر إناءك ، أى ضع عليه غطاء ولا تتركه مكشوفا فيكون عرضة للحشرات والنجاسات والأتربة ، فإن لم يكن لديك ما يصلح غطاء له ، فلا أقل من أن تعرض عليه عودا ، أى تجعله بالعرض وتمده عليه عرضا ، وكن فى كل أعمالك ذاكرا لاسم الله مستعينا به ، حتى تسلم من العواقب التى تحيق بالناس ، والآفات التي تلحق بهم.

وهذه النصائح جاءت على سبيل الإرشاد إلى المصلحة الدنيوية ، وليست على سبيل الإيجاب أو الفرض ، وإنما يندب إليها فينبغى للمرء كى يسلم من أضرارها أن يمتثل لها ويعمل بها فيلوذ بحول الله وقوته ، والله كفيل بسلامته.

السحـــر



السحـــر

السحر أمر خارق للعادة ، صادر عن نفس شريرة ، لا يتعذر معارضته وأكثر الأمم من العرب والعجم ، والروم والهند بأنه ثابت وحقيقة موجودة ، وله تأثير ، ولا استحالة عقلا أن الله يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق أو تركيب أجسام ، أو نحو ذلك على وجه لا يعرفه أحد .

وأنكر قوم حقيقة السحر ، وما يقع منه هو مجرد خيالات باطلة لا حقيقة لها . والصحيح وجوده حقيقة لا خيالا ، ويدل عليه الكتاب والسنة . وفى القرآن الكريم : ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ (البقرة :١٠٢).

وقوله : ﴿ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ (طه :٦٩)

وقوله : ﴿ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ (الأنبياء :٣)

وأن رسول الله قد سحر ومرض بسبب السحر ، ولم يشف منه إلا بعد أن استخرجت أدوات السحر من قاع البئر الذى ألقى فيها ما سحر به .

والسحر بدأت به اليهود وكانت تعمل به ، وفشا فى زمن فرعون ، وكانت الشياطين تصعد إلى السماء فتقعد منها مقاعد للسمع فيسمعون من كلام الملائكة ما يكون فى الأرض من موت أو غيث أو أمر ، فيأتون الكهنة فيخبرونهم ، فتحدث الكهنة الناس فيجدونه كما قالوا ، أو زادوا مع كل كلمة كلاما آخر ، فاكتتب الناس ذلك الحديث الذى يقوله الكهنة فى الكتب .

وفشا فى بنى إسرائيل أن الجن تعلم الغيب ، فجمع سليمان ما كتب منها وجعلها فى صندوق ثم دفنها تحت كرسيه ، ولم يكن أحد من الناس يستطيع أن يدنو من الكرسى إلا احترق ، وقال لا أسمع أحدا يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا

ضربت عنقه ، فلما مات سليمان ، أخرجوا ما فى الصندوق وقالوا : إن سليمان إنما يضبط الإنس والجن والطير بهذا السحر ، ثم طار وفشا فى الناس أن سليمان كان ساحرا .

ولا يجترئ على السحر إلا كافر ، وعمل السحر حرام ، وهو من الكبائر بالإجماع وقد عدّه النبى ﷺ من الموبقات والمعاصى الكبيرة.

وأما تعلم السحر وتعليمه فحرام ، وقد أجاز بعض العلماء تعلم السحر.

لأحد أمرين : إما لتمييز ما فيه كفر من غيره ، وإما لإزالته عمن وقع فيه.

وعن مالك : أن الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب فلا يطلب منه التوبة، بل يتحتم قتله كالزنديق.

كما نهى رسول الله ﷺ عن تصديق الساحر فى سحره وفيما يقول به ، أما إذا أتى الرجلُ الساحرَ لغير ذلك وهو عالم بما له من سحر ، فليس بمنهى عنه ولا عن إتيانه.

والسحر أنواع : منه ما هو بمعنى اللطف والدقة ، وكل من استمال شيئا فقد سحره ، كما تقول سحرت الصبى ، أى استملته وخدعته .

والثانى : ما يقع من تخيلات لا حقيقة لها ، نحو ما يفعله المشعوذون من صرف الأبصار عما يفعلونه بخفة أيديهم ، ولذا يقول المولى جل جلاله ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ (طه:٦٦) .

والثالث : ما يحصل بمعونة الشياطين عن طريق التقرب إليهم ، فيعلمونهم السحر.

والرابع : ما يستعمل عن طريق الطلاسم المعماة الغامضة .

والخامس : ما يحصل بمخاطبة الكواكب واستنزال روحانياتها.

ومهما قيل فى السحر من خفة ، وما وقع فيه من انبهار ، قد يخرج عن عادة الناس، فهو أمر مرذول ، يؤدى إلى الإثم لوقوع الأذى به ، ومن يستعمل السحر أو

يستعين به فهو امرؤ مكروه من الناس ، بغيض لديهم ؛ يقترف ما نهى الرسول عنه، والرسول لا ينهى عن شىء إلا إذا كان به ما يعود بالشر على الكائن الحى.

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ سُحر حتى كان يُخيل إليه أنه صنع شيئا ولم يصنعه. رواه البخارى

● ● ●

يروى عن ابن عباس والسيدة عائشة رضى الله عنهما :

كان غلام من اليهود يخدم النبى ﷺ ، وكان عنده أسنان مشطه ﷺ ، فأعطاها اليهود ، فسحروه فيها ، وتولى سحره لبيد بن أعصم اليهودى وبناته ، وهن النفاثات فى العقد ، ودفنها فى بئر يقال لها ذروان ، فمرض رسول الله ﷺ ، وتفرق شعر رأسه ، ولبث ستة أشهر يعانى وجع المرض حتى ذاب جسده وما يدرى ما عراه ، وكان يخيل إليه أنه يفعل الشىء ولا يفعله ، فبينما هو نائم إذا أتاه ملكان ، فقعد أحدهما عند رأسه ، والآخر عند رجليه ، فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه : مابال الرجل قد طُب ، أى : سحر- قال : ومن سحره ؟ قال : لبيد بن الأعصم اليهودى ، قال : وبم طبّه؟ قال بمشط وبمشاطة ، قال : وأين ؟ قال : هو فى جفّ طلعة - طلع نخلة- تحت راعوفة - صخرة- فى بئر ذروان ، فانتبه رسول الله ﷺ مذعورا وقال : يا عائشة : أما شعرت أن الله تعالى أخبرنى بدائى ، ثم بعث رسول الله ﷺ عليًا والزبير وعمار بن ياسر رضى الله عنهم ، فنزحوا ماء تلك البئر وكأنها نقاعة الحناء ، ثم رفعوا الصخرة ، وأخرجوا الجف فإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان من مشطه ، وإذا وتر معقد فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر فأنزل الله تعالى المعوذتين ، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ، ووجد رسول الله ﷺ خفة حين انحلت العقدة الأخيرة ، فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عقال ، وجعل جبريل يقول : باسم الله أرقيك ، من كل شىء يؤذيك من عين حاسد والله يشفيك ، فقالوا يا رسول الله : أفلا نأخذ الخبيث فنقتله؟ فقال ﷺ : أما أنا فقد شفانى الله ،

وأكره أن أثير على الناس شرا ، قالت عائشة : ما غضب رسول الله ﷺ غضبا ينتقم من أحد لنفسه قط ، إلا أن يكون شيئا هو لله فيغضب لله وينتقم.

وعلى الجملة[1] ، فالله تعالى ما كان يسلط على نبيه إنسا ولا جنا يؤذيه فيما يتعلق بنبوته وعقله ، وأما الإضرار من حيث بدنه وبشرته فلا غرابة فيه ، وتأثير السحر عليه لم يكن من حيث إنه نبيّ ، وإنما كان فى بدنه من حيث إنه إنسان وبشر، يعرض عليه سائر ما يعرض على البشر من صحة ومرض وأكل وشرب مما لا يقدح فى نبوته ، وإنما يكون قادحا فيها لو وجد للسحر تأثير فى أمر يرجع إلى النبوة ، ولم يوجد ذلك ، كيف والله يعصمه من أن يضره أحد فيما يرجع إليها.

وقد يرد هذا السؤال : لماذا لم يردّ الله كيد الكائد إلى نحره بإبطال مكره وسحره؟ قلنا : الحكمة فى ذلك الدلالة على صدق رسوله وصحة معجزاته ، وتكذيب مَن نسبه إلى السحر والكهانة ؛ لأن السحر عمل فى جسده واعتراه نوع من الوجع دون أن يعلم النبى ذلك حتى دعا ربه فأجابه وبيّن له أمره ، فإذا كان رسول الله ساحرا كما اتّهم ، لما غاب عنه ذلك ، ولو كانت معجزاته من باب السحر على زعم أعدائه ، لما اشتبه عليه ما عمل فيه من سحر ولتوصل إلى رفعه عنه ، وهذا من أقوى البراهين على صدقه ونبوته.

وقد أخبر رسول الله ﷺ عائشة عن هذا السحر دون غيرها من نسائه ؛ لأنه كان مأخوذا عن عائشة فى هذا السحر كما رواه يحيى بن معمر.

فما وقع لرسول الله من ضرر السحر ، كان بمثابة ما يقع للمريض من ضرر الحمّى من ضعف وسوء تخيل ، ثم زال عنه ، وأبطل الله كيد السحر ، وقد قام الإجماع على عصمته فى الرسالة .

---

(١) قصار السور نظرات وتأملات ص٥٢٠ للمؤلف ط مؤسسة الخليج العربى القاهرة.

السبـــع الموبقـــات

عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال :

اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا يا رسول الله وماهنّ ؟ قال :

« الشـرك بـالله ، والسـحـر ، وقـتلُ النفس التى حـرّم الله قـتلهـا إلا بـالحق، وأكل الربـا ، وأكل مــال اليــتــيم ، والتــولى يـوم الزحـف ، وقــذفُ المحصنات المؤمنات الغافلات» . رواه البخارى

● ● ●

حذرنا رسول الله ﷺ من أشياء تؤدى بنا إلى الهلاك وتوردنا النار.

إحداها : أن نجعل لله شريكا ونتخذ إلها غير الله.

وثانيهما : السحر وهو صرف الشىء عن وجهه ، سواء أكان ذلك بالاستعانة بالأرواح السفلية كالجن والشياطين ، أو عن طريق التخيل والتوهم كسحرة فرعون ، أو الاستـعـانة بخـواص الأدوية فى الدهـانات والمطعـومـات ، أو عن طريق الذين يعبدون الكواكب السيارة ويعتقدون أنها تأتى بالخير والشر . وكل ما يدخل تحت ذلك مما لطف وخفى سببه ، يسمى سحرا ، والسحور سمى بذلك لكونه يقع خفيا آخر الليل.

ومن الموبقـات : قـتل النفس دون جـريرة ارتكبهـا المـرء ، أمـا إذا ارتكب شخص جريمة القتل فليس لأحد من الأقارب أن يثأر لقتله ، وإنما هو موكول لولى القتيل ، وعادة يكون هو الحاكم أو من يعيّنه الوالى .

ومنها الربا ، وهو أخذ الزيادة عن مال دون عوض.

وأكل مال اليتيم الذى مات أبوه وهو دون البلوغ.

والتولى يوم الزحف ، والإعراض عن الحرب والفرار من الكفار .

وقذف المحصنات ، والمحصنة هى المرأة التى أحصنها الله تعالى وحفظها عن الزنا . والقذف هو الرمى ، واستعير هنا للشتم والبهتان ، والعيب ، وقيد المحصنات بالمؤمنات ؛ لأن قذف الكافرات لا يعد من الكبائر ، والغافلات : كناية عن البريئات ؛ لأن البرىء غافل عما بهت به من الزنا .

ذكر رسول الله ﷺ سبعا من الموبقات . وهذا لا ينافى أن يدخل معهن موبقات أخريات ، مثل قول الزور ، وزنا الرجل بحليلة جاره ، وعقوق الوالدين ، واليمين الفاجرة ، واستحلال بيت الله ، ومسك امرأة مؤمنة لمن يزنى بها ، والحكم بغير الحق ، والإصرار على الصغيرة .

فالتنصيص على عدد معين لا ينافى ما هو أكثر من ذلك . أما تعيين السبع هنا ، فقد تكون الحاجة دعت إليها فى هذا الوقت. إلا أن كل ذنب قرن به وعيد أو حدّ أو لعن فهو كبيرة .

فمن شتم رب العزة أو استهان برسوله ﷺ أو كذب أحد رسله ، أو ألقى المصحف فى القاذورات ، أو لطخ الكعبة بالعذرة أو نحو ذلك ، فهذا كله من الكبائر وإن كان الشرع لم يصرح بذكرها .

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً﴾ (النساء:٣١)

★★★★★

ويجدر بنا أن نقول كلمة عما جاء فى السحر .

يقول كثير من المذاهب : إن السحر له حقيقة ، إلا أبا حنيفة فإنه قال : لا حقيقة للسحر .

أما القرطبى فيقول : إن السحر حق وله حقيقة خلافا لبعض الشافعية ،

حيث قالوا : إنه تمويه وتخيل . ومن السحر ما يكون بخفة اليد ، ومنه ما يكون كلاما يحفظ ورقى تتلى .

وقد أنكر المعتزلة وجود السحر ، وربما كفروا من يعتقد وجوده . وهذا على خلاف رأى أهل السنة فقد قالوا بوجود السحر على الحقيقة ، وإن الساحر قادر أن يطير فى الهواء ، ويقلب الإنسان حمارا وبالعكس ، والدليل على ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (البقرة:١٠٢) وأن الرسول ﷺ قد سحر وأن السحر عمل فيه.

وهل يجوز تعلم السحر أو لا ؟ اختلف العلماء أيضا .

يقول بعض العلماء : إن العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محظور ؛ لأن العلم فى ذاته شريف ، ولأنه إذا تعلم وعرف يمكن بذلك الرد على فاعله ، ويمكن أيضا أن يميز بينه وبين الكرامة للأولياء . وكذلك إذا تعلمه أمكنه أن يتقيه ويجتنبه.

إلا أن بعض العلماء والفقهاء قالوا : إن تعلم السحر وتعليمه من الكبائر ، وهو قبيح عقلا وشرعا ، وذلك لقوله تعالى :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ ﴾ (البقرة :١٠٢) .

فالآية القرآنية تدل على تبشيع السحر وتعلمه وما يدفع إليه من ضرر . ومن عقد عقدة ونفث فيها فقد سحر .

والساحر بسحره ارتكب كبيرة وأمرا فظيعا ، ولذا قالوا يقتل إذا استعمل السحر ، غير أن الشافعى وأبا حنيفة قالا : يقتل إذا تكرر منه الفعل أو أقر بذلك .

وإذا تاب الساحر لا تقبل توبته عند أبى حنيفة ومالك إذا ظهر سحره فى الناس ، أما لم يظهر سحره وجاء تائبا قبلت توبته .

وفى الشفاء من السحر يحكى القرطبى :

يؤخذ سبع ورقات من سدر - أى نبق- فتدقّ وتصحن ثم تضرب بالماء ويقرأ عليها آية الكرسى ، ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ، ثم يغتسل بباقيه ، فإنه يذهب ما به ، وهو جيد للرجل الذى يمنع عن زوجه .

التعــــوذ

عن ابن عبـاس رضى الله عنهـمـا قال : كـان النبى ﷺ يعـوّذ الحـسن والحسين ويقول : إن أباكما كان يعوذ بها اسماعيل وإسحق ، أعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامّة ، ومن كل عين لامة. رواه البخارى

• • •

كان رسول الله ﷺ كثيرا ما يلجأ إلى ربه مستعينا به من كل حسد وكراهية قد تصيب حفيديه الحسن والحسين ، وكان دائما يردد المعوذتين فى هذا الشأن.

ونسب التعويذ إلى إبراهيم عليه السلام عندما كان يعوذ بكلماتها ابنيه إسماعيل وإسحق ، فكان الرسول ﷺ يتأسى فى هذا الأمر بأبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام . ويعد الحسن والحسين من نسل إبراهيم عليه السلام.

والمراد بكلمات الله ، أى عموم كلماته أو المعوذتين على وجه الخصوص ، ووصفها بالتامة لأنها وصف لازم ، حيث إن كل كلمات الله توصف بالتمام والكمال ، أى كلماته النافعة الشافية المباركة ، التى تمضى وتستمر ولا يردها شىء ولا يدخلها عيب أو نقص .

"من كل شيطان" سواء أكان من الإنس أو الجن ، و"هامة" أى من هوام الأرض كالثعبان والعقرب والحشرات الضارة التى تصيب الإنسان بسوء وتفتك به.

"ومن كل عين لامّة" أى ملمّة جامعة للشر والأذى ، من كل داء يلم بالإنسان من جنون أو خبل ونحو ذلك .

قال لامّة ولم يقل ملمّة ، للمزاوجة بين هامة ولامّة ، وهذا جائز فى اللغة العربية حيث تخرج عن القياس مراعاة للوزن الموسيقى.

وهكذا يعلمنا رسـول الله ﷺ بأن نحـتـاط من إيذاء الجن والإنس ، ومن شـر الآفـات التى تُلحق الضـرر بالإنسـان ، إذا خـفنا من الحـسـد أو سـوء الأمـور نتـعـوذ بالمـعـوذتيـن قل أعـوذ برب الفلق ، وقل أعـوذ برب الناس والله المسـتـعـان على أن يمنحنا العافية والبعد عن شرور الناس .

الاستعــاذة

عن أنس بن مالك رضى الله عنهما قال : كان النبى ﷺ يقول :

"اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والهَرم ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، وأعوذ بك من عذاب القبر". رواه البخارى

• • •

كان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من أشياء إذا لحقت بالمرء هان على نفسه وهان على أهله وهان على الناس ، وكل ما استعاذ منه من الأشياء المقيتة التى تضعف الجسد أوتحطم الروح.

فالرسول ﷺ يستعيذ من العجز الذى هو ضد القدرة ، فلا يقدر أن يقوم بعمل ما ، حتى ما يختص بنظافة البدن ، فيكون كَلاً على غيره .

"والكسل" : هو ضعف الهمة وإيثار الراحة للبدن على التعب ، وإنما استعيذ منه ؛ لأنه يبعده عن الأفعال الصالحة.

"والجبن" : أى الخوف من ملاقاة العدو ، ومن قول الحق ، وأكثر الحقوق يضيع بسبب الخوف والجبن .

"والهَرَم" : وهو كبر السن الذى يؤدى إلى تماوت الأعضاء وتساقط القوى ، وإنما استعيذ منه لكونه من الأدواء التي لا دواء لها ، وهو ما يسمى أرذل العمر ، فينتابه الخرف ويعود كهيئته الأولى طفلا ضعيف البنية ، سخيف العقل ، قليل الفهم ، فيضعف عن أداء الفرائض ، وعن خدمة نفسه ، فيكون ثقيلا على أهله يتمنون موته ، فإن لم يكن له أهل فالمصيبة أعظم .

"وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات" ، أى فتنة الحياة والموت ، أى يفتتن بالدنيا ويشغل نفسه بها عن الآخرة ، فيبيع آخرته بما يتعجله من الدنيا وما يغتّر به من فتنتها ، ويضيّع آخرته وما فيها من ثواب وجزاء.

وفتنة الممات أى يخاف عليه من سوء الخاتمة عند الموت ، فيتمنى المرء أن يحسن الله ختام أيامه ، فيموت فى ستر من الله وليس ميتة شنعاء .

"وأعوذ بك من فتنة القبر" ، وما يعرض له من مساءلة الملكين ومشاهدة أعماله السيئة فى أقبح الصور.

وتكرار لفظة أعوذ بك ثلاث مرات للدلالة على سوء ما يتعوذ منه لشدة مقت المرء أن تقع عليه ، وعندما انتقل من الخصوص إلى العموم تعوذ مرة أخرى فقال : أعوذ بك من فتنة المحيا والانسياق وراءها والأخذ بتلابيبها وعدم التفكير فى شىء سواها ، فهو شىء ضد ماسبق أن تعوذ به من حُطام الجسد ، وضيق النفس وتهافت الروح.

واستعاذ مرة ثالثة حين ذكر عذاب القبر ، لأنه يكون بين شيئين بعد الحياة وقبل البعث .

ثلاثة أشياء على المرء أن يخشاها : العجز وما يتعلق به من كسل وخوف وضعف.

وحب الدنيا والانسياق وراء متعها ، حتى ينسى المرء ما يجب عليه من التكاليف والطاعة والتقوى .

وضيق القبر وما فيه من شدة وسؤال وحساب وعذاب .

والرسول يسأل ربه أن يكفيه شر هذه الأمور ، فإن سلم منها سعد فى دنياه وفى آخرته . وعلينا أن نتأسى برسول الله ﷺ فى الاستعاذة منها حتى يجنبنا الله شرورها وآثامها وعواقبها .

المـــرأة



طبيعة المـــرأة

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« استـوصُوا بالنسـاء ، فإن المـرأة خلقت من ضِلَع أعـوج ، وإن أعوج شىء فى الضِلَع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرتَه ، وإن تركته لم يزل أعوجَ ، فاستوصوا بالنساء ». رواه البخارى

★ ★ ★ ★

أمـر رسـول الله ﷺ الرجـال أن يتـرفقـوا بالمـرأة وأن يعـاملوها بالحـسنى ، ويتعطفوا فى الإحسان إليها ، فأوصاهم بالخير فى حق النساء ، وعلينا أن نقبل وصيـة الرسول فيـهن ، والأمـر بالإيصاء "استـوصـوا بالنسـاء" فيـه حث على حسن المعاشرة والترغيب فيها.

وخص النسـاء بالذكر لضـعفهن واحتيـاجهن لمن يقـوم بأمـرهن ، أى اقبلوا وصيتى فيهن ، واعملوا بها ، واصبروا عليهن ، وارفقوا بهن ، وأحسنوا إليهن ، ثم علل هـذه المعـاملة الرفـيـقـة ، بأنهـا خلقت من الضلع الأعـوج الذى هو فى أعلى الضلع، وهو لا يقبل الاستقامة ؛ لأنه فى غاية الاعوجاج.

وسـميت المـرأة بهذا الاسم ، لأنهـا خلقت من المـرء وهو آدم عليه السـلام . خلقت من شقه الأيمن من غير أن يتألم ، ولو تألم لم يعطف رجل على امرأة أبدا.

وإنْ ذهبت تقيمه كسرته ، والمراد به التمثيل للطلاق ، لأنك إن أردت منها أن تتـرك اعوجاجها أفضى الأمر إلى طلاقها ، وكسرها طلاقها ، فمثل أمر طلاقها بالضلع والاعوجاج الذى فى أخلاقهن ؛ لأن للضلع عوجا ، فلا يتهيأ الانتفاع بهن إلا بالصبر على ما اعوج منهن.

يقال : إن الله تعالى لما أسكن آدم الجنة أقام مدة فاستوحش ، فشكا إلى الله الوحدة ، فنام ، فرأى فى منامه امرأة حسناء ، ثم انتبه فوجدها جالسة عنده ، فقال من أنت ؟ فقالت : حواء ، خلقنى الله لتسكن إلى وأسكن إليك.

ورتب الجواب على الشرط فى الحديث ، فكسر الضلع مترتب على التقويم ، والاعوجاج مترتب على الترك ، وعلينا المقابلة بين التقويم والترك . أى نقبلهن على ما جبلن عليه من طباع أو طلاقهن .

وفى قوله : "استوصوا بالنساء" إيجاز رائع واضح من سياق الكلام ، أى استوصوا بالنساء خيرا .

★★★★★

النســـاء الكوامـــل

عن أبى موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « كَمُلَ من الرجال كثيرا، ولم يكْمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». رواه البخارى

الكمال هو التناهى فى جميع فضائل الرجال. ولذا يقل عدد الأفاضل من الناس ذكورا وإناثا . إلا أن الكمال والفضل فى الرجال كثير ، وفى النساء قليل. فللرجال فضائل وللنساء فضائل أخر . وما يعد فضلا فى الرجال ، قد يكون منقصة فى النساء ، والعكس صحيح . فكم من فضيلة فى الرجل إذا وصفت بها المرأة تقدح فى أنوثتها ، وكم من ميزة فى المرأة إذا وصف بها الرجل حطت من شأنه وقللت من رجولته . وما ذكره الرسول ﷺ من فضليات النساء فى الحديث ليس على سبيل الحصر ، وإنما هو مجرد مثل على صبر المرأة على المكاره ، وتقبل الشدائد ، وتمام دينها وفرط ذكائها ، فالسيدة خديجة زوج رسول الله من فضليات النساء ، وفاطمة ابنته من النساء الكاملات .

وبعض الأقوال تنقل الإجماع على عدم النبوة للنساء . على حين ينقل بعضها الآخر أن من النساء من نُبّئ وهن ست : حواء ، وسارة ، وأم موسى ، وهاجر ، وآسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وقد ثبت مجىء المَلك لبعضهن فى القرآن كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران :٤٢) ، وكذلك بعد أن ذكر مريم وبعض الأنبياء قال ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ ﴾ (مريم :٥٨) فدخلت فى عموم الأنبياء.

وقال القرطبى : الصحيح أن مريم نبيّة لأن الله أوحى إليها بواسطة الملك.

وأما آسية فلم يرد ما يؤكد أو ما يدل على نبوتها.

وفضل السيدة عائشة على نساء هذه الأمة أن شبهها بفضل الثريد وهو الفتّة بلغة اليوم على غيره من ألوان الطعام ، لما فيه من سهولة الهضم ، وتيسير المضغ ، وقبول الإساغة ، وكان الثريد من أجلّ أطعمتهم آنذاك ، وعلى الرغم من فضل الثريد إلا أنه ليس أفضل الطعام على الإطلاق كما أن فضل السيدة عائشة لا يعنى فضلها على النساء جمعاوات ، وقد دلت طرق صحيحة على ما يقتضى أفضلية السيدة خديجة رضى الله عنها على غيرها من النساء كافة ، وقد ورد عن ابن عباس أن رسول الله قال (أفضل نساء الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم ابنة عمران ، وآسية امرأة فرعون).

ويروى أيضا عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ :

(سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران ، ثم فاطمة ، ثم خديجة ، ثم آسية امرأة فرعون).

أم المؤمنيـــن صفية

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

قدم النبى ﷺ خيبر ، فلما فتح الله عليه الحصن ذُكر له جمالُ صفية بنت حُيَىّ بن أخْطَب ، وقد قتل زوجها ، وكانت عروسا فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه، فخرج بها حتى بلغنا سدّ الروْحاء حلّت ، فبنى بها ثم صنع حَيْساً فى نِطَع صغير ، ثم قال رسول الله ﷺ : آذن مَن حولك ، فكانت تلك وليمة رسول الله ﷺ على صفيةَ ، ثم خرجنا إلى المدينة ، قال : فرأيت رسول الله ﷺ يُحَوِّى لها وراءهُ بعبَاءة ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبتيه ، فتضعُ صفية رجلها على ركبتيه حتى تركب . رواه البخارى

قدم النبى ﷺ خيبر ، وكانت غزوة خيبر سنة ست وقيل سبع من الهجرة ، فلما فتح الله عليه الحصن واسمه القموص ، ذُكر له جمال امرأة من السبى اسمها زينب ، وسميت صفية بعد السبى ، كانت ذات جمال باهر وحسن وضاء ، حتى إن رسول الله ﷺ قال لزوجه عائشة "يا عائشة إنك لو رأيتها اقشعر جلدك من حسنها" فلما رأتها حصل لها ذلك.

وكانت صفية متزوجة من رجل يسمى كنانة بن أبى الحقيق قتل فى المعركة. رأت صفية فى المنام قمرا أقبل من يثرب ووقع فى حجرها ، فقصت ذلك على زوجها فلطم وجهها ، وقال أتزعمين أن ملك يثرب يتزوجك ؟ وتركت هذه اللطمة علامة خضراء بالقرب من عينها .

كانت عروسا فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه ، وكلمة العروس يستوى فيها المذكر والمؤنث ، تقول : رجل عروس ، وامرأة عروس ، وتقول : أعرس الرجل : إذا دخل بامرأته عند الزواج بها .

واصطفاها : أي أخذها صفيا ، أى كانت سهما لها من المغنم ومن نصيبه وقيل : إنما سميت صفية بذلك ، لأنها كانت صفية من غنيمة خيبر.

يقول أنس راوى الحديث : خرج بها رسول الله ﷺ حتى إذا بلغنا سد الرّوحاء حلّت ، أىْ خرج بها رسول الله ومعه قومه حتى بلغوا موضعا بالقرب من المدينة على نحو أربعين ميلاً يسمى الروحاء ، فإذا بلغوا مشارفه نزل الركب ، فبنى رسول الله ﷺ بصفية ، أى تزوج منها ودخل بها ، وكان الرجل إذا تزوج بامرأة بنى عليها قبة ليدخل بها ، فيقال : بنى الرجل على أهله .

ثم صنع "حَيْساً" أى صُنع له طعام من تمر ودقيق وسمن ، وكان هذا الطعام هو وليمة عرسه ﷺ.

ووضع له هذا الطعام فى "نِطَع" أى فى وعاء من جلد . وطلب الرسول ﷺ الإشهار بهذا الزواج.

ويجدر بنا أن نقف وقفة قصيرة على ما كان فى عرس رسول الله ﷺ من بساطة لا كلف فيها ، فمن أبسط الأشياء تُعد وليمة الزواج ، ومن أقل الأطعمة يدعو الرسول الدعاة إلى العرس لا بذخ ولا إسراف ولا تظاهر ولا تعاظم ، وما فعله رسول الله يوم وليمة عرسه تستطيع كل أسرة أن تقيم مثله مهما كانت فقيرة متواضعة الحال.

فإذا نظرنا إلى الولائم التى تقام اليوم فى الأعراس ، إنها تتكلف الكثير من الأموال ، وهى عبء على الزوجين وأسرتهما ، يفعلان هذا ، وهناك من الأشياء ما هو أحقّ بالإنفاق من الولائم الضخمة الفخمة التى تقام فى الأندية الكبيرة على مستوى راق مبهر . بل إن أهل العروس قد يشترطون ذلك لإبرام العقد مما يكون عقبة فى إتمام الزواج ، فلو تأسى الناس بفعل الرسول فى زواجه ووليمته المتواضعة لكان هذا أجدى لهم ، وأجدر بأحوالهم المادية ، ولكن هيهات.

قال رسول الله لأنس رضى الله عنه آذن مَن حولك ، أى أعلمهم بإشهار

الزواج والإشهاد عليه ، حتى يطّلع الجميع على أمر زواج الرسول ﷺ من صفية بنت حُييّ بن أخطب .

يقول أنس : ثم خرجنا إلى المدينة فرأيت رسول الله ﷺ يُحوّى لها وراءه بعباءة.

يحوى أى يدير كساء فوق سنام البعير ثم يركبه ، وهى ما تسمى عند أهل الريف الحواية ، والعباءة ضرب من الكساء معروف.

وقوله : "فيضع رسول الله ركبته"، أى يجعلها على الشكل الذى يسهل على صفية أن تعتمد عليها وتركب البعير ، وكانت صفية تَعْظُم أن تجعل رجلها على ركبة رسول الله ﷺ ، فلما أركبها الرسول على البعير وحجبها بعباءته علم الناس أنها زوج رسول الله وكانوا قبل ذلك لا يعلمون إن كان قد تزوجها أم اتخذها أم ولد.

وهذه لفتة أخرى من لفتات رسول الله فى معاملته لأهله بالرفق واللين ، فكان يمد لها فى ركبتيه حتى تصعد إلى البعير فى يسر وسهولة ، ناهيك عما يحدث هذه الأيام : تسير المرأة محملة بالأشياء على رأسها وفى كلتا يديها ، وزوجها يسير أمامها فارغ اليد دون مساندة منه كأنها أمة وليستْ زوجة.

يقول الجاحظ : "كانت صفية بنت حيى من سبط هارون عليه السلام" وأصبحت ببناء رسول الله عليها من أمهات المؤمنين ".

والأمر فى قوله "آذن من حولك" للاستحباب والرغبة فى معرفة الناس للعرس ثم قول أنس بعد ذلك : "رأيت رسول الله يحوّى لها وراءه بعباءة" كل ذلك ليؤكد للجمع أن رسول الله قد بنى على صفية حتى سترها عن الأعين بعباءته ، ثم جاءت الأحداث متلاحقة من جلوس الرسول عند البعير ومدّ ركبتيه فى وضع خاص حتى تركب صفية البعير فى سهولة ويسر.

مآل النســـــاء

عن عمران بن حصين عن النبى ﷺ قال :

"اطّلعتُ فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء".

رواه البخارى

الجنة للمتقين الأخيار ، والنار للعاصين الفساق ، والجنة فيها الفقراء والأغنياء ولكن أكثر أهلها من الفقراء ، الذين حرموا من نعم الدنيا وصبروا على هذا الحرمان ، فعوضهم الله بنعيم الجنة فى الآخرة.

والنّار يردها الرجال والنساء ، ولكن أكثر أهلها من النساء ، وفى حديث رسول الله "إن الفساق هم أهل النار" وفسروا الفساق بالنساء. قالوا : يا رسول الله ألسْن أمهاتنا وأخواتنا وبناتنا؟ قال : بلى ، ولكن إذا أعطين لم يشكرن ، وإذا ابتلين لم يصبرن.

يقول المهلب : إنما تستحق النساء النار ؛ لكفرهن العشير "فمهما أغدق الزوج على امرأته ، ثم وقع فى هنةٍ ضئيلة تنكرن لما أغدق ، ولما أعطى ، وحاسبته على غفلته كأنه لم يقدم إليهن معروفا قط ، ولا يصفحن عن غفلته أبدا.

يقول القرطبى : إنما كان النساء أقل ساكنى الجنّة لما يغلب عليهن من الهوى، والميل إلى عاجل زينة الحياة الدنيا ، ولنقصان عقولهن ، فيضعفن عن عمل الآخرة والتأهب لها ، لميلهن إلى الدنيا والتزين بزينتها ، وأكثرهن معْرضات لمن يدعوهن إلى الآخرة وأعمالها.

أما الفقراء ، فلما كانوا فاقدى المال الذى يتوسل به إلى المعاصى فازوا بالسبق ، وإذا كانت هذه منزلة الفقراء فلم استعاذ الرسول ﷺ من الفقر ؟ قلنا : إن الرسول استعاذ من فتنة الفقر كما استعاذ من شر فتنة الغنى.

قــذف الزوجــة

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى ﷺ بشريك بن سمحاءَ فقال النبى ﷺ : البيّنةُ أو حدّ فى ظهرك ، فقال : يا رسول الله: إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل يقول : البيّنة وإلا حدّ فى ظهرك ، فذكر حديث اللعان.

رواه البخارى

إن القذف شأنه كبير وأمره خطير ، ولا شئ أقسى على المرء من أن يقذف زوجه بمعاشرة رجل آخر ، فالقذف بالزنا ليس بالأمر الهين ، ولذا عندما أخبر هلال رسول الله بأنه رأى امرأته تحت رجل آخر ، طلب منه رسول الله البينة على ما يقول ، وهدده بأنه إذا لم يأت ببينة أقام عليه الحدّ بالجلد ثمانين جلدة.

وهلال بن أمية هذا شهد بدرا وأحدًا وكان قديم الإسلام ، وهو أحد الذين تخلفوا عن غزوة تبوك . وقد رمى امرأته خولة بنت قيس الأنصارية بالزنا أو ما كان فى معنى الزنا ، رماها بالزنا مع شريك بن سمحاء .

وهلال هذا هو أول من لاعن فى الإسلام ، قال له الرسول البينةُ ، أى : الواجب عليك البينة ، وبالنصب على أن المعنى أحضر البينة أو أقم البينة ، فإن لم تحضر البينة ، فجزاؤك حدّ فى ظهرك ، أى حدّ على ظهرك . وإنما عبر بفى بدلا من على ؛ لأنها أدل على شدة تمكن الجلد من ظهره ؛ وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ (طه:٧١) أى على جذوع النخل، والتعبير بفى هنا مجاز.

وجعل رسول الله ﷺ يكرر هذه العبارة "البيّنة أو حد فى ظهرك" أكثر من مرة ليدل على أهمية إقامة البينة وإلا أقيم عليه الحد ؛ لأن أعراض الناس ليست

في أيدى الناس يلهون بها كما يشاءون ، فكان لابد من عقوبة رادعة ممضة إذا كان الرجل كاذبا فى دعواه .

قال هلال لرسول الله ﷺ والذى بعثك بالحق إنى لصادق فلينزلّن الله ما يبرئ ظهرى من الحد ، فنزل جبريل عليه السلام وأنزل على رسول الله هذه الآيات ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (النور: ٦-٩) .

فأرسل إليها رسول الله ، وشهد الزوج بما رأى ، فقال النبى ﷺ : "إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب"؟ ثم قامت خولة فشهدت ، فلما كانت عند الخامسة تلكأت ونكصت حتى ظن الحاضرون أنها ترجع عن شهادتها ، ثم قالت : والله لا أفضح قومي ، فشهدت الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ففرق رسول الله بينهما وسمى ذلك باللعان ، إما لقول الزوج : علىّ لعنة الله إن كنتُ من الكاذبين ، أو لأنه من اللعن وهو الطرد والإبعاد ؛ لأن كلا منهما يبعد عن صاحبه.

واختار لفظ اللعن على لفظ الغضب ؛ لأن لفظ اللعن ذكر فى الآية متقدما على لفظ الغضب . وجاءت صيغة اللعان بلفظ قبل لفظ الغضب .

وقد شرع اللعان لأهميته فى حفظ الأنساب ودفع المعرة عن الأزواج .

وفى قول الرسول ﷺ : البيّنة أو حد فى ظهرك "أسلوب إيجاز يختصر الكلام فى ألفاظه ولكن معناه مفهوم دون خلل ، أى الواجب عليك تقديم البينة أو أن يقام عليك الحد جلدًا فى ظهرك . وأسلوب الإيجاز شىء درج عليه العرب حتى عدوه أساس البلاغة عندهم .

"وحد فى ظهرك" استعمل فى هنا استعمالا مجازيا ، لأنها أقوى فى التمكن من "على" ظهرك .

وقول هلال : إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة ؟.

أى إذا رأى الرجل بعينه رجلا على امرأته ، ليس تخيلا أو توهما ، وإنما يرى حقيقة المنكر والفحش رأى العين ، فهل هناك دليل أعظم من هذا على اقتراف الفاحشة ؟ فالأسلوب من الأساليب الكنائية التى تنبئ عن الشىء خفية دون أن تتحدث عنه جهرة ، وفى التعبير أيضا بقوله "رجلا ينطلق" تعبير يمس المعنى المراد مسا خفيفا بأن رجلا لم يسمّه رغم أنه يعرف اسمه ، فالغرض التأكيد على هذه الفعلة المنكرة التى تتأتى من رجل أى رجل مهما كان ، ولا يهم معرفة اسمه، فتحديد الاسم لن يزيد أو ينقص من الأمر شيئا .

وعن ابن عباس : جاء هلال بن أمية عشاء فوجد عند أهله - امرأته - رجلا، فرأى بعينه ، وسمع بأذنيه فلم يُهجْه - لم يزعجه ولم ينفره - حتى أصبح ، ثم غدا على رسول الله ﷺ وحكى له ما رأى ، وما سمع ، فكره رسول الله ما جاء به واشتد عليه فنزل قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ (النور : ٦) الآيات المذكورة آنفا .. فالزوج تماسك ولم يفعل شيئا يؤخذ عليه ، والرسول كره أن يسمع منه مثل هذا القول حتى اشتد عليه ، وتحير فى أمره حتى نزل فى حادثته القرآن . فإذا أصيب الزوج فى خيانة فليصبر حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

سفـــر المـــرأة

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ :

"لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة ليس معها حُرمة" **رواه البخارى**

★ ★ ★ ★

"لا يحل" فعل مضارع فاعله : أن تسافر ، أى لا يحل لامرأة مسافرتها مسيرة يوم وليلة.

وقوله : لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر ، الفعل : تؤمن جاء وصفا للمرأة وقيد المرأة بأنها مؤمنة ، إذ الكافرة غير مقيدة بما تقيد به المرأة المؤمنة ، فإذا سافرت الكافرة دون محرم ، فهذا شأنها.

وهذا القيد للمرأة بكونها تؤمن بالله واليوم الآخر ، يؤكد حركة سفرها دون محرم ، لما فى ذلك من التعريض بأنها إذا سافرت بغير محرم فإنها تخالف شرط الإيمان بالله واليوم الآخر ، وعلى المسلمة أن تلتزم بالوقوف عند الأمر الذى نهيت عنه . ومسيرة يوم وليلة هى مسيرة الزمن الذى يصح فيه قصر الصلاة ، أى ما يقرب من ثمانين كيلو مترا ، فإذا نقصت المسافة عن ذلك ، فلها أن تسافر دون محرم ولا تأثم.

وقوله : "ليس معها حرمة "أى ليس معها ذو حرمة منها"

وفى هذه العبارة معنى الاستثناء ، أى : إلا أن يكون معها محرم فالحديث النبوى يفيد القصر ، أى لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلا ومعها حرمة "أى لا يصح لها بحال من الأحوال أن تسافر هذه المسافة دون محرم".

وقدم الظرف على اسم ليس فى قوله "معها حرمة" ليفيد الاهتمام بهذه الصحبة، وأن تكون الصحبة معها ومن شأنها ، فإن كانت صحبة المحرم مع غيرها لا تجزئها.

فإن قلت : روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها كانت تسافر بغير محرم قلت : كان الناس للسيدة عائشة محارم ، لأنها أم المؤمنين جميعا ، فمع أيهم سافرت ، فقد سافرت مع محرم ، أما النساء فلسن كذلك ، وهو قول الإمام أبي حنيفة أيضا .

الوفـــــاء بشرط عقــد النكاح

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج.

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

إذا اتفق شخصان على إبرام عقد من العقود ،، وضعا شروطا معينة لا يبرم العقد دونها ، لزم كلا الطرفين أن يوفى بهذه الشروط ، وهذا شىء يلزم تحقيقه حتى يصبح العقد ساريا بينهما. هذا شىء يعرفه الناس ويجب الوفاء به.

وهذا الوفاء بالشرط لازم فى كل عقد إلا أن أولى الشروط التى يجب الوفاء بها ، هى شروط عقد النكاح كما يقول رسول الله ﷺ.

فما يتعلق بالنكاح من مهر ، أو نِحلة يعطيها الزوج عن طيب نفس منه ، أو وعدا يقطعه على نفسه بأن يقدم لعروسه شيئا من الأشياء . كل ذلك عليه الوفاء به ليس على سبيل الإلزام ، ولكن عن طريق الأولوية عند العلماء كافة مادامت الشروط لا تنافى مقتضى النكاح ، كأن يشترط الولى أو الزوجة العشرة بالمعروف ، أو الإنفاق على الزوجة وكسوتها وسكناها ، وأنه لا يقصر فى شىء من حقوقها ، وأن يعدل فى القسمة بينها وبين غيرها من زوجاته - إن كان له أزواج أخريات غيرها - فعليه الوفاء بما اشترط عليه وقبله .

أما إذا كانت الشروط مخالفة لمقتضى عقد النكاح الذى أريد به الاستقرار والراحة والسكن ، كشرط ألا ينفق عليها ، أو يسافر بها ، أو لا يعدل بينها وبين

غيرها من زوجاته . فهذا شرط لا يجب الوفاء به ، بل يلغو الشرط ويصح النكاح بمهر المثل .

أما إذا اشترط ولى الزوجة - سواء أكان أبوها أو أخوها أو عمها أو يمت لها بصلة القربى - شيئا غير الصداق ، اشترطه لنفسه ، فيجب على الزوج الوفاء به ؛ لأنه من الشروط التي استحل به فرج المرأة . والرسول ﷺ يقول :

« أيما امرأة نُكحت على صداق أو حِباء - عطية - أو عدة ، قبل عصمة النكاح فهو لها ، وما كان بعد عصمة النكاح فهو لمن أعطيه ، وأحق ما أكرم عليه الرجل ابنته أو أخته ».

فإذا كانت الشروط مما يجب الوفاء بها ، فأحقها بالوفاء شروط النكاح "وما استحللتم به الفروج" كناية عن عقد الزواج وما يترتب عليه من جميع الحقوق الزوجية.

زواج الصغيـــرة

عن عروة أن النبى ﷺ خطب عائشة إلى أبى بكر ، فقال له أبو بكر :

"إنما أنا أخوك ، فقال : أنت أخى فى دين الله وكتابه ، وهى لى حلالى"

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

خطب رسـول الله ﷺ عـائشـة بنت أبى بكر وكـان عـمـرها ست سنوات ، أى خطبـها وهي فـتـاة صـغـيـرة لم تبلـغ الحلُم . وكـان ذلك حين أرسـل خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون يخطبها ، فقال لها أبوبكر رضي الله عنه ، وهل تصلح له ؟ إنما هى ابنة أخيه، فرجعتُ إلى النبى ﷺ فذكرتُ ذلك له ، فقال :

ارجعى وقـولى له : أنت أخى فى الإسـلام ، فـابنتك تصلح لى ، فـأتت أبا بكر فذكرت له ، فقال : ادعى لى رسول الله ﷺ فجاء فأنكحه.

وفى قول أبى بكر : إنما أنا أخوك بمثابة الشقيق لك، وابنة الأخ لا تصلح أن تكون زوجة لعمها.

وفى قول : خطب عائشة إلى أبى بكر "إلى هنا بمعنى من ، أي خطب عائشة من أبى بكر ، والأولى أن تكون إلي الغاية ، أى أنهى خطبته إلى أبى بكر ، كما تقول أحمد الله إليك ، أى أنهي حمده إليك.

وعندما قال أبوبكر للنبى ﷺ إنما أنا أخوك ، كان يعتقد أن محمدا لا يحل له أن يتزوج ابنته للمؤاخاة والصداقة العارمة التى بينهما ، فـأعلمه رسـول الله ﷺ أن أخوّة الإسـلام ليست كأخوة النسب والولادة فقال : إنها حلال لى وليس ثمة ما يمنع من اقترانى بها.

فالتخصيص الذى أفادته هذه العبارة "إنما أنت أخى" ليس على إطلاقه ، وإنما هو عن الأخوة فى الدين بالنسبة إلى الأخوة فى النسب ؛ لأنه كان يعتقد أن الأخوة مانعة من الاقتران بابنته ، فرده الرسول إلى غير ما يعتقد ، عندما أخبره أن الأخوة التي تمنع هى أخوة النسب لا أخوة الدين .

ولذا أجمع العلماء أنه يجوز للآباء تزويج الصغار من بناتهم وإن كن فى المهد ، إلا أنه لا يجوز لأزواجهن البناء بهن والدخول عليهن إلا إذا صلحن للوطء واحتملن الرجال ، وأحوالهن تختلف من فتاة لأخرى بحسب الطاقة والقدرة.

الحجـــاب

عن عائشة رضى الله عنها قالت :

إن أزواج النبى ﷺ يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع وهو صعيد أفيح ، فكان عمر يقول للنبى ﷺ : احجب نساءك ، فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل ، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبى ﷺ ، ليلا من الليالى عشاء ، وكانت امرأة طويلة فناداها عمر : ألا قد عرفناك يا سودة ! حرصا على أن يُنزل الحجاب . رواه البخارى

★ ★ ★ ★

كانت نساء النبى ﷺ يخرجن فى الخلاء ليلا للتبرز وقضاء الحاجة من بول أو غائط ، يخرجن إلى مكان قصى عن العمران والناس والأبنية حتى لا يطلع عليهن أحد ، وكان ذلك رخصة لهن لعدم الكنف فى البيوت ، فلما اتخذت الكنف فى البيوت ، منُعن من الخروج منها إلا عند الضرورة .

والتبرز كناية عن خروجهن لقضاء الحاجة ، يخرجن إلى الأماكن البعيدة الخالية المتسعة ، والمناصع هى الفضاء المتسع ، وسمى بالمناصع ؛ لأن الإنسان ينَصعُ فيها ، أى : يتخلص مما فى بطنه من الفضلات ، أو لأن الفضاء خالص من الأبنية والأماكن والناس .

وفَسر المناصع بأنها صعيد أفيح ، أى : أرض من الفضاء المتسع.

فقد طلب عمر رضي الله عنه من رسول الله ﷺ أن يأمر نساءه بستر وجوههن حين يخرجن فلا يعرفهن ، فنزل قول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ﴾
(الأحزاب :٥٩)

فلما وقع الأمر على وفق ما أراد عمر ، زاد فى الطلب بإرخاء الحجاب بينهن وبين الناس ، فنزل قوله تعالى : ﴿وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب﴾ (الأحزاب :٥٣)

ثم نزل الأمر بمنعهن من الخروج من البيوت إلا لضرورة شرعية ، فإذا خرجن لا يُظهرن أشخاصهن ، فنزل قول الله تعالى : ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ (النور:٣١)

وفى قول عمر " ألا قد عرفناك يا سودة" استعمل "ألا" وهى أداة تفيد التنبيه، والتنبيه لا يكون إلا لأمر عظيم لا يصح أن نغفل عنه ، واستعمل "قد التى تدل على التوكيد إذا دخلت على الفعل الماضى ، فأمعن عمر فى التوكيد بأنه يعرف زوج الرسول دون شك ، ولذا ناداها باسمها ليدل على أنه متيقن من شخصها ، وإذا كان عمر قد عرفها فسيعرفها الخلق جميعا ، ولا يبعد أن تتعرض هى وغيرها من الحرائر لسوء أخلاق الناس وسخافاتهم. ولا نستطيع أن نقول الآن إن خروج المرأة لقضاء الحاجة فى الأماكن التى لا يؤمها الناس ، أمر قد ولى وانقضى ؛ لأن الكنف قد عمت المنازل والأماكن العامة.

ولكن أما زالت الحاجة إلى التخلص من فضلات الطعام والاستبراء من البول قائمة الآن وبعد الآن ، وخاصة فى الطرق الصحراوية ، وفى مشارف البلاد وأعتاب القرى ، وفى الطريق إلى الأماكن المقدسة ، يضطر الرجالُ والنساءُ إلى قضاء الحاجة فى مكان قصى عن الطريق العام ، لا يحجبهن عن أعين الناس إلا أستار من الهضاب المرتفعة أو الكثبان الرملية .

الشـــؤم

عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنما الشؤم فى ثلاث فى : الفرس والمرأة والدار . رواه البخارى

★ ★ ★ ★

كثير من الناس يؤمن بالتشاؤم من بعض الأشياء ويؤمن بالتفاؤل من بعضها الآخر . وصار ذلك عندهم عادة لا يمكنهم التخلص منها ، مع أن رسول الله ﷺ يخبرنا أنه لا عدوى ولا طيرة - بوزن عنبة.

والحديث الذى معنا رواه ابن عمر ، يحصر الشؤم فى ثلاث : الفرس والمرأة والدار ، وليس معنى ذلك أن العرب لم تكن تتشاءم إلا بهذه الأشياء الثلاثة ، وإنما كانت تتشاءم بها وبغيرها ، إلا أنها كانت تتشاءم بهذه الأشياء بحكم العادة لا بحكم الخلقة . وإنما خصت هذه الأشياء الثلاثة بالذكر لطول ملازمتها لها ومصاحبتها إياها ، فغالب أحوال الإنسان أنه لا يستغنى عن دار يسكنها وزوجة يعاشرها ، وفرس يركبها . فالحصر الذى إفادته إنما ليس على ظاهره ، وإنما التشاؤم فيها أكثر من التشاؤم فى غيرها.

والرسول ﷺ عندما يقول : إنما الشؤم فى ثلاث كان يحكى عن أهل الجاهلية لأنهم كانوا يعتقدون الشؤم فى هذه الثلاث ، وليس معناه أن الشؤم حاصل فى هذه الثلاث بالنسبة للمسلمين ، وكانت عائشة رضى الله عنها تنفى الطيرة ولا تعتقد منها شيئا ، وعندما أخبرت أن أبا هريرة يحكى عن رسول الله ﷺ أنه قال : الطيرة فى المرأة والدار والفرس "غضبت وطارت شقة - قطعة - منها فى السماء وشقة فى الأرض وقالت : والذى نزل القرآن على محمد ﷺ ما قالها رسول الله قط ، إنما قال : أهل الجاهلية يتطيرون من ذلك ، فهذا الحديث حكاية عن أهل الجاهلية ، لا

أنه عنده كذلك . وقرأت عائشة ﴿ ما أصاب من مُصيبةٍ في الأرْض ولا في أنفُسكُم إلاَّ في كتابٍ مِّن قَبْلِ أن نَّبْرأَهَا ﴾ (الحديد:٢٢) فالتشاؤم من هذه الأشياء أثار غضب السيدة عائشة وغيظها ، فما يحدث نتيجة لرؤية بعض الأشياء من التشاؤم والتفاؤل أبطله القرآن حيث قال : ﴿ قُل لَّن يُصيبنا إلاَّ ما كتب اللهُ لنا ﴾ (التوبة:٥١) فما خط فى اللوح المحفوظ لم يكن منه بد ، وليس بشىء يصرفه عن ذلك .

وقد يراد بشؤم المرأة أن تكون سيئة الخلق ، أو تكون غير قانعة ، أو تكون سليطة اللسان ، أو تكون غير ولود ، أو تحن إلى زوجها الأول.

وشؤم الفرس أن تكون شموسا جامحة ، غير ذلولة لصاحبها.

وشؤم الدار أن تكون ضيقة ، غير صحية ، أو يكون جارها جار سوء ، أو قريبة من أماكن اللهو بعيدة عن أماكن العبادة . فهى أشياء غير مستحبة فى المرأة والفرس والدار . ويمكن للمرء أن يتخلص منه بالبعد عنها .

وذكر الحديث بلفظ العموم أولا ثلاث ثم جاء التفصيل الفرس والمرأة والدار، لبيان المجمل وتخصيص العام.

وهناك أحاديث كثيرة تنبئ عن سعادة ابن آدم فى ثلاث : المرأة الصالحة ، والمسكن الصالح ، والمركب الصالح .

وعن شقاوة ابن آدم فى ثلاث : المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء.

فما يدعو إلى الشقاء إذا رأيت المرأة تسوءك وتحمل لسانها عليك ، أو تكون عاقرا.

والدابة الحرنة الشموس إن ضربتها أتعبتك ، وإن تركتها لم تسعفك .

والدار تكون ضيقة قليلة المرافق ، خبيثة الجيران .

ويروى أن الله عز وجل لما خلق المرأة فرح الشيطان فرحا شديدا ، لأن النساء حبائل الشيطان .

وروى أيضا : استعيذوا من شرار النساء ، وكونوا من خيارهن على حذر

وقال ﷺ : أوثق سلاح إبليس النساء ، وذلك لأن المرأة ناقصة عقل ودين ، وغالبا ما ترغب زوجها فى طلب الدنيا ومتاعها ، فيغفل عن شئون دينه ، ويبتعد عن ربه وخالقه ، ويشهد لذلك قوله تعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ (آل عمران :١٤)

وقد أخبر الله أن من النساء من هن أعداء للرجال فقال :

﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ (التغابن :١٤)

فاتقوا النساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت من النساء. رواه مسلم

كفـــالة البنـــت

عن عائشة زوج النبى ﷺ قالت : جاءتنى امرأة معها بنتان تسألنى ، فلم تجد عندى غير تمرة واحدة فأعطيتها فقسمتها بين ابنتيها ثم قامت فخرجت ، فدخل النبى ﷺ فحدثته فقال : من يلى من هذه البنات شيئا فأحسن إليهن كنّ له سترا من النار . رواه البخارى

★ ★ ★ ★

وفى إحدى الروايات ، عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : جاءتنى مسكينة تحمل ابنتين فأطعمتها ثلاث تمرات ، فأعطت كل واحدة منهما تمرة ، ورفعت تمرة إلى فيها لتأكلها ، فاستعطمتها ابنتاها ، فشقّت التمرة التى كانت تريد أن تأكلها ، فأعجبنى شأنها .

وليس بالضرورة أن يكون الإنفاق على ابنتين ، بل يدخل فى الحكم البنتان والأختان أو ذواتا قرابة يتكفل المرء بشأنهما ، احتسب ذلك عند الله وكان أجره وافيا وجزاؤه عظيما .

والإحسان يكون بالطعام والسقيا والكسوة والإيواء والكفالة والرحمة ، وأن يتقى الله فى أمرهن ، وأن يربيهنّ ويحسن تربيتهن ويزوجهن ، فمن يفعل ذلك دخل الجنة ، والرسول ﷺ يقول :

{ لا يكون لأحدكم ثلاث بنات أو ثلاث أخوات فيحسن إليهن إلا دخل الجنة}

وفى حديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ ، "من كن له ثلاث بنات فـأواهن وكفلهن دخل الجنة ، قلنا : وثنتين ، قال وثنتين ، قلنا : وواحدة ، قال : وواحدة وفى قوله "كن له سترا من النار" أى كن له حجابا يحجبه عن النار ولسعها وهجيرها وأن يقيه الله شر عذابها .

وفى قوله : من يلى من هذه البنات شيئا "فالشرط (مَن) يفيد العموم حتى يشمل المعنى كل من يتولى أمر البنات سواء أكان أبا أو أخا أو ذا قرابة ، يلى شيئا ولو كان قليلا ، فالتنكير للتقليل ، ولكن جزاءه عظيم عند الله ، ثم وضح شيئا بقوله فأحسن إليهن ، أى أن الولاية تكون فى صالح البنات وليست فى إلحاق الضرر بهن ، بألا ينفق عليهن أو يهينهن أو يعضلهن ويحبسهن عن الزواج من الرجل الصالح ، وكل ذلك بعيد عن الإحسان ، فيعمل بغير النصيحة التى رغبنا النبى ﷺ فى العمل بها ومراعاتها .

الختـــــان

عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال :

"الفطرة خمس : الختانُ ، والاستحداد ، ونتف الإبط ، وقصّ الشارب وتقليم الأظافر". رواه البخارى

★ ★ ★ ★

هذه هى سنة الأنبياء ، وهى الفطرة التى فطر الناس عليها ، وقد أمرنا أن نقتدى بالأنبياء فى اتباعها ، وأول من أمر بها إبراهيم عليه السلام ، يقول الله تعالى ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ (البقرة :١٢٤) .

والتخصيص بالخمس لاينافى الرواية القائلة بأنها عشر ، بإضافة السواك والمضمضة والاستنشاق والاستنجاء وغسل البراجم - جمع بُرجمة - وهى مفاصل الأصابع من ظهر الكف ، إذا قبض القابض كفه ارتفعت .

والختان واجب على ظاهر الأقوال على الرجال والنساء .

وفى قول سنّة ، وبه قال مالك .

وفى قول ثالث : هو واجب على الرجال دون النساء . وروى مرفوعا : الختان سنة الرجال ومكرمة للنساء ، وهو حديث ضعيف.

أما وقت الختان ، فهو فى اليوم السابع بعد الولادة ؛ اقتداء بأمر رسول اللهﷺ فى الحسن والحسين رضى الله عنهما فإنه ختنهما يوم السابع من ولادتهما.

وعند الشافعية بعد البلوغ، وقال الليث : للغلام ما بين سبع سنين إلى العشر.

ويروى أن إبراهيم عليه السلام ختن ابنه اسحق لسبعة أيام ، وختن ابنه

إسماعيل لثلاث عشرة سنة ، أما إبراهيم نفسه فقد خُتن بقدوم ، اسم موضع أو اسم آلة النجارة ، وقد تجاوز السبعين .

والصحيح أن الختان واجب بعد البلوغ ويندب قبله ، وعن ابن عباس أن النبى ﷺ قبض وأنا ختين وكان سنّه حينذاك ثلاث عشرة سنة.

ولكن لم يرد عن النبى ﷺ أنه ختن ابنتيه فاطمة وأم كلثوم ، ربما لأن الختان للفتيات لا يجهر به حياء ، بخلاف الذكور فلا بأس بالإعلان عنه .

ولذا ورد أن النبى ﷺ تحدث عن ختان الحسن والحسين ابنىِّ السيدة فاطمة زوج علىٍّ كرم الله وجهه ، وهما أحفاد رسول الله ﷺ .

كذلك لم يرد نفى الختان عن بنات الرسول أو أحفاده ، مما يجعلنا نتريث فى الحكم أن ختان البنات مكروه أو مباح أو ممنوع .

وإذا كانت الفطرة هى الخلقة التى أوجدها الله فى الإنسان ذكرا أو أنثى ، ومن مواضع الفطرة الختان ، فكأن الختان طبع ووسيلة طيبة لكى يكون المرء بعيدا عن القذارة قريبا من شرعة الله. وهذا يتحقق فى الرجل والمرأة على حد سواء.

أما قطع جزء من البظر أو استئصاله تماما ، فهو شىء يتعلق بأهل الخبرة وهم الأطباء فى هذا المجال .

وما يجرى على الألسنة من القول بأن الرسول ﷺ قال للخاتنة اقطعى ولا تنهكى ، فهو ضعيف.

وقد استعنت برأى الأستاذ الدكتور سيد أبو الخير أستاذ علم وظائف الأعضاء بجامعة الأزهر . فقال للذكر أن يختن ، لأن الختان يمنع الإصابة بسرطان القضيب، وفى الختان متعة للرجل والمرأة أثناء عملية الجماع الجنسى ، وقلة حدوث الإصابة بالالتهابات على وجه العموم .

أما بالنسبة للفتاة فالخفض منتشر فى مصر والسودان ، وإن كانت عملية الخفض تجرى فى كثير من البلاد العربية والإسلامية . إلا أنه يستحب للفتاة قبل البلوغ ؛ لأن خطورته بعد البلوغ قاطعة وواردة .

ومن مساوئ الخفض ألا تتم عملية الارتواء الجنسى بين الرجل والمرأة ، ومن مساوئه أيضا أنه يسبب تعاطى المخدرات والإدمان عند الرجل ، لكي يصل إلى الارتواء الجنسى معها .

وعدم خفض المرأة وكونها عرضة للاحتكاك بملابسها يزيدها إثارة وشهوة . أما خفضها فيبعدها عن الالتهابات التى تصيب الموضع .

هذا كله إذا كان الخفض يسيرا ، أما الانتهاك وسوء الاستئصال فله مضاره المحققة الأكيدة .

فقد يؤدى إلى صدمة عصبية . وقد يؤدى إلى نزيف دموى ، وربما أدى إلى انسداد مجرى الدم مما يؤثر فى الولادة . كما أنه يؤثر أيضا فى عملية الارتواء الجنسى .

فالقطع دون الانتهاك محبب فى المرأة ؛ لأنه يجعلها متجاوبة مع الرجل مما يؤدى إلى السعادة الزوجية . انتهى

أما بقية ما جاء فى الحديث : من الاستحداد وهو حلق العانة ، ونتف الإبط ، وقص الشارب ، وتقليم الأظافر فهى سنن إسلامية سنها الإسلام ، للنظافة الحسية، فإذا اجتمعت النظافة الحسية مع النظافة الروحية ، كما فى ضرورة اقتران الوضوء بالصلاة ، كان الشخص مهيأ للوقوف بين يدى ربه خالصا نقيا طاهرا . فهذه الأشياء الخمس أو العشر كما جاء فى بعض الروايات ، الغرض منها النظافة والطهارة ، والبعد عن الأمراض التى تُجلب بتركها. والإسلام يحثنا على الوقاية منها حتى لا نقع فيها ، والوقاية خير من العلاج .

النهـــى عن نكاح المتعـــة

عن ابن عمـر رضى الله عنهمـا أن رسـول الله ﷺ نهى عـن أكل الـثـوم وعن لحوم الحمر الأهلية.

وفى حـديث آخـر عن علىٍّ بن أبى طالب رضي الله عنه أن رسـول الله نـهى عن متعة النساء يوم خيبر وعن أكل الحمر الإنسية. رواه البخارى

★ ★ ★ ★

فى الحديث الأول الذى نهى فيه الرسول عن أكل الثوم ظاهره التحريم ، ولكن فى صـحـيح مسلم من حـديث أبى أيوب : أحرام هو ؟ قال : لا ، ولكنى أكرهه من أجل ريحه ، وقد صرح بأنه ليس بحرام ولكنه مكروه ، وكان الرسول ﷺ لا يأكله ؛ لأن الملائكة لا تحب رائحة الثوم وتنفر منه .

فلفظ النهى عن الثوم وعن آكل لحوم الحمر الأهلية استعمل حقيقة ومجازا فى وقت واحد ، استعمل مجازا فى أكل الثوم لأنه مكروه وليس بحرام .

واستعمل حقيقة فى أكل لحم الحمر لأنه حرام . فاستعمل فى حقيقته وهو التحريم ، واستعمل فى مجازه وهو الكراهة . فلفظ النهى جمع بين الحقيقة والمجاز.

ونهى رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة ، أى متعة النساء. ويكون بلفظ التمتع إلى وقت معين نحو أن يقول لامرأة : أتمتع بك كذا مدة ، بكذا من المال ، وأجمع الفقهاء على أن المتعة نكاح لا إشهاد فيه ، وأنه نكاح إلى أجل ، وتقع فيه الفُرقة بلا طلاق ، ولا ميراث بينهما ، وليس هذا حكم الزواج فى كتاب الله ولا سنة رسوله.

كان نكاح المتعة مباحا فى صدر الإسلام ثم حرم ، ولا خلاف فى تحريمه بين الأئمة إلا شيئا ذهب إليه بعض الروافض والمبتدعة .

كما كان ابن عباس رضي الله عنه يتأول فى إباحته للمضطر بطول الغربة وقلة اليسار ثم توقف عنه وأمسك عن الفتوى به .

وفى حديث ابن عمر أنها كانت رخصة فى أول الإسلام لمن اضطر إليها ، كالميتة لا يجوز أكلها إلا عند الضرورة القصوى ، ثم نهى الرسول عنها .

نهى الرسول عن زواج المتعة يوم خيبر أو فى زمن الفتح أو فى غزوة تبوك أو فى حجة الوداع؟.

اختلف العلماء فى ذلك ، وساق كل منهم دليلا يؤيد وجهة النظر التي ذهب إليها .

وعن جابر بن عبدالله قال :

خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك ، حتى إذا كنا عند العقبة مما يلى الشام ، جئن نسوة ، فذكرنا تمتعنا وهن يجلْن فى رحالنا ، فجاءنا رسول الله ﷺ فنظر إليهن فقال : من هؤلاء النسوة؟ فقلنا : يا رسول الله نتمتع منهن ، فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنته ، وتغير وجهه ، واشتد غضبه ، فقام فينا خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم نهى عن المتعة ، فتوادعنا يومئذ الرجال والنساء ، ولم نعد ولا نعود لها أبدا .

وأما الحمر الأهلية فقد نهى عن أكلها ضمنا القرآن الكريم حين قال :

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ (النحل :٨) ولم يصرح بالنهى - إلا أن رسول الله ﷺ نهى عن أكلها صراحة حيث روى عنه خالد بن الوليد رضي الله عنه نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الخيل والبغال والحمر.

وروى عن بعض الصحابة : أصابتنا مجاعة يوم خيبر ، والقدور تغلى بما فيها حتى نضجت ، فجاء منادى النبى ﷺ وقال : لا تأكلوا من لحوم الحمر شيئا وأهريقوها ، أى أريقوها، وألقوا ما بداخلها. وهذا يقطع بتحريمها قطعا باتاً لا رجوع فيه .

أســـرار البيـــوت

عن أم سلمـة أن النبى ﷺ كـان عندها وفى البـيت مـخنّث ، فـقـال المـخنث لأخى أم سلمـة عبـدالله بن أبى أمـيـة إن فـتح الله لهم الطائف غدا ، أدلّك على ابنة غيلان ، فإنها تُقبل بأربع وتدبر بثمـان ، فقـال النبى لا يدخلنّ هذا عليكم . رواه البخارى

★ ★ ★ ★

البيوت مـغلقة على أهلهـا ، وبداخلها كثيـر من الأسـرار التى ينبـغى ألا يطلع عليها أحد ، فإذا دخلها امرؤ ورأى شيئا من عوراتها عليه ألا يخبر بها أحدًا ، هذه هى المـروءة التى يجب على المـرء أن يتصف بها ولا يتـخلى عنهـا ، فـربمـا كـان فى البيت ما يسئ إلى أهله ، أو ما يسوء إذاعته ، خاصة فى الأمور التى تتعلق بالنساء ، ولهذا جاء التشريع بأن تحتجب المرأة ولا تظهـر مفاتنها للرجال ، فإذا وقع عليها النظر لسبب أو لآخر دون قصد فـلا نتحدث عما رأينا ، ولا نصف ما رأيناه لأحد. ولذا كـان رسـول الله ﷺ حـريصـا على أن يدعـو الناس إلى التمـثل بهـذه الأخـلاق الكريمة ، وقد حدث أن مخنّثاً كان يعيش مع أم سلمة فى البيت ، والمخنث هو الذى يشبه النساء فى أخلاقهن ، فى صوته وحركاته ، فإن لم يُخلق هكذا وتكلفه فهو خلق بغيض مذموم ، هذا المخنث اسمه هِيت ولقبه ماتع ، وقد نفاه رسول الله ﷺ لسوء خلقه ، حين أخبر أخا أم سلمة بابنة غَيلان ووصفها له حتى يسعى لخطبتها.

قال : إنها تقبل بأربع وتدبر بثمان ، فسمعه النبى ﷺ ، فقال : لا يدخلنّ هذا عليكم ، ونفاه من المدينة .

وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قد أُتى بمخنث قد خضب يديه ورجليه ، فقيل: يا رسول الله هذا يتشبه بالنساء فنفاه إلى النقيع .

وفى وصف المخنث لابنة غيلان أنها تقبل بأربع وتدبر بثمان ، كناية عن سمنها ، لها فى بطنها عُكَن أربع وترى من ورائها لكل عكنة طرفان ، فتبدو من الخلف ثمان عُكن ، والعُكنة : الطىّ الذى فى البطن من السمن ، فأعكانها ينعطف بعضها على بعض ، فتبلغ أطرافها إلى خاصرتها فى كل جانب أربع فتبدو من الخلف ثمان.

عندما سمع رسول الله وصف المخنث لابنة غيلان ، كره ذلك منه أشد الكراهة ، وطلب من أهل البيت ألا يدخلوه عليهم فى البيت بعد ذلك ، وأكد ذلك تأكيدا واضحا بنون التوكيد. لا يدخلنّ هذا عليكم .

وليس التأكيد بعدم الدخول فى البيت وحده ، وإنما فى العبارة ما فيها من التحقير لذلك المخنث ، فعبر "بهذا" التى تفيد الإشارة إلى الدانى فى المنزلة ، فنفى عنه رفعة المكانة وعلو المنزلة ، ليس لأنه مخنث ، فربما خلق هكذا ولا لوم عليه ، ولكن لأنه أفشى سر امرأة اؤتمن على رؤيتها لبقائه فى بيتها.

والعرب لا تسمح برؤية أحد لبناتهن فضلا عن الإقامة معهن فى بيت واحد ، إلا إذا كان من غير أولى الإربة من الرجال ، الذين لا يشتهونهن لعيب خلقى فيهم ، كأن يكون عنينا أو أبله ، أو لا يخشى منه على نسائهن ، ولما كان هذا المخنث هكذا سمح له بالبقاء فى البيت .

حجبه رسول الله ﷺ عن الدخول إلى النساء لما سمعه يصف المرأة بهذه الصفة التى تهيج شهوة الرجال ، فمنعه لئلا يصف النساء للرجال ، فيسقط معنى الحجاب ; وكان هذا المخنث يدخل عليهن ؛ لأنه يعتقد فيه أنه من غير أولى الإربة، فلما وصف هذا الوصف دل على أنه من ذوى الإربة ، فكان منعه من دخول البيت منعا لاستشراء هذا الشر المستطير ، ورفع هذا البلاء البغيض .

التشبه الملعون

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال. رواه البخارى

★ ★ ★ ★

هذه الأشياء التى يبدو فيها الرجل كالمرأة ، كأن يتشبه الرجل بالمرأة فى الزينة والملبس بأشياء تختص بها النساء ، مثل لبس القلادة والأسورة والقرط والخلخال ، ونحو ذلك مما ليس للرجال لبسه ، وأن تشبه النساء بالرجال ، فى لبس الأردية ، والقلنسوة ، والمشى فى مجالس الرجال ، وغير ذلك مما لا يجوز للمرأة استعماله.

وكذلك التشبه بالأفعال كأن يتشبه الرجل بخصائص النساء ، كالتخنث والتكسر فى الحركات والكلام والمشى. وأن تتشبه المرأة بالرجل فى تغليظ الصوت وعنف الحركة . أما التشبه فى أمور الخير فلا بأس به .

وهيئة اللباس قد تختلف من بلد إلى آخر بحسب العادة والتقاليد ، فإطالة الشعر ولبس الأقراط ، ولبس الضيق على الأجسام قد يكون مألوفا فى بلد ولا يغض من رجولة الرجل كما نرى فى البلاد الأوروبية ، وربما لا يفترق زى رجالهم عن زى نسائهم .

علي أن بعض الناس إذا كان ذلك فى أصل خلقته ، أفعاله وحركاته ، فإنه يؤمر بتكلف تركه ، والتطبع بطباع الرجال إن كان رجلا ، والإناث إن كانت امرأة ، فإن لم يفعل وتمادى فى سلوكه فهو معيب ويستحق اللوم والذم ، خاصة إذا بدا منه ما يدل على الرضا.

فهذا التخنث الذى يدل عليه اللين فى الكلام ، والتكسر فى الأعضاء وأن يتشبه الرجل بالنساء فى أقوالهن وأفعالهن ، أو تتشبه المرأة المسترجلة بالرجل فى أقواله وأفعاله ، حتى إن الرجل يؤتى ويلاط به ، والمرأة يسحق بها ، فهو أمر بغيض أشد البغض حتى إن رسول الله ﷺ أمر بإخراج من يقترف هذا الفعل من البيوت لأنه قد يؤدى فعلهم إلى شر عظيم وأمر خطير لا يقبله الطبع ، ولا تسيغه النفس ، إذا كان الطبع سليما ، وكانت النفس طاهرة .

تربيـــة الأطفـــال

عن عُمر بن أبى سلمة يقول : كنت غلاما فى حِجْر رسول الله ﷺ ، وكانت يدى تطيش فى الصحْفة ، فقال لى رسول الله ﷺ : سمّ الله وكُلْ بيمينك ، وكل مما يليك ، فما زالت تلك طِعمتى بعدُ . رواه البخارى

★ ★ ★ ★

رعاية الأطفال واجبة على الأبوين ، فالولد يولد خاليا من كل شىء ؛ خاليا من الشوائب ، خاليا من العادات ، خاليا من مكارم الأخلاق ، والأسرة هى التى تقوّم سلوكه وتبين له الخير من الشر ، فالطفل فى المهد ترعاه أمه وتلقنه الخلق الحميد. والأب يأخذه معه إلى أماكن الطاعات ويؤم به المساجد حتى يكتسب الدين القويم ويتخلق بأخلاقه . وعلى الوالدين إذا تصرف الغلام تصرفا لا يليق أن يُنبهه على ذلك ، ويستبدل الخير بالشر والشىء الحسن بالشىء الكريه ، فالعادات المكتسبة يجب أن تكون سليمة ، لا يبغضها الدين ولا ينفر منها الطبع ، ولا يمقتها الذوق.

وعمر بن أبى سلمة . وهو غلام دون البلوغ يقوم الرسول على تربيته ورعايته ، وكان يربّيه فى حضنه كما يربى الوالد ابنه . والغلام لا يعرف شيئا عن أدب الطعام وسلوكياته ، فكانت يده تتحرك فى الصحفة حيثما اتفق ، يأكل من أمام ومن خلف ومن كل جانب ، ولا يقتصر على موضع واحد ، فكانت يده تطيش فى الصحفة ، أى تتجه حيثما يكون . لم يعرف الغلام أنه يخالف بذلك الطبع السليم ، وأن ذلك مجافٍ للعرف والعادة .

والرسول الوالد المربى رأى فى سلوك الغلام اعوجاجا فأراد أن يقومه ، مستعينا باسم الله يبدأ به من يتناول الطعام، كما ينبغى أن يبدأ به فى كل الأمور.

وأن يأكل بيده اليمنى لا باليسرى - فمن أكل بشماله شاركه الشيطان طعامه ولم تحل به البركة ، وكلْ من أمامك ، ولا تضرب بيدك فى كل اتجاه حتى لا يعافك المشاركون فى الطعام .

أخذ الغلام بهذه النصيحة ، وسار عليها طيلة حياته ولم يغيرها حتى لقى ربه والأمر فى "سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك" ، للندب لا للوجوب فى التسمية وللوجوب فى الأكل لورود الوعيد بمن يتركه ، فقد روى رسول الله ﷺ : لا تأكلوا بالشمال فإن الشيطان يأكل بالشمال .



الطهـــارة



الاستنجـــاء

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال :

"اتبعت النبى ﷺ وخرج لحاجته فكان لا يلتفت ، فدنوت منه ، فقال: ابغنى أحجارا استنفض بها أو نحوه ، ولا تأتنى بعظم أو روث ، فأتيته بأحجار بطرف ثيابى فوضعتها إلى جنبه وأعرضت عنه ، فلما قضى أتبعه بهن" . رواه البخارى

★ ★ ★ ★

خرج رسول الله ﷺ لقضاء حاجته ، وكان من عادته حين يمشى لا يتلفت يمنة ولا يسرة ولا يتطلع إلى أحد ، فقد كان أدبه يمنعه من التلفت حياء ، وكان أبو هريرة رضي الله عنه يسير وراءه فاقترب منه ، استئناسا به وليلبى له حاجةً إذا طلبها ، فقال له الرسول ﷺ : اعطنى أحجارا أستنج بها وأنظفْ نفسى من أذى الحدث ، واستبرئ بها من بقايا البول ، إلا أن الرسول ﷺ خشى أن يَفهم منه أبو هريرة أن كل شىء مباح فى الاستنجاء ، فنهاه عن إحضار العظم والروث.

سأل أبوهريرة رسول الله ﷺ فما بال العظم والروث ؟ قال : هما من طعام الجن، فالروث لنجاسته ، والعظم للزوجته ، فلا يزيل النجاسة إزالة تامة ، ويلحق بذلك كل ما كان محلا للاحترام ، وموضعا للتكريم ، كطعام الآدميين وأوراق كتب العلم.

وقد نص على الأحجار دون غيرها مما يصلح فى الاستنجاء كالخشب والورق والخرق ؛ لأنها كانت من أكثر الأشياء التى يستنجى بها وأقربها تناولا.

وقد عطف جملة "خرج لحاجته" على جملة "اتبعت النبى" ؛ لأنها كلا منهما جملة فعلية فعلها ماضٍ فتحقق التوازن بينهما شكلا ومضمونا .

"فكان لا يلتفت" كناية عن حسن أدب الرسول حتى نتعلم منه طريقة السير فى الطريق ، والطريق له حرمةٌ وخُلُق يجب أن تُراعى .

وعطف بالفاء فى الجمل الثلاث ، فكان لا يلتفت ، فدنوت منه ، فقال :

لأن عدم التفات الرسول فى الطريق ، ودنو أبى هريرة منه ، وقول الرسول كلها حدثت دون مهلة بينها وبين ما قبلها .

وفى قوله "أبغنى أحجارا" نكر كلمة أحجار حتى تشمل أى نوع منها . و"استنفض بها" كناية عن الاستنجاء والاستبراء من البول .

وقوله "أتيته بأحجار بطرف ثيابى" أى أنه أتى الرسول ﷺ بأحجار قليلة جمعها طرف ثوبه ، ولو كانت كثيرة لعبّر بفى وقال (فى طرف ثيابه) بأن يجعل ثيابه وعاء لها .

وقال بطرف ثيابه ، وهو ثوب واحد ، إلا أنه عبر بالجمع لشدة حرصه فى احتواء الأحجار وخوفه أن يسقط منها شىء .

"فلما قضى" أى قضى حاجته ، فحذف المفعول به إيجازا واختصارا وهو كناية عن قضاء حاجته من الغائط ، أى الاستنجاء .

"أتبعه بهن" كنى عن موضع الحدث بالضمير فى أتبعه ، رغم عدم تقدم ذكره لأنه مفهوم من سياق الحديث.

والضمير فى "بهن" أى الأحجار التى أحضرها له أبو هريرة رضي الله عنه وهكذا نجد فى الحديث الشريف أحكاما شرعية يتأسى بها المسلمون فى قضاء حاجتهم ، كما نجد فيه نقاطا بلاغية يستفيد منها من يبحث عن جميل التعبير وسلاسة الأسلوب .

التيـــامن

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى ﷺ يعجبه التيمن فى تنعله وترّجله وطُهوره وفى شأنه كله . رواه البخارى

★ ★ ★ ★

الحديث فى عمومه يتناول استحباب التيامن فى كل شىء : فى الوضوء والغسل والتغسيل وغير ذلك .

كان الرسول يعجبه التيمن لما فيه من حسن وتفاؤل ، حين يلبس النعل إذا أراد المشى وحين يمشط شعر الرأس أو اللحية ، وحين يتطهر سواء بالوضوء أو الاغتسال من الجناية .

"وفى شأنه كله ، أى حين يتناول طعامه ، وحين يسلم على الناس ، وحين يمسك بالأشياء ، فعطف العام على الخاص ، لا يترك التيمن فى سفر ولا حضر ، لا فى فراغ ولا فى شغل ، أى فى جميع حالاته .

وذكر التنعل لتعلقه بالرجل ، والترجل لتعلقه بالرأس ، والطهور لكونه مفتاح أبواب العبادة.

ومعنى التيمن : الابتداء باليمين ، وعلى المرء أن يحافظ على ذلك ما لم يمنع منه مانع ، وهذه قاعدة مستمرة فى الشرع ، وهى من باب التكريم والتشريف كلبس الثوب ، والسروال ، والخف ، ودخول المسجد ، والاكتحال ، وتقليم الأظافر ، وقصّ الشارب ، وترجيل الشعر ، والسلام فى الصلاة والمصافحة إلى غير ذلك.

أما ما يكون ضد ذلك فيستحب فيه التياسر ، كدخول الخلاء ، والخروج من المسجد ، والاستنجاء ، وخلع الثوب ، والسروال ، وما أشبه ذلك.

وهذا كله يدل على شرف اليمين ، وإن كان الابتداء باليسار مجزئا إلا أنه مكروه ، ومن الأعضاء ما لا يستحب فيه التيامن ، كغسل الأذنين فى الوضوء والكفين والخدين ، بل يطهران دفعة واحدة ، فإن تعذر ذلك كما فى حق الأقطع ونحوه قدم اليمين ، فالرسول ﷺ يفعل ما هو الأحسن والأجمل ويحضنا على فعله ، فالإعجاب باليمين لا يكون إلا عن راحة نفسية وحالة مرضية ، ولذا كانت مداومته على التيامن لأنه الأشرف والأحسن ، وفى ذكره للتنعل والترجل ، أى ابتداء من أخمص القدم إلى مفرق الشعر ، فيعم البدن كله من أوله لآخره ، وتدخل فيه بقية أعضاء الجسم كالذراعين فى لبس الأكمام والكفين عند السلام والدخول إلى الأماكن الطاهرة كالمساجد ، والخروج من الأماكن الملوثة كدورات المياه وغير ذلك.

والطباق هنا واضح فى ذكر الشيء وضده كما فى التنعل الذى يكون فى القدمين ، والترجل الذى يكون فى الرأس.

وكذلك فى الأشياء التى يتطهر بها المرء ، كالوضوء والاغتسال فيبدأ باليمين لشرفه وطهره .

واستعمال الواو فى العطف : "تنعله وترجله وطهوره" ليفيد مطلق الجمع وليس الترتيب ، فكل منها له موقف خاص وقد لا تجتمع معا ففى موقف يكون التنعل وحده ، أو الترجل وحده أو الطهور وحده ، وقد تجتمع هذه الأشياء كلها دفعة واحدة بأن يتطهر المرء ثم يرجل شعره ثم ينتعل حذاءه ويسعى فى الأرض.

ثم أكد الرسول ﷺ بأن ذلك شأنه فى كل أموره مؤكدا ذلك بقوله "وفى شأنه كله" حتى لا يفهم أحد أن التيامن كان فى بعض الأمور الشريفة دون بعضها الآخر.

بـــول الصغيـــر

عن أم قيس بنت مِحْصن أنها أتت بابن لها صغير لم يأكل الطعام إلى الرسول ﷺ فأجلسه رسول الله ﷺ فى حجره ، فبال على ثوبه ، فدعا بماء فنضحه ولم يغسله . رواه البخارى

★ ★ ★ ★

الابن لا يطلق إلا على الذكر بخلاف الولد يطلق على الذكر والأنثى.

كان لأم قيس طفل رضيع ؛ لأن الرضيع لا يأكل الطعام ، فإذا أكل الطعام يسمى فطيما وغلاما أيضا إلى سبع سنين .

يقول أهل اللغة : مادام الولد فى بطن أمه فهو جنين ، فإذا ولدته يسمى صبيا مادام رضيعا ، فإذا فطم يسمى غلاما إلى سبع سنين .

وفى قوله "لم يأكل الطعام" ، أى لم يقدر على مضغ الطعام ، ولا على دفعه إلى باطنه ؛ لأنه لا يستطيع ذلك ، أما اللبن فإنه مشروب غير مأكول فلم يدخل فى النفى.

تناول الرسول الرضيع منها وأجلسه فى حجره وهو يمسكه ، وفى الوقت الذى وضعه فى حجره بال على ثوب الرسول ﷺ ، كما تفيد الفاء "فبال" لأنها للترتيب والتعقيب بلا مهلة ، ومجرد أن بال على ثوب الرسول ، دعا الرسول بماء فرشّ به ثوبه دون أن يغسله .

والتعبير هنا بالماضى فى أربعة أفعال متلاصقة ، فأجلسه ، فبال ، فدعا، فنضحه ، تدل على أن هذه الأفعال قد وقعت بالفعل ولاشك فى وقوعها ؛ بل هو أمر محقق الوقوع ، ولذا عبر بالماضى.

وفى قوله "فدعا بماء" على تنكير ماء ، حيث يدل على نوعيته من الطهارة أى دعا بماء طاهر يزيل به ما علق بثوبه من بول الطفل ، وهذا مفهوم من السياق فنضحه ولم يغسله ، أى رشه دون أن يغسله ؛ ليؤكد أنه يكتفى فى مثل هذا الأمر برش الماء دون حاجة إلى غسل الثوب ، فتكرار النضح صريحا أولا "فنضحه"، وضمنًا ثانيا "ولم يغسله" يؤكد على رش الثوب ؛ لأن الرضيع لم يتناول طعاما ، ولم يمضغ أكلا ، حتى تلحق النجاسة بما يتبرز به أو ما يخرج منه ، فنجاسة ما يخرج منه ليست مغلظة لا تطهر إلا بالغسل ؛ بل هى نجاسة مخففة تطهر بأقل شىء.

وانظر ما فى الحديث من رفق الرسول ﷺ وشفقته على الصغار ، وكيف كان يأخذهم فى حجره ويتلطف بهم ، حتى إن منهم من يبول على ثوبه ، فلا يؤثر فيه ذلك ، ولا يتغير ولا يغضب ، ويؤثر عنه أنه كان يخفف فى الصلاة عند سماعه بكاء صبى وأمه وراءه ، وروى عن رسولنا الكريم أنه قال :

"من لم يرحم صغيرنا فليس منا".

سؤر الكلـــب

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

"إذا شرب الكلب فى إناء أحدكم فليغسله سبعا" **رواه البخارى**

★ ★ ★ ★

إذا شـرب وفى رواية إذا ولَغ ، أى شـرب بطرف لسـانه ، أو أدخل لسـانه فى الماء فحركه . وإن كان ما بداخل الإناء غير مائع يقال : لعقه ، وإن كان الإناء فارغا يقال : لحسه . ويلُحق باللسان بقيةُ أعضاء الكلب من يد أو رجْل أو رأس أو نحو ذلك.

وعبـر بلفظة "شـرب" لأن الشـرب يكون بالفم ، وفم الكلب محل اسـتعمـال النجاسات . وإن كانت النجاسة تتعلق بالقليل من الماء دون الكثير منه . ولذا يلزم غسل الإناء قبل استعماله سواء غسل الإناء صاحبُه أو غيره.

ضمن شرب معنى ولَغ ، وهما متقاربان فى المعنى.

وعرف الكلب بأل لإفادة العموم ، حتى يشمل كل ما يطلق عليه لفظة كلب بجميع أنواعه سواء أكان مقتنىً للزينة أو للحراسة أو ضالا فى الطريق ، وسواء أكان يعيش فى الريف أو فى المدينة أو فى البادية.

وحذف المفعول من قوله (إذا شرب الكلب) أى شرب الماء للعلم به وللإيجاز أيضا.

واسـتعمل أداة الشـرط "إذا" دون "إن" لإفادة التحقيق ، أى أن الفعل الذى دخلتْ عليه إذا محقق وواقع لاشك فيه .

فإذا دخلت أداة الشـرط على الفعل الماضى وهو يفيد تحقق الوقوع أيضا، كان تحقيقا على تحقيق وتأكيدا وراء تأكيد.

فالحكم الشرعى يقوم على التأكيد لاعلى الظن أو الوهم أو التخمين.

وعبر بفى فى قوله (فى إناء أحدكم) لإفادة الظرفية وأن الماء قد أحاط بلسان الكلب من جميع جهاته.

وأضاف الإناء إلى أحدكم حتى يشمل كل أحد ، وليس خاصا ببعض الناس دون بعضهم الآخر ؛ بل كل إناء ولغ فيه الكلب سواء أكان لعظيم أو حقير يسرى فيه هذا الحكم.

(فليغسله سبعا) الأمر هنا للندب وليس للوجوب ، عند أصحاب المذهب الحنفى ، فهم لم يوجبوا غسل الإناء سبعا ، ولم يوجبوا استعمال التراب ، وتطهير الإناء أمر تعبدى ؛ لأن الماء لا ينجس إلا بالتغير ، والماء لا يتغير لونه أو طعمه بوضع لسان الكلب فيه ، فلا يجب الغسل سبعا للنجاسة ؛ بل للتعبد ، والطهارة تستعمل من حدث أو خبث ، ولا حدث على الإناء فتعين الخبث.

وقال سبعا على التنكير ، وليس المراد سبعا على التحديد ، وإنما أريد بها الكثرة ، حتى يطمئن قلب المرء على طهارة الإناء مما علق به من النجاسات.

الإســــراف

جاء فى قوله الله عزوجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ (المائدة:٦)

قال أبو عبد الله : وبيّن النبى ﷺ أن فرض الماء مرة مرة ، وتوضأ أيضا مرتين وثلاثا، ولم يزد على ثلاث ، وكره أهل العلم الإسراف فيه وأن يجاوزوا فعل النبى ﷺ. رواه البخارى

★ ★ ★ ★

الوضوء مشتق من الوضاءة ، وسمى بذلك لأن المصلّى يتنظف به فيصير وضيئا منيرا ، والوضوء على الوضوء نور على نور.

وافتتح البخارى كتاب الوضوء بهذه الآية الكريمة ؛ تبركا بالقران والعملَ به:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ ﴾ فيا : حرف نداء للبعيد ، وأراد بها التوكيد ، والنداء يكون للمخاطب ولكنه عدل عن الخطاب إلى الغيبة فقال : "آمنوا" على سبيل الالتفات ؛ ليدخل تحته كلُ من آمن إلى يوم القيامة ، ولو قال : آمنتم؛ لاختص بمن كانوا فى عصر الرسول دون غيره.

﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ ﴾ أى : أردتم القيام إلى الصلاة ، والقيامُ مسبب عن الإرادة ، فاستعمل القيامَ مجازا ، كما استعمل "إذا" التى تدخل على أمر واقع أو منتَظر ، لا محالة من وقوعه أو انتظاره ، والقيامُ إلى الصلاة أمر لازم بالنسبة إلى حالة المؤمن . واستعمل الماضى "إذا قمتم" بدل المضارع "تقوموا" تأكيدا لنية القيام من أجل الصلاة ، والصلاة تشمل كل صلاة فرضا أو نفلا ؛ لأن الطهارة شرطٌ لكل صلاة.

﴿ فاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ وغسل الوجه من منبت الشعر فى أعلى الجبهة ، إلى أسفل الذقن طولا ، ومن شحمة الأذن اليمنى إلى شحمة الأذن اليسرى عرضا، وفى الكلام إيجاز تقديره : إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم محدثون فاغسلوا ، والأمر فى قوله فاغسلوا يقتضى الفرضية ؛ إذ لا يصح الوضوء إلا به ، وكذلك فى قوله ﴿ وأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ ﴾ بما فيها الكف والأصابع ، وفى قوله ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ حذف وقلب ؛ لأن المعنى : امسحوا رءوسكم بالماء ، فالماء محذوف على الإيجاز ، وصحة الباء أن تدخل على الماء ؛ لأن المسح به ، لأعلى الرأس ، فقلب وأدخل الباء على الرأس. ﴿ وأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ أى واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين ، وقد ورد البيان عن رسول الله ﷺ بغسل الرجلين قولا وفعلا.

وبين الرسول ﷺ أن فرض الوضوء مرة مرة ، أى المراد منه المرة ، حيث غسل مرة واحدة واكتفى بها ، وما زاد على ذلك من مرتين أو ثلاثا فهو مندوب إليه لأن فعل الرسول على الندب غالبا؛ إذا لم يكن ثمة دليل على الوجوب فبّين النبى ﷺ ما أجملته الآية ، وقد توضأ الرسول مرة واحدة وقال هذا وُضوء لا تقبل الصلاة إلا به.

وكرر لفظة مرة مرة للتأكيد ، بأن يغسل الوجه مرة، واليدين مرة ، والرجل مرة. (وكره أهل العلم الإسراف فيه) والإسرافُ شىء والتبذيرُ شىء آخر : فالتبذيرُ أن تصرف الشىء فيما لا ينبغى : بأن تستعمل الماء بعد الطهارة الكاملة ، وحيث لا يفتقر الوضوء إلى المزيد .

أما الإسراف فهو أن تصرف الشىء فيما ينبغى ويكونَ زائدا عليه ؛ بأن تستعمل المرتين أو الثلاثَ فى الوضوء ، وإن كان الوضوءُ يصح بالمرة الواحدة، وهذا من الإسراف الذى كرهه العلماء حتى إن الرسول ﷺ رأى رجلا يتوضأ ، فقال: لا تسرف لا تسرف .

والرسول ﷺ يبين لنا كيفية الإسراف فى الوضوء بأن يجاوزوا فعل النبى ﷺ إذ ليس المراد بالإسراف إلا المجاوزة عن فعل الرسول وهو ثلاث مرات .

الطهـــــارة من دم الحيض

عن أسـمـاء قـالت جـاءت امـرأة إلى النَبىّ ﷺ فـقـالت : أرأيت إحـدانا تحيض فى الثـوب كـيف تصنع ؟ قـال تَحتُّه ثم تقـرصه بـالماء وتنضحه وتصلى فيه. رواه البخارى

★ ★ ★ ★

تحته : تفركه من الدم وتحكه ، وتقرصه بالماء : أى تغسله بأطراف أصابعها وهو أبلغ فى إذهاب الأثر عن الثوب ، أى تدلك الثوب بأطراف الأصابع مع صب الماء عليه ، فإذا ذهب الأثر أو كاد تنضحه بالماء وترشه به.

"أرأيت إحدانا تحيض فى الثوب" ، أى أخبرنى يا رسول الله ماذا تفعل المرأة إذا حاضت فى ثوبها وليس لها إلا ثوب واحد؟.

فالرؤية مجاز عن الإخبار ، وهى سبب فيه ، فجعل الاستفهام . "أرأيت" بمعنى الأمر "أخبرنى" فكل منهما طلب.

وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أن خولة بنت يسار قالت يا رسول الله : ليس لى إلا ثوب واحد وأنا أحيض فيه ، قال : فإذا طهرت فاغسلى موضع حيضك ثم صلى فيه، قالت يا رسول الله : أراه لم يخرج أثره ، قال : يكفيك الماء ولا يضرك أثره.

وعلى الرغم من أن المرأة تتحدث عن حالتها ، إلا أنها أرادت تعميم الحكم عليها وعلى غيرها من بنات جنسها ، ولأن دافع الحياء منعها من الحديث عن نفسها كيف تتطهر من حيضتها ، وهل تصلى فى ثوبها إذا لحقه دم الحيض وليس عندها غير هذا الثوب ؟ والسؤال هنا على حقيقته وهى تطلب عنه الإجابة.

أجابها الرسول ﷺ بما يفيدها ويفيد غيرها من نساء المسلمين بهذا الحكم الشرعى : تفرك الثوب أولا من الدم ثم تغسله بالماء وتدلكه بأصابعها ثم ترش الماء على موضع الدم ، فإن فعلت فقد طهر الثوب وجازت الصلاة فيه وإن بقيت آثار الدم واضحة.

"تحتّه ثم تقرصه" عطف بثم ، لأن غسل الثوب يكون بعد فركه بعد مهلة ، أو مباشرة وفى هذه الحالة الأخيرة تكون ثم بمعنى الفاء التى تفيد التعقيب.

"تنضحه وتصلى فيه" عطف بالواو ، أى إذا طهر الثوب ترتب على طهره الصلاة ، فالواو هنا تفيد الترتيب وليست مجرد الجمع بين النضح والصالة فتكون الواو خرجت عن أصل وضعها ، فالدم نجس بالإجماع ، ولابد من طهارته سواء اتصف بالقلة أو الكثرة ، فيسير الدم يغسل مثل كثيره وكسائر النجاسات .

غســـل الرجل مع امرأته

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أغتسل أنا والنبى ﷺ من إناء واحد من قدح يقال له الفَرَق. رواه البخارى

★ ★ ★ ★

الفرق : مكيال معروف بالمدينة يعادل ستة عشر رطلا ، أى ما يوازى سبعة كيلوات تقريبا ، وفى قولها كنت أغتسل أنا والنبى ، أبرز الضمير أنا وعطف عليه المظهر "النبى" حيث لا يصح العطف على الضمير المتصل دون تكراره بضمير منفصل . وفيه أيضا تغليب للمتكلم على الغائب ، لما فيه من إيذان بأن النساء محل الشهوات وحاملات للاغتسال فكن أصلا فيه ، فتقدم ضمير المتكلم لذلك.

"من إناء واحد من قدح" مِنْ الأولى ابتدائية ، حيث يبدأ الغسل من الإناء ومن الثانية بيانية ؛ لأنها تبين وتوضح أن الغسل كان من قدح وليس من وعاء آخر.

فعبرت عن الاغتسال بالفعل الماضى وهو كنت ، لبيان أن ذلك قد حدث فى الأزمنة الماضية ، ثم عبرت عنه بالمضارع أغتسل حيث تكررت صورة الاغتسال المرة تلو المرة ، فاستحضرت صورة الاغتسال وتكرارها . ثم قالت السيدة عائشة وكان الاغتسال من إناء واحد مما يدل على أنها مع الرسول ﷺ كانا يغترفان الماء من وعاء واحد وفى مكان واحد يجمعهما معا ، وليس من مكانين مختلفين بإناءين مفترقين ، فكانا يأخذان الماء من قدح كسطل اللبن ثم يفرغانه فى الإناء ، ويصبانه على جسديهما.

وتنكير كلمة إناء ووصفه بأنه إناء واحد ، حتى لا يداخل السامع ظن بأن لكل منهما إناء مغايرًا لصاحبه ينفرد به فى الغسل ، فأكدت السيدة عائشة على تفرد

الإناء لا على تعدده . كما أنه مجرد إناء مبهم لايهمنا تفصيله أو تحديد معالمه، وكل الذى يهمنا منه أنه إناء واحد.

وكذلك تنكير "قدح" حتى يفيد أنه قدح من الأقداح التى يحفظ فيها الماء للشرب أو الاغتسال ، وكل ما كان بهذه الصفة يطلق عليه لفظة قدح ، وكان يعرف عند أهل المدينة بأنه وعاء يحمل ما يقرب من ستة عشر رطلا.

فغسل الرجل مع امرأته ، وغسل المرأة مع زوجها وحليلها لا غبار عليه فى الشريعة الإسلامية ، فالمرأة حل لزوجها وهو حل لها ، والكشف بينهما مقبول لا يأباه الشرع ولا يرفضه الدين.

وفى الحديث جواز نظر الرجل إلى عورة امرأته وعكسه ودليل على صحته.

النـــوم على الجنابة

عن ابن عمر بن الخطاب أنه سأل رسول الله ﷺ : أيرقد أحدنا وهو جُنب ؟ قال: نعم ، إذا توضأ فليرقد وهو جُنب. **رواه البخارى**

★ ★ ★ ★

سأل ابن عمر بن الخطاب ﷺ رسول الله ﷺ : أيجوز لأحدنا أن يرقد وهو جنب ، فالاستفهام عن حكم الرقاد ، أهو جائز أم ممنوع ، أهو مباح أم حرام ؟ فكان جواب الرسول : إذا أراد أحدكم الرقاد ، فليرقد ولكن بعد أن يتوضأ ، فالاستفهام على حقيقته مما يتطلب الإجابة عليه.

أجل إن الرقود ليس واجبا ولا مندوبا ولكن الأمر هنا فى قوله "فليرقد" للإباحة.

ويروى الترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى ﷺ ينام وهو جنب ولا يمس ماء.

وروى أبو داود عن عائشة أنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا رجع من المسجد صلى ما شاء الله ثم مال إلى فراشه وإلى أهله ، فإن كانت له حاجة قضاها ، ثم نام كهيئته ولا يمس طيبا وأرادت بالطيب الماء ؛ لأن الماء يطيب ويطهّر ، وأىّ طيب أقوى فعلا فى التطهير من الماء.

وذهب أكثر الفقهاء على أن الوضوء قبل الرقاد محمول على الندب والاستحباب لا على الوجوب.

والحكمة فى هذا الوضوء تخفيف الحدث ، والوضوء نصف غسل الجنابة ، وهو إحدى الطهارتين .

والملائكة تتجنب القذَر والوسَخ والروائح الكريهة ، بخلاف الشياطين تحب هذه الأدران وتقترب منها.

فالطهارة مطلوبة فإن تعذرت لسبب ما ، فالأحرى أن نأخذ منها بقسط ، وما لا يدرك كله لا يترك كله ، ولكن إذا استطاع الرجل أن يغتسل قبل أن يرقد فهذا أفضل ، فإن تعذر عليه الغسل فالوضوء أبقى ، وإن لم يستطع هذا أو ذاك فليرقد دون غسل أو وضوء ، وهو بحالة من الجنابة دون أن يمس الماء ، فإذا كان النداء الأول للصلاة وثب واغتسل للصلاة.

الســــــواك

عن أبى هريرة ﷺ أن رسـول اللـه ﷺ قـال : "لولا أن أشُق على أمـتى- أو على الناس - لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة. **رواه البخارى**

★ ★ ★ ★

ومعنى الحديث : لولا مخافة أن أشق على الناس لأمرتهم باستعمال السواك فى كل وقت من أوقات الصلاة.

ولولا حرف امتناع لوجود ، أى امتنع الأمر بالسواك على سبيل الوجوب لوجود المشقة فى استعماله عند كل صلاة ، فإذا شق عليها الأمر كلت النفوس وملت استعمال السواك .

فلولا المشقة موجودة وثابتة لأمرتهم بذلك . وفى التعبير بلولا إيجاز بالحذف، لأن الخبر محذوف ، واجب الحذف مما يقلل من ألفاظ العبارة.

أو على الناس : شك من الراوى ، هل قال رسول الله أن أشق على أمتى ، أو قال على الناس ، لا يدرى الراوى ماذا قال الرسول ﷺ على وجه اليقين.

واستعمال السواك سنة وليس واجبا ، لأنه لو كان واجبا لأمرهم به سواء شق على الناس أم لم يشق . ويروى التـــرمـــذى عن أبى أيوب ﷺ : أربع من سنن المرسلين : "الختان ، والسواك ، والتعطر ، والنكاح".

ويحسن السواك عند الوضوء وعند كل حال تتغير فيها رائحة الفم ، ويستاك عرضا لا طولا فقد ورد ذلك عن رسول الله. ويستاك إلى أن يطمئن قلبه بزوال النكهة واصفرار السن. ويستحب أن يدعو عند الاستياك : اللهم طهر فمى ونور قلبى وطهر بدنى ، والعلك للمرأة كالسواك للرجل ، لأن أسنانها ضعيفة ويخشى سقوطها عند استعمال السواك .

"والسـواك مطهرة للفم مرضـاة للرب " كمـا يروى عن رسـول الله. فالسواك نظافة وطهارة ومحافظة على صحة الأسنان ، وصحتها ضرورة لصحة البدن كله ، ويتأكد طلب السواك عند إرادة الصلاة وعند الوضوء وقراءة القرآن والاستيقاظ من النوم وعند تغير الفم. ولولا المشقة التى تعترى الناس عند استعمال السواك لأمر الرسول باستعماله فى كل الأوقات .

الغـــرّ المحجلون

عن نُعيم المجمر قال : رقيت مع أبى هريرة على ظهر المسجد فتوضأ فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أمتى يُدعون يوم القيامة غرًا محجلين من آثار الوضوء ، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل.

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

الغرة : بياض فى الجبهة ، والفرس الأغر : الذى يتوسط جبهته بياض ولم يُصب واحدة من العينين ، وهى تستعمل فى الجمال والشهرة وطيب الذكر.
والتحجيل : بياض فى قوائم الفرس كلها ، يديه . ورجليه .

أى : أن المؤمنين يُدعَون يوم القيامة وهم بهذه الصفة من الوضاءة ، تحيط بهم هالةُ من نور.

قال أبو هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول عبر بـ «يقول» وأتى بالفعل فى صورة المضارع لاستحضار الصورة الماضية ، أو أنه يحكى عن رسول الله ﷺ ما حدث من قول :

فأكد الرسول ما سوف يحدث لأمته يوم القيامة ، فاستعمل أداة التوكيد "إن" وأدخلها على "أمتى" أى : أمة محمد ﷺ التى استجابت لرسولها وآمنت به وصدقته، وأنهم حين يُدعون إلى موقف الحساب يوم القيامة ، يُدعون وفى وجوههم هالة نور ، هما الغرة والتحجيل اللذان نشآ عن الوضوء ، فمن استطاع أن يغسل وجهه من مقدم شعر الرأس إلى أسفل الذقن ، ومن الأذن إلى الأذن فليفعل . وأما إطالة التحجيل فتكون بأن يزيد فى الوضوء إلى نصف العضد من اليدين ، ونصف الساق من الرجلين.

وفى قوله (فليفعل) حذف منه المفعول به ، حتى تذهبَ فيه النفسُ كل مذهب ، وأن يقدّر ما شاء له التقدير الذى يحتمله المعنى ، أى فليفعل الإطالة ، أو الوضوء أو ما يؤدى إلى مضاعفة الثواب وزيادة الوضاءة والإشراق.

واقتصر على ذكر الغرة دون التحجيل ، لأن محل الغرة وهو الوجهُ أشرف أعضاء الوضوء ، وأول ما يقع عليه النظر من الإنسان ، بخلاف اليدين والقدمين ، فهما مع شرفهما لا يصلان إلى قدر الوجه فى الشرف والمكانة .

وفى الحديث تشبيه يوصف بأنه بليغ حيث شبه النور الذى يشع من مواضع الوضوء فى الوجوه والأيدى والأرجل ، بالبياض الذى يتخلل غرة الفرس وتحجيله ، وينبعث من وجه الفرس وقوائمه ، فما أجمل هذا التشبيه ودقته وروعته .

معجـــزة الوضـــوء

عن انس بن مـــالك انه قـــال : رأيت رســـول اللـه ﷺ وحـــانت صـــلاة العصر، فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه ، فأُتى رسول الله ﷺ بوضوء ، فوضع رسول الله ﷺ فى ذلك الإناءِ يده ، وأمـر الناس أن يتـوضـأوا منه . قال : فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه حتى توضأوا من عند آخرهم.

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

خرج رسـول الله ﷺ إلى سـوق المـدينة بناحيـة الزوراء فحـان وقت صـلاة العصـر، فطلب ماء ليتوضـأ به ، فلم يجدوا مـاء ، فانطلق رجل من القوم فجاء بقدح من مـاء يسيـر يكفى وضوء رجل واحـد ، فوضـع الرسول يده الكريمـة في قدح المـاء ، وأمر الناس أن يتوضأوا .

يقول الرواة كان عدد القوم يتراوح بين سبعين رجلا وثلاثمائة ، وأخذ المـاء يفور من بين أصابعه الشريفة ويتفجرُ منها كالعيون . وتوضـأ الناسُ جميعا دون أن يتخلف منهم أحد.

هذه المعجزة الحسية من الرسول ﷺ هى أعظمُ من أن يتفجر الحجر بالماء؛ بل هي معـجزة أعظمُ مـمـا أوتى موسـى عليـه السـلام حين ضـرب بعصاه الحـجـرَ فى الأرض ، فانفجرت بالمـاء ؛ لأن المعهود أن يتفجر المـاءُ من الحـجـارة ، وليس بمعهود أن يتفجر الماء من بين الأصابع.

هذه المعـجـزة رواها العـدد الكثيـر من الثقـات ، عن الجمِّ الغفيـر من النـاس ، وأخبر بهـا جملة من الصـحـابة ، وكان ذلك فى موطن اجتمـاع الكثيـر منهم ، ولم يرو

واحد من الصحابة مخالفة الراوى فيما رواه ، وليس ثمة رغبةٌ ولا رهبة تمنعهم من مخالفة هذا القول أو تكذيبه بأن لم يكن ثمة معجزةٌ أصلا .

ونرى فى الحديث الشريف سلسلة من الجمل المتعاقبة التى تدل على سرعة وقوعها دون تسويف ، وأن الصحابة جميعا كانوا على أهبة الاستعداد لتلبية طلب الرسول من إحضار الماء ، فبمجرد أن حان وقت الصلاة ، التمس الناسُ الماء فأتى به ، ولم يكن هناك إمهال أو تراخ لا فى طلب الماء ولا فى الإتيان به ، ثم حدثت المعجزة ولم ينكرها أحد من الحاضرين ، ولو لم تكن قد حدثت هذه المعجزة لتحرج الصحابة من القول بها أو التحدث عنها ، فالماء توضأ به الحاضرون حتى توضأوا من عند آخرهم ، وهو كناية عن أنهم توضأوا جميعا . (وحتى) تفيد الغاية فيدخل فيهم أنس بن مالك راوى الحديث ؛ لأن السياق يقتضى العموم والمبالغة.

الصـــلاة

التنفيــــــر

عن أبى مسعود الأنصارى قال : قال رجل : يارسول الله ، لا أكاد أدرك الصلاة مما يُطوّل بنا فلان.

فما رأيت النبى ﷺ فى موعظة أشد غضبا من يومئذ ، فقال : أيها الناس : إنكم منفرون ، فمن صلى بالناس فليخفف ، فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة . رواه البخارى

★ ★ ★ ★

يتضح من هذا الحديث أن الرسول ﷺ كان رفيقا بأمته شفيقا عليهم ، وما خُير بين شيئين إلا اختار أيسرهما . ولذا ظهر على وجهه الغضب حين شكا له أحد الصحابة من إمام يطول فى الصلاة ، وهو يخشى ألا يقوى على متابعته فيزهد فى صلاة الجماعة. فربما يطول الإمام في القيام ويزيد فى القراءة ، فلا يبلغ المصلى الركوع إلا وقد ازداد ضعفه فلا يكاد يتم معه الصلاة . أو أنه يتأخر عن الجماعة أحياناً فلا يكاد يدركها خوفا من إطالة الإمام فى صلاته . كنى الرجل عن الإمام ولم يذكر اسمه ، وإنما اكتفى بقوله "يطول بنا فلان" فهو لا يريد التشهير به أو أن يصرف الناس عن الصلاة خلفه ، ولكنه يريد فقط أن يجد مندوحة لتخلفه عن صلاة الجماعة.

ظهر الغضب الشديد فى نبرة صوت الرسول ﷺ ، ولم يكن فى حال من الأحوال أشد غضبا منه وهو فى هذا الحال.

ونلحظ فى قوله : "فما رأيت النبى ﷺ فى موعظة أشد منه يومئذ" أنه نكّر ثلاثة ألفاظ موعظةً وغضبا ويومئذ .

فنكر موعظة لتقيد العموم أى : فى أى موعظة من عظاته.

ونكر غضبا لتفيد تعظيم غضبه وشدته على الإمام الذى يجهد الناس حين يطيل الصلاة.

ونكر يومئذ حتى تشمل جميع الأوقات والمواقف ، أى لم يكن غاضبا فى وقت من الأوقات مثل غضبه فى هذا الوقت .

خاطب الرسول ﷺ الأئمة كافة ولم يعين فردا منهم ، لطفا بالإمام الذى عناه وكرما منه ، وكانت هذه عادته حيث لم يخص العتاب والتأديب بمن يستحقه ، حتى لا يحصل له الخجل واللوم على رءوس الأشهاد.

وأكد الرسول أن الإطالة فى الصلاة تنفر الناس من صلاة الجماعة والمداومة عليها ، فاختار اللفظ المناسب مع أداة التوكيد ، اختار لفظ التنفير المشدد ليلائم الثقل الذى تشعر به النفس عند إطالة الصلاة، ثم شرط عليهم التخفيف بفعل الأمر فليخفف نصحا للأئمة ورفقا بالمأمومين . وقد كان رسول ﷺ يعجل فى الانتهاء من الصلاة حين يسمع بكاء طفل ونحو ذلك.

ذكر الرسول هذه الأصناف الثلاثة فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة، جمع كل الأنواع المقتضية للتخفيف فى هذه الثلاثة، فالمرض والضعف والحاجة أمور تقتضى التخفيف ، والضعف يكون عن كبر سن أو وهن جسم ، والحاجة تشمل كل حاجات المرء التى يتحتم عليه قضاؤها.

وليس ثمة تكرار بين المرض والضعف ؛ لأن المرض ضد الصحة ، والضعف خلاف القوة فبينهما تفاوت .

وهكذا تتمثل الشفقة والرحمة من رسول الله على أمته ، فالرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ، ولا ينزع من شىء إلا شانه .

صـــلاة الليل

عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة من جوف الليل فصلى فى المسجد ، فصلى رجال بصلاته ، فأصبح الناس فتحدثوا فاجتمع أكثر منهم فصلوا معه ، فأصبح الناس فتحدثوا ، فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة ، فخرج رسول الله فصلوا بصلاته ، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله حتى خرج لصلاة الصبح ، فلما قضى الفجر أقبل على الناس فتشهد ثم قال : (أما بعد فإنه لم يخف علىّ مكانكم ، ولكنى خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها). رواه البخارى

★ ★ ★ ★

كان رسول الله ﷺ يخرج فى جوف الليل يؤدى الصلاة فى المسجد ، فلما رآه المسلمون تبعوه فى صلاته ، ثم أخذوا يتزايدون فى الصلاة حتى ضاق بهم المسجد اعتقادا منهم أن الصلاة فى جوف الليل صارت مفروضةً كالصلوات الخمس ، واستمروا على مداوتهم أربعة أيام ، وفى الليلة الرابعة تخلف الرسول ﷺ عن الصلاة معهم فى جوف الليل ، فلما صلى صلاة الفجر خطب فى الناس بأنه كان على علم بصلاتهم ، وعلى علم بمكانهم ، ولكنه تخلف عنهم خشية أن يعتقدوا فريضة الصلاة فى قلب الليل ، فلا يستطيعون المواظبة عليها ، وأحبُ الأعمال إلى الله أدومُها وإن قلّ .

هذه الخطبة كنايةُ عن إدراك رسول الله لأحوال المسلمين ، فهو يريد أن يخفف عنهم ولا يُثقل عليهم ، خاصة فى النوافل ، فالنافلة زيادة على الفرض ولا ينبغى للمسلم أن يلتزم بالزيادة ، ولا بأس بها إذا سمحت أحواله بأدائها.

وهذه الخطبة موجزة شديدة الإيجاز حتى إنها لم تتجاوز السطرَ الواحد ، وكان يمكن أن يقولها الخطيب فى عدة أسطر ، ولكن الذى قالها هو أخطبُ الخطباء ؛ وأعظمُ الفصحاء ﷺ فلم يُطل فى الكلام ولم يُطنب فى العبارة وإنما قال ما قال متجها إلى الغرض فى عبارة قصيرة وبيان واضح.

واستعمل أسلوب التخصيص حيث تضمنت الخطبة النفى والإثبات ، النفى حين قال : "إنه لم يخفَ علىّ مكانكُم" والإثبات حين قال : "ولكنى خشيت أن تُفرض عليكم" . نَفَى عدم معرفته بمكانهم ، وأثبت خوفه عليهم من فرض الصلاة فى جوف الليل ، ومن ثَم يعجزون عن أدائها ، فمن حيث إنهم ظنوا أن الرسول لا يعرف مكانهم فلم يأت للصلاة بهم ، فأخلف ظنهم ، وقلب اعتقادهم ، وهذا ما يسمى بقصر القلب عند البلاغيين . ثم أثبت خشيته من عجزهم عن تأدية الصلاة فى جوف الليل والمداومة عليها.

ثم استعمل التأكيد بإن فى قوله (إنه لم يخف على مكانكُم) وكأنه نزل المخاطبين منزلة السائل حيث قدر أنهم سألوه : لماذا لم يأت لصلاة الليل؟ هل أصابته وعكة ؟ هل نزل تشريع جديد بإلغاء فرضية الصلاة التي داوموا عليها فى جوف الليل ؟ فأجابهم مؤكدا لهم حتى يزيل كل شك خالجهم بأنه على علم بمكانهم.

وهكذا تنتهى هذه الخطبة المفعمة بكل هذه المشاعر الدافقة من خوف على المسلمين ، وشفقة بهم من الكلل أو العجز ، ووفّى الغرض بحيث لا يبقى المستمع فى شوق لسماع المزيد.

السهـــو فى الصـــلاة

حدثنا جرير عن علقمة قال : قال عبدالله : صلّى النبى ﷺ ، قال إبراهيم : لا أدرى زاد أو نقص ، فلما سلم قيل له يا رسول الله : أحدث فى الصلاة شىء ؟

قال : وما ذاك ، قالوا : صليت كذا وكذا ، فثنى رجليه واستقبل القبلة وسجد سجدتين ثم سلم ، فلما أقبل علينا بوجهه قال : إنه لو حدث فى الصلاة شىء لنبأتكم به ، ولكن إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكرونى ، وإذا شك أحدكم فى صلاته فليتحر الصواب فليتم عليه ثم ليسلم ، ثم يسجد سجدتين. رواه البخارى

★ ★ ★ ★

روى الطبرانى أن السهو كان فى صلاة العصر ، حيث نقص الرسول فى الركعة الرابعة ولم يجلس للتشهد حتي صلى الخامسة.

وقد شك إبراهيم الراوى فقال لا أدرى أزاد أو نقص ، وأن سجود السهو كان للزيادة أم للنقصان وعلى كل فالسهو قد وقع من رسول الله ﷺ وليس السهو بمستنكر على الرسول ، فالرسول بشر ينسى كما ننسى . ولكن المصلين توهموا أن الصلاة حدث فيها تغيير ، فسألوا رسول الله عن ذلك ، فقال إنما نسيت وإذا نسيت فذكرونى.

وإذا نسى المرء فى صلاته زيادة أو نقصا عليه أن يتحرى أولاً كم صلى من الركعات؟ وليتم صلاته ثم يسلم ويسجد للسهو حتى ينجبر السهو ويزول الخطأ.

وقولهم "أحدث فى الصلاة شىء؟" استفهام عن حدوث شىء من الوحى يوجب تغير حكم الصلاة بالزيادة أو النقصان.

"وما ذاك؟" سؤال من لم يشعر بما وقع منه ولا يقين عنده ولا غلبة ظن وهو خلاف ما عندهم. "قالوا : صليت كذا وكذا" كناية عما وقع إما زائدا علي المعهود أو ناقصا . "فثنى رجليه" أى جلس كأنه يقعد للتشهد.

وقوله "لو حدث شيء لنبأتكم به" شرط وجواب مؤكد بتشديد الفعل واللام ، أى لو حدث لنبأتكم به على وجه اليقين ؛ لأن أمور الدين لا يتساهل فيها.

"وإنما أنا بشر مثلكم" إنما أداة تفيد الحصر بأنه بشر وليس مَلكا ولا جنا ولا شيئا آخر غير البشرية ، والبشر ينسى ، فيجرى عليه النسيان كما يجرى على غيره من البشر .

فإذا شك أحدكم فى صلاته عليه أن يجتهد فى التفكر ويأخذ بأقوى الاحتمالين ويتم الصلاة عليه ، فإذا سلم سجد سجدتين للسهو حتى تصح صلاته.

"فليتحر الصواب فليتم عليه" ، والأمر هنا للوجوب وليس للإباحة وفى ذلك تخفيف على المسلمين بدلا من إعادة الصلاة جميعها.

والسهو لا يناقض النبوة خاصة فى الأمور التي لا تتعلق بتبليغ الرسالة.

الالتفات فى الصلاة

عن عائشة رضى الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات فى الصلاة فقال : هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد.

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

ومعنى الحديث أن المصلى إذا التفت يمينا أو شمالا يظفر به الشيطان فى ذلك الوقت ويشغله عن العبادة، فربما يسهو أو يغلط لعدم حضور قلبه باشتغاله بغير المقصود ، ولما كان هذا الفعل غير مرضى عنه نسب إلى الشيطان . ومن هذا قال العلماء بكراهة الالتفات.

فمن يلتفت فى الصلاة يذهب عنه الخشوع ، فاستعار لذهاب الخشوع اختلاس الشيطان ، تصويرا لقبح تلك الفعلة . فاستعمال كلمة اختلاس هنا مجاز عن نفى الخشوع فى الصلاة والاختلاس معناه : الاختطاف بسرعة ، أو ما يؤخذ سلبا على وجه المكابرة.

وقوله "اختلاس يختلسه الشيطان" ، فيه اشتقاق من مادة واحدة وهى خلَس وفى هذا الاشتقاق تأكيد على معنى الاختلاس والمخادعة ، وحسنٌ فى تكرار اللفظة لأنه ينبئ عن الموسيقى الظاهرة بين الكلمتين .

وفى رواية "يختلس الشيطان" بحذف ضمير المفعول ، وإن كان الأكثرون من الرواة يروونه بذكر الضمير كما جاء فى نص الحديث "هو اختلاس يختلسه الشيطان" .

وأسند الاختلاس إلى الشيطان فقال يختلسه الشيطان : لأن الاختلاس شيء

مذموم وغير مرضي عنه ، وكل ما كان مكروها ويبغضه الله تعالى ، يجدرُ أن ننسبه إلى الشيطان.

وقوله "من صلاة العبد" من هنا بيانية ، فإذا اختلس الشيطان من صلاة العبد فقد اختلس من حسناته ، وأخذ من ثوابه ، ولاشك أن ذلك منقصة فى حق العبد . فالمصلّى مستغرق فى مناجاة ربه، مقبل على الله والله مقبل عليه ، وفى هذه الوقت يكون الشيطان كالراصد له ينتظر فوات تلك الحالة عنه ، فإذا التفت المصلى ، اغتنم الشيطان الفرصة فيختلسها منه.

يقول المصطفى ﷺ : لايزال الله عزوجل مقبلا على العبد فى صلاته مالم يلتفت ، فإذا صرف وجهه انصرف عنه.

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : "إياكم والالتفات فى الصلاة ، فإن أحدكم يناجى ربه مادام فى صلاته".

الدعــاء فى الصلاة

عن عائشة زوج النبى ﷺ أن رسول ﷺ كان يدعو فى الصلاة :

اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات ، اللهم إنى أعوذ بك من المأثم والمغرم ، فقال له قائل ما أكثر ما تستعيذ من المغرم ، فقال : إن الرجل إذا غرم حدّث فكذب ، ووعد فأخلف. رواه البخارى

★ ★ ★ ★

كان رسول الله ﷺ دائم الدعاء فى آخر الصلاة بعد التشهد وقبل السلام :

يدعو أن يعيذه الله من ستة أشياء هى : عذاب القبر ، ومن فتنة المسيح الدجال ، وفتنة الحياة ، وفتنة الموت ، ثم يستجير بربه أن يعيذه من الإثم والدين.

سأله سائل عن وجه الحكمة فى كثرة استعاذته من المغرم ، فأجابه الرسول ﷺ ، لأن الرجل إذا لحقه دين حدّث فكذب ، لأنه سيختلق الأعذار فى عدم وفائه بالدين ، فيصير كاذبا ، وإذا وعد صاحب الدين أن يوفيه الدين فى موعد محدد ، ولم يوفه صار مخالفا لوعده ، والكذب وخلف الوعد من صفات المنافقين ولولا هذا الدين ما ارتكب هذا الإثم العظيم ولما اتصف بصفات المنافقين .

وقد أراد الرسول بهذا الدعاء أن يعلم أمته طريقة الدعاء ، وأن يتعوذوا بالله من هذه الأشياء.

فعذاب القبر وفتنته واقعان لا مجال للشك فى وقوعهما.

"وفتنة المسيح الدجال" : عبارة عن الابتلاء والامتحان يقال : فتنته إذا

امتحنته ، ثم كثر استعماله فى هذا المعنى حتى استعمل بمعني الإثم والكفر والقتال والإحراق والإزالة.

وكلمة المسيح تطلق على عيسى ابن مريم ، كما تطلق على المسيح الدجال ولكن بهذا القيد.

وسمى الدجال بالمسيح لأن الخير مسح منه ، أو لأنه يمسح الأرض ، أى يقطعها إذا خرج ، أو لأنه يغطى الحق بالباطل .

أما عيسى ابن مريم فقد سمي بالمسيح لأنه كان لا يمسح بيده المباركة ذا عاهة إلا برئ .

وفتنة الحياة ، هى ما يعرض للإنسان مدة حياته من افتتانه بأمور الدنيا : بشهواتها وأهوائها.

وفتنة الموت تكون عند الاحتضار وفى القبر ، فوقت الاحتضار قريب من وقت القبر والدفن.

وذكر فتنة الممات بعد أن ذكر عذاب القبر ليس على سبيل التكرار ؛ لأن العذاب يربو على الفتنة ويزيد عليها ، والفتنة سبب للعذاب والسبب غير المسبب.

أعوذ بك من "المأثم" أى الإثم الذى يجر إلى العقوبة ، والمغرم ما ينوب الإنسان فى ماله من ضرر بغير جناية منه ، أو ما يلزم أداؤه من الغرم والدين.

وقول القائل : ما أكثر ما تستعيذ من المغرم ، ما الأولى للتعجب ، والثانية مصدرية ، أى ما أكثر استعاذتك من الغرم .

وعلي الرغم من أن قوله "فتنة المحيا والممات" تشمل كل ما ذكر فى الحديث إلا أنه خصهما بالذكر لعظم شأنهما وكثرة شرهما واعتناء بأمرهما ، فهما من عطف العام على الخاص، لفخامة أمر المعطوف عليه.

وفيه لف ونشر حيث ذكر عذاب القبر وفتنة المسيح الدجال ، ثم أعاد إلى كل

منهما ما يليق به ، فذكر فتنة المحيا لأنها تليق بالمسيح الدجال ، وذكر فتنة الممات لأنها تناسب عذاب القبر ، فهو يلف الأسلوب وينشره ، يجمله ويفصله ، وإن لم يأت على سبيل الترتيب.

وقال على طريقة التأكيد : إن الرجل إذا غرم حدّث ، فيتوالى علي حديثه الكذب ، وعلى وعده الخلف ، فيصبحُ متشبها بالمنافقين الذى استهزأ الله ورسوله بهم.

نسيـــان الصلاة

عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال :

"من نسى صلاة فليصلّ إذا ذكرها لاكفارة لها إلا ذلك ، وأقم الصلاة لذكرى" **رواه البخارى**

★ ★ ★ ★

أى من نسى صلاة أو غفِل عنها أو نام دون أدائها فليصلها إذا ذكرها ولا يكفرهُا غيُر قضائها ، ولاَ يجبر الصلاة شىء آخر كدفع غرامة أو صدقة أو هبة إنما عليه أن يصلّى ما ترك ، فالله يقول ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ (طه :١٤).

وفى قوله ﷺ "من نسى صلاة فليصل" إيجاز بالحذف ، أى من نسى صلاة فليصلها ، فحذف المفعول وهو الضمير.

وليس من الضرورى أن يلزمه القضاءُ فى الحال إذا ذكره ؛ لأن القضاء من الواجبات التى يتسع لها الوقتُ اتفاقا.

وقوله "فليصل إذا ذكرها" يعنى لو لم يذكره لا يلزم عليه القضاء .

وقوله ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ (طه :١٤) يحمل معانىَ كثيرة.

أى لتذكرنى فيها ، أو لأذكرك بالثناء والمدح ، أو لذكرى خاصة لامراءة فيها، ولا تشبها بذكر غيرى ، أو شكرا لذكرى ، أو إذا ذكرْت الصلاة فقد ذكرتنى ، فإن الصلاة عبادةُ الله ، فمتى ذُكرت الصلاة ذُكر المعبود . وكل ذلك من باب الإيجاز الذى يتضمن معانىَ جديدة.

فالناسى أو النائم مأمورٌ بالصلاة الفائتةِ إذا تذكرها ، وليس عليه إثم أو لوم مادام قد أداها.

أما إن تركها عمدا فعليه القضاء أيضا ، ومن أخذ بذلك استدل بقوله "من نسي صلاة فليصل" والنسيان يطلق على الترك سواء أكان عن ذهول أو لا.

وقوله "فليصل" فعل فيه معنى الأمر بالصلاة ووجوبها عليه، ولكن بقيد وهو "إذا ذكرها" فإذا ذكرها فليس أمامه سبيل سوى قضائها.

ولا تُجبر بالمال كما يُجبر الصوم وغيره ، اللهم إلا إذا حضرته الوفاةُ فأوصى بالفدية عنها فإنه يجوز ، والله أعلم .

الوتـــــر

عن نافع عن عبد الله عن النبى ﷺ قال :

"اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وِترا" **رواه البخارى**

★ ★ ★ ★

الوتر سنة مؤكدة ليس بفرض ولا واجب ، وبه قالت الأئمة كلها إلا أبا حنيفة فإنه قال : الوتر واجب وليس بفرض .

والدلائل قامت على وجوب الوتر ، ومن هذه الدلائل ما روى عن عبدالله بن بريدة عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : "الوتر حق، فمن لم يوتر فليس منا، الوتر حق ، فمن لم يوتر فليس منا ، الوتر حق ، فمن لم يوْتر فليس منا" حديث صحيح أخرجه الحاكم فى مستدركه ، فكيف لا يكون الوتر واجبا ، والشارع يقول : الوتر حق ، أى واجب ثابت ، والدليل على هذا المعنى قوله : فمن لم يوتر فليس منا وهذا وعيد شديد ، ولا يقال هذا إلا فى حق تارك فرض أو واجب ، ولا سيما قد تأكد ذلك بالتكرار ثلاث مرات ، ومثل هذا الكلام بهذه التأكيدات لم يأت في حق السنن.

ومنها حديث السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قال النبى ﷺ : "أوتروا يا أهل القرآن فمن لم يوتر فليس منا" فقول الرسول ﷺ (أوتروا) أمر وهو للوجوب . إلا أن كثيرا من العلماء يرى أن الأمر لو كان للوجوب لكان عاما ، وأهل القرآن فى عرف الناس هم القراء والحفاظ دون العوام.

والحديث الذى معنا : "اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترا" فالأمر وهو قوله "اجعلوا" يكون مستعملا فى حقيقته وهو الوجوب ؛ لأن صلاة الوتر تكون لازمة للمصلى وهى آخر صلاة يؤديها بالليل .

أو أن الأمر هنا للندب والإباحة إذا كان الوتر سنة ، فإن لم يؤده فلا عليه من بأس ولا إثم ، حتى لوكان واجبا فليس كوجوب الصلاة:

وحدد رسول الله وقت صلاته وهو عقب الصلوات الخمس ، فقد أوتر رسول الله ﷺ من أول الليل وأوسطه وآخره وانتهى وتره إلى السحر ، فيجوز تأخيره إلى آخر الليل . فمن خاف ألا يستيقظ آخر الليل فليوتر أول الليل.

ومن علم أنه يستيقظ آخر الليل ، فصلاته فى آخر الليل أفضل . والوتر ثلاث ركعات كصلاة المغرب ، وهكذا أجمع المسلمون أن صلاة الوتر ثلاث ركعات بلا فصل.

الجمع فى الصلاة

عن الزهرى عن سالم عن أبيه قال :

"كان النبى ﷺ يجمع بين المغرب والعشاء إذا جد به السير"

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

أجاز العلماء : الجمع بين الظهر والعصر ، وبين المغرب والعشاء فى السفر فى وقت أحدهما .

وقيد العلماء ، هذا الجمع بالسفر ، أما ابن عباس رضي الله عنه فهو يروى هذا الحديث عن رسول الله ﷺ يقول : "صلى رسول الله ﷺ الظهر والعصر جميعا ، والمغرب والعشاء جميعا فى غير خوف ولا سفر" رواه مسلم . فلم يقيد الجمع بالسفر ، وإنما يجوز الجمع فى موضع الإقامة . فقد يكون ثمة سبب لهذا ؛ إذ إن كثيرا من العمال لا يقدرون على إزالة ما علق بهم من أقذار بسبب مهنتهم عند كل صلاة ، كالنقاّش مثلا الذى لا يمكنه إزالة الأصباغ التى تعلق بيديه وأصابعه عند كل صلاة .

وفى لفظ آخر يقول : "جمع رسول الله ﷺ بين الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء بالمدينة فى غير خوف ولا مطر" قيل لابن عباس : ما أراد إلى ذلك ؟

قال : أراد ألا يحرج أمته .

قالوا : لأن الإتيان بكل صلاة فى وقتها يعظم منه الحرج ويشتد معه الضيق ، ولذا كان الجمع بين الوقتين رخصة على العباد ، وتسهيلا لأداء الصلاة.

إلا أن القائلين بمنع الجمع فى غير السفر استدلوا بقوله تعالى : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ (البقرة :٢٣٨) أى أدوها فى أوقاتها ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (النساء :١٠٣) أى فرضا موقوتا ، وما قالوه يؤدى إلى ترك العمل بالآية .

والمراد بالجمع بين صلاة الظهر والعصر ، أن يقدم صلاة العصر ويؤديها مع الظهر فى وقت الظهر ، والجمع بين صلاة المغرب والعشاء ، أن يؤخر صلاة المغرب ويؤديها فى وقت العشاء ، فتكون الصلاة مع الظهر والعشاء ، فيمتد الوقت بينهما لقضاء حوائج الناس.

وقوله "إذا جدّ به السير" أى طرأ عليه أمر من خوف أو مطر أو سفر أو ما أشبه ذلك جمع بين الوقتين . فكان الجمع لا يجوز إلا مع توافر الشرط ، فإن لم يتوافر الشرط فلا جمع ، والله أعلم.

الصلاة فى البيوت

عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : اجعلوا فى بيوتكم من صلاتكم ولا تتخذوها قبورا. **رواه البخارى**

★ ★ ★ ★

المراد من الحديث : ألا تكونوا فى بيوتكم كالأموات فى القبور حيث انقطعت عنهم الأعمال وارتفعت عنهم التكاليف.

أما صلاة الأحياء فى المقابر فلا يتعرض لها الحديث .

ومعنى " لاتتخذوها قبورا" لا تجعلوها خالية من الصلاة وتلاوة القرآن كالقبور حيث لا يصلى فيها ولا يقرأ القرآن . ويدل على هذا ما رواه الطبرانى من حديث رسول الله ﷺ :

"نوروا بيوتكم بذكر الله تعالى ، وأكثروا فيها تلاوة القرآن ، ولا تتخذوها قبورا كما اتخذها اليهود والنصارى" فإن البيت الذى يقرأ فيه القرآن يتسع على أهله ، ويكثر خيره ، وتحضره الملائكة ، وتبعد عنه الشياطين ، وإن البيت الذى لا يقرأ فيه القرآن يضيق على أهله ، ويقل خيره ، وتنفر منه الملائكة، وتحضر فيه الشياطين.

فالبيت الذى لا يصلى فيه أشبه بالقبر الذى لا يتمكن الميت من العبادة فيه. فالحديث من روائع التشبيه الضمنى الذى يدل عليه دون أن يصارح به : فصلوا فى بيوتكم ولا تجعلوها كالمقابر مهجورة ، لأن البيت الذى لا يصلى فيه ولا تتلى فيه آيات القرآن يصير كالبيت الخرب المهجور الذى لا تأوى إليه الناس ويكون مرتعا للخنافس والهوام ، والبيت الذى لا يصلى فيه يصبح موئلا للشياطين والعصاة من الجن ، فيصيب سكانه الضرر والأذى.

والمراد بالصلاة فى البيت النافلة أما المفروضة فمحلها المسجد ، أى صلوا النوافل فى بيوتكم ، أما الفروض فتصلى فى المسجد ، وذلك لأن النفل يستحب فيه الخفاء لا الظهور ، والفرض يستحب فيه الظهور لا الخفاء دفعا للتهمة بعدم الصلاة المفروضة.

أما الصلاة في المقابر فلا تجوز لقول رسول الله ﷺ "الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام" وعنه أيضا "لاتتخذوا قبرى عيدا ولا بيوتكم قبورا".

والحديث فقرتان : الأولى أمر : اجعلوا فى بيوتكم من صلاتكم.

والثانية نهى : لا تتخذوها قبورا.

وكلا الجملتين إنشاء ، فمن ثم جاز عطف إحداهما على الأخرى.

محو الخطايا

عن أبى هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسا ماتقول ذلك يُبقى من درنه شيئا ، قالوا : لا يُبقى من درنه شيئا ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا .

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

والمعنى : أخبرونى أيها الناس ، لو ثبت أن نهرا بالقرب منكم وأمام بيت أحدكم ، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، فهل يبقى شىء من الدرن والوسخ عالق بجسده؟ ، قالوا : لا . قال إن الصلوات الخمس التى فرضها الإسلام على المسلم كل يوم خمس مرات كفيلةٌ بمحو الذنوب ، ورفع الخطايا ، وطهارة النفس عما يدخلها من شرور ، شأنها فى ذلك شأنُ النهر الذى يغتسل فيه المرء فى اليوم خمس مرات ، لا يُبقى شيئا مما علق به من كدر أو وسخ .

فقوله عليه السلام : "أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم" الاستفهام هنا جاء على سبيل التقرير ، بأن يعترفوا أن الاغتسال فى النهر خمس مرات كل يوم ينظفُ الجسد ويزيلُ ما أصابه من درن.

وقوله : "لو أن نهرا" لو يقتضى أن يدخل على الفعل ويكون له جواب وهنا لم تدخل على الفعل فلزم تقديرُه، أى لو ثبت أن نهرا يغتسل فيه لما بقى شىء ، وسمى النهر نهرا لسَعته وكثرة مائه ، وكذلك سمى النهار نهارا لكثرة نوره وسَعة ضيائه.

وفى قوله : "ما تقول؟" ما استفهامية ، والمعنى أىَّ شىء تظن ذلك الاغتسال مبقيا من درنه؟ وقدمت ما على الفعل "تقول" لأن الاستفهام له الصدارة . كما أجرى القول هنا مجرى الظن.

"لا يُبقى من درنه شيئا" الدرن بمعني الوسخ. (فذلك مثل الصلوات الخمس) أى فإذا أقررتم ذلك وصحّ عندكم فهو مثل الصلوات ، ووجه التمثيل هنا أن المرء كما يتدنس بالأقذار المحسوسة فى بدنه وثيابه ، ويتطهر منها بالماء الكثير ، فكذلك الصلوات تطهر العبد من أقذار الذنوب حتى لا تُبقى له ذنبا إلا أسقطته وكفرت عنه.

فقد شبه شيئا معنويا هو محو الخطايا بالصلاة ، بشىء حسى وهو إزالة الوسخ بالماء ، فاتضح المقصود بأسلوب التمثيل الذى حول الأشياء المعنوية إلى صورة حسية تراها العين فترسخ فى النفس ولاتمحى عن الخاطر .

التيسير

عن عمران بن حُصين ﷺ قال : كانت بى بواسير فسألت النبى ﷺ عن الصلاة فقال : صل قائما ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنب .

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

كان عمران بن حصين ﷺ مصابا بعلة البواسير فى مقعدته ، والبواسير واحدها الباسور ، تتورم المقعدة ، ويسرى الفساد في باطنها ، ولا يبرأ المريض من علته إلا باستئصال الباسور.

والصلاة لها أحوال ثلاثة : القيام ، فإن عجز عنه فالقعود ، فإن عجز عنه استلقي على جنبه وصلى بالإيماء.

وفى رواية صلى نائما ، أو مضجعاً ، أراد بالنوم الإيماء . لأن صلاة النائم لا تجوز ، فإذا غلب المصلي النوم قطع صلاته ، فربما أراد أن يستغفر فيسب نفسه لأنه لا يدرى شيئا عما يقول.

والأمر يختلف فى صلاة الفرض عن صلاة النفل .

ففى صلاة النفل إذا صلى قاعدا مع القدرة علي القيام ، أو صلى مضطجعا مع القدرة على القعود ، يكون له نصف ثواب القائم إذا صلى قاعدا ، ونصف ثواب القاعد إذا صلى مضطجعا ، أما من كان له عذر فله مثل ثواب القائم .

بخلاف صلاة الفرض : فإن صلاته قاعدا مع القدرة على القيام لا تصح فضلا عن الثواب عليها ، أما إذا صلى قاعدا لعجزه عن القيام ، أو مضطجعا لعجزه عن القعود ، فثوابه كثوابه قائما لا ينقص .

وهيئة المصلى إن لم يستطع الصلاة قائما أن يصلى قاعدا ويجلس كيفما اتفق تخفيفا لحالته .

وهيئة المصلى فى صلاته إن لم يستطع الصلاة قاعدا أن يضطجع على جنبه الأيمن .

ويستقبل القبلة بوجهه كما يوجه الميت فى اللحد وهو قول أحمد بن حنبل . أو يستلقى على ظهره ويجعل رجليه إلى القبلة ويومئ بالركوع والسجود إلى القبلة ، وهو قول أبي حنيفة ، ويكون سجوده أخفض من ركوعه.

وقوله "صل قائما" أمر بإلزامه القيام ، إلا أن السائل مريض ولا يستطيع القيام ، فالأمر هنا للندب ومتعلق بقدرته على أداء الصلاة بالطريقة التى يستطيعها.

فإن لم تستطع فقاعدا ، أسلوب إيجاز بالحذف ، أى إذا لم تستطع الصلاة قائما فصل قاعدا ، والحذف مفهوم من السياق ودل عليه دليل من الكلام السابق ، وكذلك فإن لم تستطع فعلى جنب أى فصل على جنب ، والفاء هنا دخلت على جملة فعلية ، فعلها محذوف وهو أمر طلبى : "فصلّ قاعدا" .

وقوله فإن لم تستطع فعلى جنب ، أى اجلس بشقك على الجنب الذى من تحتك.



الصـــوم



الصوم

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

الصيام جُنَّةُ فلا يرفُثْ ولا يجهلْ ، وإن امرؤٌ قاتله أو شاتمه فليقل : إنى صائم مرتين ، والذى نفسى بيده لَخُلُوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى . الصيام لى وأنا أجْزِى به ، والحسنة بعشر أمثالها . رواه البخارى

★ ★ ★ ★

الصوم جنة أى ستر ووقاية من النار ، لأنه إمساك عن الشهوات ، والنار محفوفة بالشهوات كما فى الحديث الصحيح : "حفّت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات" وكل ما يستر فهو جنة ، ومنه سمى الجن لاستتارهم عن العيون ، والجنان لاستتارها بورق الأشجار.

فالصوم لا يقع فيه الرياء كما يقع فى غيره من العبادات ؛ لأنه لا يظهر من ابن آدم بفعله ، وإنما هو شىء فى القلب ، وذلك لأن الأعمال لا تكون إلا بالحركات ، إلا الصوم فإنما هو بالنية التى تخفى على الناس.

ولكى يكون الصوم كاملا يستحق عليه الصائم الثواب ، عليه ألا يرفث فلا يفحش فى القول ، وفحش القول يطلق على الجماع ومقدماته ، وعلى ذكر النساء وما يتصل بهن ، ولا يجهل ، فلا يفعل شيئا من أفعال الجاهلية كالسفه والسخرية من الناس.

أجل إن الرفث والجهل يستنكران فى الصوم وفى غير الصوم ، وعلى المرء أن يتجنبهما فى كل وقت ، إلا أن النهى عن اقتراف ذلك يتأكد بالصوم.

وإن أراد شخص أن يقاتله أو يعرضه للمشاتمة فليقل إنى صائم ، يقولها بلسانه ليسمعه المقاتل والشاتم فينزجز عن القتال أو الشتم ، أو يقولها في نفسه ليمنع نفسه عن مشاتمته ، ويكرر ذلك حتى تهدأ نفسه وتكف عن المنازعة والشروع فى المخاصمة.

أراد رسول الله ﷺ أن يؤكد السلوك القويم الذى ينبغى للصائم أن يتحلى به ، فأقسم برب العزة الذى نفسه بيده أن تغير رائحة فم الصائم لتأخر الطعام عنه لهى أطيب من ريح المسك عند الله فى الدنيا والآخرة. و هذا تعبير مجازى أراد به أن الله يثنى على عبده الصائم ويرضى عن فعله ويجزل ثوابه.

لأن استطابة بعض الروائح وكراهة بعضها الآخر يكون من شخص له طباع خاصة يميل بها إلى الشىء المحبوب فيستطيبه ، وينفر بها من الشىء المكروه فيتجنبه ، وهذا لا يجرى على الله سبحانه العلى فى ذاته الكامل فى صفاته . فقوله: لخلوف فم الصائم أطيب عند الله" تعبير لا يجرى على الحقيقة وإنما يجرى على المجاز.

والتعبير بأفعل التفضيل "أطيب من ريح المسك" ليبين أن أثر الصوم يترك فى ذات الله من المحبة والرضا والقرب من الصائم أكثر مما تتركه الروائح الطيبة فى نفوس الناس. فهو تمثيل أريد به التقريب ، حتى يرسخ فى النفس أن تلك الرائحة المتغيرة التى تنبعث من فم الصائم لعدم جريان الطعام فى أمعائه هى ذاتها أطيب من ريح المسك عند الله ، وإذا كانت هذه الرائحة المنبعثة من فم الصائم عند الله بهذه الصفة الحبيبة ، فينبغى أن تكون كذلك عند الناس ، فلا يجزعون ولا ينفرون حين يقتربون من الصائم وتلتقى أنوفهم بما ينبعث من روائح متغيرة تتصاعد من فم الصائم.

وفى ذلك حض على الصوم وتقبل الصائم وأن الله يجازى عنه بالرضى والقبول والثواب العظيم .

فالصائم يترك كل ما يحب من شهوة البطن وشهوة الفرج من أجل ربه والتقرب إليه ، وكأنه إجابة عن سؤال يفهم من العبارة السابقة.

لماذا كانت رائحة فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ؟ لأنه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى ، ولذا جاءت العبارة منفصلة عن سابقتها دون ذكر الواو العاطفة فقال : "يترك طعامه" ولم يقل ويترك طعامه بالواو.

وعطف الشهوة على الشراب والطعام ، والشراب والطعام شهوة خاصة ، تدخل ضمن غيرها من الشهوات العامة ؛ من عطف العام على الخاص لتفيد ترك الصائم لجميع رغباته وشهواته التى يحبها ويميل إليها ولا يستغنى عنها .

وإضافة الصيام إلى الله سبحانه في قوله "الصيام لى" إضافة تشريف ليدل على أنه أفضل من سائر العبادات "وأنا أجزى به" قدم الضمير هنا للتخصيص ؛ لأن الله وحده هو الذى يثيب على الصوم لاغيره ، بخلاف سائر العبادات فإن جزاءها قد يفوض إلى الملائكة . والله يجازى على الصوم جزاء كثيرا من غير تعيين لمقداره ، والحسنة بعشر أمثالها، أى إذا كانت الحسنة بعشر أمثالها ، فإن الصيام حسناته لا تعد ولا تحصى.

الصوم يغنى عن الزواج

عن علقمة بن قيس - قال : بينما أنا أمشى مع عبد الله بن مسعود رضى الله عليه فقال : - كنا مع النبى ﷺ - فقال :

"من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء" رواه البخارى

★ ★ ★ ★

الله سبحانه أحل النكاح وندب نبيه ﷺ إليه ؛ ليكون الناس على كمال من دينهم وصيانة لأنفسهم من غض أبصارهم ، وحفظِ فروجهم ، فمن الناس من جبل على حب الشهوات خاصة النساء ، ومن الناس من لا يجد عنده القدرة على مئونة النكاح وفتح باب الزوجية والإنفاق عليه ، وخاصة فى الأحوال الاقتصادية التى نَمرّ بها الآن ، فربما يخاف المرء العنت بعقد النكاح ، فيعوضه الشرع بالصيام ليدفع به سورة الشهوة ، فالصيام وجاء ، وكلمة وِجاء فيها معنى الفتور ؛ لأن من وجىء فتر عن المشى ، فشبه الصوم فى باب النكاح بالتعب فى باب المشى فينفر عن متابعة السير.

وقول علقمة بينما أنا أمشى ، فيه معنى المفاجأة ، والأفصح أن يأتى جوابها دون إذ أو إذا كما جاء فى هذا الحديث ، حيث كان الجواب مقرونا بالفاء فى مقام إذ وإذا . فقال فليتزوج ، فعليه بالصوم.

وقوله : كنا مع النبى ﷺ ، جملة معترضة بين قوله : بينما وبين جوابه "فقال"وهذه الجملة المعترضة جاءت لبيان حالة الراوى ومن كان معه حين قال الرسول ﷺ الحديث .

وقول الرسول ﷺ "من استطاع منكم الباءة فليتزوج" أى من استطاع منكم الجماع وقدر على مطالب النكاح من إنفاق وقدرة مالية فليتزوج ، والأمر هنا أمر ندب لا أمر إيجاب ، فربما يخشى العنت والعجز فى أيامه المقبلة .

والباءة من الباء وهو الحظ من النكاح ، ومنه سمى النكاح باء أو باهة ؛ لأن الرجل يتبوأ من أهله ويتمكن ، كما يتبوأ من داره .

فإن التزوج أغض للبصر ، أى أدعى إلى غض البصر ، وأدعى إلى إحصان الفرج ، فهو يؤدى إلى غض البصر وإلى إحصان الفرج ، فهو مجاز باعتبار ما يؤدى إليه.

أما من لم يستطع الزواج لسبب من الأسباب المادية أو الاجتماعية أو النفسية فعليه أن يلتزم بالصوم ، فإن الصوم له وقاية من النزوع إلى الشهوات . وهذا على سبيل التوكيد لا على سبيل الظن ، "فإنه له وِجاء" ، جاء التقديم هنا ؛ (له) ليفيد أن الصوم له ، لا لغير الصائم ، يجعل منه مستمسكا بتعاليم دينه وما تدعو إليه من فضيلة وتقوى.

الصوم والشياطين

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

"إذا دخل شهر رمضان فُتحت أبوابُ السماء وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين" رواه البخارى

★ ★ ★ ★

إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن ، وغلقت أبواب النيران فلم يفتح منها باب ، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب ، وكما قال رسول الله : أفضل الملائكة جبريل وأفضل النبيين آدم عليه السلام ، وأفضل الأيام يوم.الجمعة ، وأفضل الشهور شهر رمضان ، وأفضل الليالى ليلة القدر ، وأفضل النساء مريم بنت عمران.

وقوله عليه السلام "فتحت أبواب السماء" أى أبواب الجنة ؛ لأن أبواب السماء يصعد منها إلى الجنة ، فهى فوق السماء وسقفها عرش الرحمن.

"وغلقت أبواب جهنم" لأن الصوم جنة وستر من المعاصى فتغلق أبوابها بما قطع عنهم من الذنوب وترك الأعمال السيئة المستوجبة للنار ببركة هذا الشهر الكريم .

"وسلسلت الشياطين" أى شدت بالسلاسل فلا يستطيعون الإغواء وتزيين الشهوات .

فإن قيل : إن الشرور والمعاصى تقع كثيرا فى شهر رمضان ، فلو سلسلت الشياطين لما وقع شىء من ذلك.

نقول : إن هذا الحديث ينطبق على الصائمين الذين يحافظون على شروط الصوم ويراعون آدابه . أما غير الصائمين فتقع منهم الشرور ولو كان ذلك فى شهر رمضان ، ومهما يكن فالمراد قلة وقوع الشرور فى هذا الشهر ، فالشرط هنا دخول شهر رمضان وجوابه الذى يترتب عليه هو فتح أبواب الجنة وإغلاق أبواب جهنم ، وسلسلت الشياطين ومردتهم بالأصفاد والأغلال.

وبناء الفعل للمجهول فى الجمل الثلاث فُتحت ، وغُلقت ، وسُلسلت ، فيها محافظة تلقائية علي وزن الكلام وموسيقاه ، جاءت عفوا دون قصد فبدت رائعة مستحبة والمقابلة "بين فتحت أبواب السماء ، وغلقت أبواب جهنم" أعطت الحديث سحرا وجمالا يفوق كل جمال ، ولو أنه عبر بغير ذلك لبدا الكلام بعيدا عن الحسن والمزية .

والمقصود بأبواب السماء أبواب الجنة فعبر بلفظة السماء بدلا من الجنة ؛ لأنها طريق إلى الجنة وسلم للوصول إليها ، فما أروع هذا الحديث ، وما أكثر الاحتفاء بشهر البركة والغفران ، شهر رمضان المعظم .

صيام يوم عاشوراء

عن ابن عباس رضي الله عنه قال :

قدم النبى ﷺ المدينة فرأى اليهود تصومُ يومَ عاشوراء ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : هذا يومٌ صالح ، هذا يومُ نجىَّ الله بنى إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، قال : فأنا أحق بموسى منكم ، فصامه وأمر بصيامه».

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

كان يوم عاشوراء تصومه قريش فى الجاهلية ، وكان رسول الله ﷺ يصومُه ، فلما قدم المدينة وجد اليهود تصومه ، ويتخذونه عيدا ، ويُلبسون نساءهم فيه حليهم وشارتهم ، والشارة هى اللباس الحسن الجميل . سألهم رسول الله ﷺ عن سبب صيامهم هذا اليوم : فقالوا : هذا اليومَ الذى أظهر الله فيه موسى وبنى اسرائيل على فرعون ، فنحن نصومه ، كما كان موسى يصومه ، قال رسول الله ﷺ: أنا أقرب إلى موسى منكم ، وهو أخى فى النبوة فأنا أحق به منكم فصامه رسول الله ﷺ ، لم يصمه ابتداء ؛ لأن أهل الجاهلية كانوا يصومون ذلك اليوم والرسول كان يصومه قبل الهجرة ، وإنما المراد أنه ثبت على صيامه ، وداوم على ما كان عليه ، ومن المعلوم أن رسول الله ﷺ قدم المدينة فى ربيع الأول ، وأنه علم بصيام اليهود بعد هجرته إلى المدينة ، ومن ثم فالكلام فيه حذف ، أى أنه قدم المدينة فأقام إلى يوم عاشوراء ، فوجد اليهود يصومون فيه فصامه ، وأمر بصيامه ، والأمر هنا ليس على سبيل الوجوب والفرض ؛ بل على سبيل الندب والاستحباب ، وإنما صامه رسول الله ﷺ شكرا لله تعالى فى إظهار موسى عليه السلام على فرعون

وملئه وهلاكهم في اليمّ ، والدليل على أن صومه ليس واجبا قوله عليه السلام "من شاء صام ومن شاء أفطر".

وفى قوله "قدم النبى المدينة فرأى اليهود تصوم" عطف بالفاء التي تفيد التعقيب ، فرؤية النبى صيام اليهود كان بعد قدومه مباشرة إلى المدينة ؛ إذ تصادف أول علمه بذلك وسؤاله عنه بعد أن قدم المدينة.

وقوله فرأى اليهود تصوم "ولم يقل صائمة ؛ لأن صورة الصيام ليوم عاشوراء كانت تتجدد كل عام فى موعدها ، ولذا عبر بالفعل المضارع "تصوم".

"تصوم يوم عاشوراء" فعاشوراء معدول عن عاشرة للمبالغة والتعظيم ، أى الليلة العاشرة ، فاستغنوا عن الموصوف فحذفوا الليلة.

ويكره صوم عاشوراء منفردا وإنما ينبغى صيام يوم قبله وصيام يوم بعده ، حتى لا يتشبه المسلمون باليهود ، وهذه الكراهة عند بعض العلماء ، لا عند عامتهم؛ إذ أجازوا صومه منفردا ؛ لأنه من أيام الفضل والشكر على نعم الله.

يقولون فى سبب تسميته بيوم عاشوراء : إن الله أكرم فيه عشرة من الأنبياء بعشر كرامات.

أكرم فيه آدم بالتوبة ، ونوحا حين استوت سفينته على الجودىّ ، وإبراهيم حين ولد فيه ، وداود حين تاب الله عليه ، ويونس حين نُجىّ من بطن الحوت ، ويعقوب حين رُدّ فيه بصره ، ويوسف حين أخرج من الجب ، وموسى حين نُصر فيه وفلق البحر له ، وغَرق فرعون وجنوده ، وعيسى حين ولد ورفع فيه ، ومحمد حين غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

فقال : أى رسول الله ﷺ : ما هذا ؟ هذا الاستفهام جرى على حقيقته ؛ لأن الغرض منه معرفة سبب صيامهم لهذا اليوم ، ومن أين مصدره ؟ "قالوا : هذا يوم صالح" وذلك رد على السؤال الذى وجه إليهم وإجابة عنه ، وهو جملة خبرية بعد جملة استفهامية إنشائية ولذا جاءت دون عطف "وهذا" إشارة حسية تفيد القرب ، والصيام ليس محسوسا وإنما هو أمر معنوى نُزل منزلة الأمر الحسى باعتبار كونه

واضحا لا لبس فيه ، كما تفيد القرب باعتبار كونه محببا إليهم قريبا إلى نفوسهم ، ولذا وصفوه بأنه يوم صالح ، أى جرى فيه العمل الصالح ، وهو نجاة موسى وهلاك فرعون . واليوم لا يوصف بأنه صالح ، فوصفه بذلك كان على سبيل المجاز.

وجاء الكلام أولا على سبيل الإجمال ، ثم وضحه بقوله : "هذا يوم نجى الله بنى إسرائيل من عدوهم" . فوضح ما كان مبهما ، وفصّل ما كان مجملا .

يقول رسول الله ﷺ فأنا أحق بموسى منكم عبر بأفعل التفضيل "أحق" أى إذا كنتم أحقاء بصيام هذا اليوم تكريما لما وقع لموسى فيه من النجاة ، فأنا أكثر أحقية منكم وإنى أولى بصيام هذا اليوم ؛ لأن موسى أخى فى النبوة وتبليغ الرسالة.

"فصامه" أى صام يوم عاشوراء ، وأمر بصيامه ، ولكن على سبيل الندب والاختيار ، وليس على سبيل الوجوب والفرض .

الصوم والإرهاق

عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال :

كان رسول الله ﷺ فى سفر فرأى زِحاما ورجلا قد ظُلِّلَ عليه ، فقال: ماهذا؟ فقالوا صائم ، قال : ليس من البر الصوم فى السفر. رواه البخارى

★ ★ ★ ★

كان رسول الله فى سفر وكان ذلك فى غزوة الفتح ، فرأى زحاما على رجل أجهده السفر ، وكان ذلك فى رمضان وهو صائم. اجتمع الناس حوله يودون أن يمدوا إليه يد العون ، فظلّلوا عليه حتى يحجبوا عنه أشعة الشمس الحارقة التى تزيد من أمره رهقا . قالوا لرسول الله ﷺ ، هذا الرجل نذر أن يمشى إلى بيت الله الحرام ، فقال إن الله لغنى أن يعذب المرءُ نفسَه ، مُروه فليمش وليركب ، وليقعد وليتكلم وليستظل وليفطر . ثم قال مقولته الشهيرة :

{ ليس من البرّ الصوم فى السفر} أى ليس البر أن يبلغ الإنسان بنفسه هذا المبلغ من التعب والجهد ، والله قد رخص للمسافر فى الفطر ، لما فى السفر من مشقة ونصب .

وليس قول الرسول ﷺ : {ليس من البر الصوم فى السفر} أن من يصوم فى السفر يكون آثما ، لأنه صح أن النبى ﷺ صام فى السفر فى شدة الحر ، ولو كان إثما لكان أبعد الناس منه.

وفى قوله : {فرأى زحاما ورجلا قد ظلل عليه} نكر زحاما ليفيد الكثرة والتعظيم أى زحاما شديدا عظيما ، ونكر رجلا ، ليفيد أنه غير معروف لدى القوم إذ رآه الرسول وهو يسير فى طريقه إلى غزوة الفتح ، ولم يكن لديه علم به .

والتعبير بقد فى قوله : {قد ظُلّل عليه} ليفيد التأكيد بأن الناس قد التفّوا حوله وأحكموا عليه ما يظلله ويبعد عنه أذى الحر .وبناء الفعل للمجهول {ظلّل} دون البناء للفاعل فلم يقل الراوى (قد ظللوا عليه) لأن الغرض هنا ليس بيان الفاعل لعدم الفائدة من ذكره ، وإنما الغرض هو التركيز على الفعل بأن الظلة قد احتوتهُ ولم يكن لحرارة الشمس أذى عليه .

فقال : ما هذا؟ أى قال رسول الله ، دون أن يكرر ذكره ؛ لأنه ذكر آنفا قبل ذلك. والسؤال هنا ماهذا ؟ جاء على الحقيقة وأراد الاستفهام عن شئ لايدرى الرسول ﷺ فحواه ، وما الغرض من هذا الزحام ؟.

قالوا : صائم ، أى هو صائم فحذف الضمير إيجازا للعلم به. {قال ليس من البر الصوم فى السفر} والبر الطاعة والإحسان والخير ومنه بر الوالدين ، أى ليس من الطاعة ولا من العبادة أن يصوم الرجل فى حالة السفر .

{وليس من البر} من هنا زائدة فى اللفظ ولكنها جاءت لتوكيد المعنى أى {ليس البر الصوم فى السفر} وزيادة {من} من بعد النفى أسلوب درج عليه العرب واستعملوه كثيرا فى كلامهم يقولون : ما جاءنى من أحد ، أى ما جاءنى أحد ، إذا أرادوا التوكيد على نفى مجيئه.

والتعريف بأل فى {البر} لتفيد الكمال والتمام ، أى ليس من البر الكامل الصحيح أن يصوم الرجل فى حال السفر .

يقول رسول الله ﷺ : إن الله وضع عن المسافر الصيام ونصف الصلاة ، فأباح القصر فى الصلاة باجتزاء شطرها.

الصدقة فى رمضان

عن عائشة رضى الله عنها قالت :

إن رجلا أتى النبى ﷺ فقال: إنه احترق ، قال : مالك؟ قال أصبت أهلى فى رمضان. فأُتى النبى ﷺ بمِكتل يدعى العَرق ، فقال : أين المحترِق ؟ قال : أنا ، قال تصدق بهذا». رواه البخارى

★ ★ ★ ★

جاء سلمة بن صخر البياضىّ يشكو حاله إلى رسول الله ﷺ فذكر أنه جعل امرأته عليه كظهر أمه حتى يمضى رمضان ، فلما مضى نصف رمضان وقع عليها ليلا ، فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك ، فقال له الرسول : حرّر رقبة ، قال : لا أملك رقبة غيرها وضرب صفحة رقبته ، قال : فصمْ شهرين متتابعين ، قال : وهل أصبت الذى أصبت إلا من الصيام ، قال له رسول الله ﷺ : فأطعم ستين مسكينا ، قال : والذى بعثك بالحق مالنا طعام . قال رسول الله ﷺ لأحد الصحابة : أعطه ذلك العرق- وهو على وزن شجر- وهو وعاء عظيم أكبر من القفة به خمسة عشر صاعا من التمر ، وقال له : تصدق بهذا .

قوله : إن رجلا أتى النبى ﷺ ، لم يذكر اسم الرجل وعمدت السيدة عائشة إلى تنكيره وعدم ذكره ، وهذا أفضل للرجل ، خاصة فى الأمور التي تسىء إلى المسلم ، حتىّ لا يطلع أحد على ما جنت يداه فى رمضان مما ينبغى على المسلم أن ينأى بنفسه عن ارتكابه ، فالتنكير هنا جاء بسبب الستْر وعدم الوقوف على اسمه.

وقوله : إنه احترق ، أى هلك ؛ لأنه أراد أنه سيحترق بالنار يوم القيامة ، فجعل المتوقع فى الآخرة كأنه وقع فى الدنيا ، واستعمل بدله لفظ الماضى ، كأن

عذابه واحتراقه واقع لامحالة ، أو كأنه شبه ماوقع فيه من الجماع فى شهر رمضان بالاحتراق.

جاء هذا الرجل بعد ارتكاب فعلته هائجا يلطم وجهه ، ويدق صدره وينتف شعره ، ويقول هلك الأبعد وهلكت .

هال أمر ذلك الرجل رسول الله ﷺ فقال :

ما شأنك وماجرى عليك ؟ حتى تفعل بنفسك كلَّ ذلك.

قال : أصبت أهلي فى رمضان ، كناية عن أنه وطأ امرأته عامدا وهو صائم فى رمضان .

وبينما هو فى هذا الحال أقبل رجل يسوق حمارا عليه طعام ، فأتوا منه بمكتل ، أى بوعاء كبير فيه تمر ، فقال رسول الله ﷺ أين المحترق؟ أي الذى هلك ، أو يتوقع الهلاك باحتراقه فى النار يوم القيامة ، فمصير كل من يعمد إلى مخالفة دين الله والتمسك بما جاء فى كتابه من سلوك خاص بالصوم ، والإهمال فيه مصيره جهنم . إلى هذا الحد كان الصحابى يشعر بالجزع الشديد ويلوم نفسه ويلطم خده ، لأنه وقع فى المحظور ، وماالذى ينقذه مما ينتظره من هلاك وهو رجل فقير لايقدر على الصدقة ، ضعيف أمام رغبته وبعده عن الشهوات ، فلا يصبر على رغبة أو شهوة ويخشى الوقوع فيها إذا داوم على صيامه. ذهب إلى الرسول ﷺ ليجد له مخرجا من هذه الورطة .

قال رسول الله ﷺ تصدق بما فى هذا الوعاء من تمر ؟ وأعطه للمساكين .

والترتيب فى الكفارة واجب ، فتحرير رقبة أولا ، فإن لم يوجد فصيام شهرين ، فإن لم يستطع الصوم فإطعام ستين مسكينا وهو قول جمهور العلماء.

وإذا وقع الرجل مع امرأته فى وطء لزمتهما كفارة واحدة لاكفارتان.

وروى أيضا عن أبى حنيفة أنه يجزئ أن يدفع طعام ستين مسكينا إلى مسكين واحد ؛ لأن المقصود سد خلة المحتاج ، وبأيها وقع لا بأس به.

وأجمع الفقهاء أن من وطئ مرارا فى يوم واحد عليه كفارة واحدة ، أما إذا وطئ فى يوم من رمضان ثم وطئ فى يوم آخر فعليه كفارة أخرى ، إلا إذا لم يكفر عن الأولى ووقع فى الثانية ، فعند أبى حنيفة عليه كفارة واحدة.

وقوله "تصدق بهذا" أمر للوجوب وليس للاختيار ، وإن كان يتضمن أيضا تمليكه لما يتصدق به ، لأن من يتصدق بشئ لابد أن يكون فى حوزته وفى ملكه ذلك الشيء ، والله أعلم.

العشر الأواخر من رمضان

عن عائشة رضى الله عنها قالت :

كان النبى ﷺ {إذا دخل العَشْر شدّ مئزَره ، وأحيا ليله ، وأيقظَ أهله}. رواه البخارى

★ ★ ★ ★

إذا مرّ من شهر رمضان ثلثاه ، ودخل فى الأيام العشرة الأخيرة منه شد الرسول ﷺ مئزره واستعد للعبادة واجتهد فيها اجتهادا زائدا على عادته المألوفة ، وشمر عن ساعده ، ورغب عن النساء ونشط لقيام الليل والعبادة فيه ، والطاعة لله وأوامره ، فيستغرق الليل بالصلاة والتهجد والتسبيح ، ولم يكن يفعل ذلك وحده ، وإنما كان يشرك أهله فى القيام والعبادة .

وقول عائشة {إذا دخل العشر شد مئزره} التعبير بإذا يكون للجزم لوقوع الفعل بما لايدع مجالا للشك فيه ، فالرسول ﷺ كان يؤدى هذا الفعل كلما جاءت الأيام الأخيرة من شهر رمضان ، وبالتحديد فى الأيام العشرة التى يختم بها شهر رمضان . فإذا كان الأمر كذلك شد مئزره ، والمئزر الإزار وهو ما يأتزر به الرجل من أسفله ، وهو كناية عن عدة أشياء تتآلف ولاتتعارض ، فهو كناية من ألطف الكنايات عن اعتزال النساء أو القرب منهن لا بالمباشرة ولا باللمس . والشاعر العربى يقول فى هذا المعنى .

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم ** عن النساء ولو باتت بأطهار

وهو كناية عن قيام الليل والبعد عن الاسترخاء والراحة والنوم.

{وأحيا ليله} بالاجتهاد فى العبادة والصلاة وذكر الله وتسبيحه ، وكل ما يمارس من شعائر الدين ويؤدي إلى التقوى ﷺ وليس المراد إحياءَ الليل كلِه ، وإنما

معظمه بدليل قول السيدة عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ : {ماعلمته قام ليلةً حتى الصباح} وفى نسبة الإحياء إلى الليل مجاز ؛ لأنه إذا سهر فيه للطاعة فكأنه أحياه ، والعبادة تستدعى التيقظ فى الفكر والخشوع فى القلب ، والتيقظ والخشوع لا يتأتيان للنائم ، والنوم أخو الموت ، فكل منهما يبعد المرء عن الحركة بالفكر أو الوجدان ، ومن هنا صح نسبة الإحياء إلى الليل على سبيل المجاز وفى قوله :

{وأيقظ أهله} للصلاة والعبادة . مشاركة لهن فى الأجر والثواب ، وهذا ما ينبغى أن يصنعه الرجل مع أهله من زوج وأولاد ، وإذا كان رب البيت والمسئول عنه وراعيه متديّنا قريبا من الله بوجدانه ومشاعره ، التزم بأن ينشئ أهل بيته نشأة دينية يلتزمون فيها بأمور الدين ، فكلكم راع فى بيته ومسئول عن رعيته.

فالرسول ﷺ يوقظ أهله إن كان فى المسجد وهن معتكفات معه داخل المسجد ، أو يوقظهن إن لم يكنّ معتكفات وهن فى بيوتهن ، فإذا خرج الرسول ﷺ من المسجد لقضاء حاجة من حاجته فى بيته أيقظهن ، أو يوقظهن وهو فى موضعه من المسجد من باب الخوخة التى تطل على البيت.

وانظر إلى هذا العبارات الثلاث التى جاءت متعاطفة متآخية متوازية تتدفق فى موسيقاها الظاهرة والباطنة ، مع حسن السجع {فى أحيا ليله ، وأيقظ أهله} وفيه أيضا مراعاة للنظير والشبيه بين أحيا وأيقظ ؛ لأن التيقظ حياة ، والنومَ وفاة ، فالجمع بينهما جمع بين الشبيهين المتناظرين ، مما يجعل الأسلوب يتسم بالجلال والروعة والجمال .

الصوم وقول الزور

عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :

{من لم يدَعْ قــولَ الـزُور والعـمَل به فليس لله حـاجــةٌ فى أن يدعَ طعامه وشرابه }. رواه البخارى

★ ★ ★ ★

يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : من لم يترك قول الزور والعمل به الذى هو من أكبر الكبائر ، فماذا يصنع بصومه؟.

وقول الزور هو الكذب والبهتان ، ورسول الله يقول : {عدلت شهادةُ الزور الإشراكَ بالله}.

وعلى الصائم أن يتنزه أيضا عن الغيبة والنميمة والكذب إذا طمح أن يكون صومه مقبولا عند الله ، وأن يكون تاما لانقص فيه ولاخلل.

فإذا لم يدع قول الزور والعمل به ونحو ذلك مما هو شبيه به من الموبقات فليس لله حاجة فى صيامه عن الطعام والشراب . فالفاء هنا تسمى بفاء الجواب لأنها إجابة عن الكلام السابق يتم به المعنى ، ويصل منه إلى الغرض ومافيه من تحذير وإهمال بشأن من لم يترك قول الزور أو الشهادة به.

وقدم لفظ الجلالة على كلمة {حاجة} فى قوله {فليس لله حاجة} ليفيد التأكيد بأن الله فى غنى عن صيامه.

ونكر لفظة {حاجة} لتفيد العموم أى : ليست له حاجة ما ، من أى نوع كان ، أو تفيد التقليل ، أى ليست لله حاجة فى صيامه ولو كانت قليلة.

وهذه العبارة أيضا {فليس لله حاجة} مجاز عن عدم الالتفات والقبول ؛ لما بينهما من رابطة ؛ لأن الشخص يلتفت إلى الشيء إذا كان فى حاجة إليه حفيًا به فالحاجة سبب فى الالتفات ، فنفى السبب وأراد نفى المسبب . ومن جهة أخرى فالله لايحتاج إلى شئ أو إلى أحد.

ولا يتبادر إلى الأذهان أن من يشهد الزور ، أو يتناول الناس بالغيبة أو النميمة أو يتحدث كاذبا أن يدع صيامه ، وإنما معناه التحذير من قول الزور وما ذكر معه ، وأنه يؤمر باجتناب ذلك ليتم له أجر صومه ، فإذا انتهى صيام الصائم ، وأفطر ، فرح به ربه لخلوص صيامه من اللغو والآثام .



الزكـــاة

الزكـــاة

عن أبى سـعـيـد الـخـدّرىّ ﷺ أن أعـرابيـا سـأل رسـول الله ﷺ عن الهـجـرة ، فـقـال : {ويحَك : إن شـأنهـا شـديد ، فـهـل لك من إبـل تؤدى صدقتهـا؟ قال نعم ، قال : فاعمل من وراء البحار فإن الله لن يتـرِك من عملك شيئا} . **رواه البخارى**

★ ★ ★ ★

سأل رجل من الأعراب رسول الله ﷺ ، والأعرابى هو الذى : يسكن البادية ، وإن لم يكن عربيا يتحدث بلغة العرب ، سأل رسول الله عن الهجرة من البادية إلى المدينة ، وهو رجل ضعيف لايصبر على شدة المدينة والمُقام ، وهو أيضا ليس من أهل مكة الذين وجبت عليهم الهجرة حيث أُوذوا فى أموالهم وأنفسهم وذويهم.

قال له الرسول {ويحَك} وهى كلمة تستعمل فى الزجر والموعظة ، إلا أن الرسول ﷺ أراد بها هنا الرحمة والتوجع على حال الأعرابى وتمسكه بالهجرة وهو غير قادر عليها.

فوضح له الرسول أن شأن الهجرة شديد ، مؤكدا له ما فى الهجرة من صعوبة وشدة حتى يعدل عنها . وسأله هذا السؤال التقريرى : هل لك من إبل تؤدى صدقتها ، وتخرج زكاتها ؟ وخص السؤال عن الإبل مع أن الزكاة تكون فى غيرها من الحيوانات كالغنم والبقر ونحو ذلك ؛ لأن السياق يفيد أن الأعرابى من أهل الإبل والباقى ينقاس عليه. فعندما قال الأعرابى إنه يخرج زكاة إبله ويؤدى فرض الله في ماله ، قال له الرسول ﷺ ، لاتبال عندئذ أين تقيم وإن كانت إقامتك فى مكان قصىّ عن المدينة ، في مكان من وراء البحار وهو أبعد مايكون عن المدينة ، وليس القصد أنه يسكن من وراء البحار فالكلام ليس على الحقيقة وإنما هو كناية عن البعد

الشـديد . ومـادمت تخـرج الزكـاة وتؤدى فـرض الله عليك فلك ثواب الهـجـرة . كالمريض يصلى قاعدا فله ثواب القائم ، إذا لو كان صحيحا لصلى قائما ، ولن ينقص الله من ثوابك شيئا .

فكلمة {ويحك} أراد بها رسول الله الترحم والتفجع على حال الأعرابى الذى يريد أن يشق على نفسه بالهجرة يبغى ثوابها ، وهى فى الأصل كلمة تستعمل فى الزجر والكراهة.

وقوله : {إن شأنها شديد} ، استعمل من أدوات التوكيد إن واسمية الجملة حتى يبين للأعرابى شدة المقام فى المدينة والعيش بها ، فلن يقدر على ذلك سوى الأقوياء فى أبدانهم وهو رجل ضعيف لايقوى على ذلك.

وقوله فهل لك من إبل تؤدى صدقتها ؟ الاستفهام ليس على حقيقته ، وإنما أريد به أن يقرره على أنه يمتلك من الإبل التى يؤدى زكاتها ، والإبل تعتبر عند الإعرابى من خيار أمواله التى يعتز بها وقوله {فاعمل من وراء البحار} الأمر هنا يفيد الوجوب إذا كان المراد إخراج الزكاة الواجبة ويفيد الاستحباب إذا كان الإخراج عن صدقة مندوبة .

وأكد رسول الله ﷺ للأعرابى مرة أخرى أن الله لن ينقصه من عمله شيئا ، فصلاته وصيامه وزكاته محسوبة له وإن لم يكن يسكن المدينة ، فحيثما يكون فالله يتقبل منه العمل الصالح ، سواء أكان فى المدينة أو فى البادية أو فى مكان بعيد من وراء البحار . فالعبرة ليست بالمكان ، وإنما العبرة بأداء الواجبات الدينية ، دون غيرها.

وانظر إلى قول الرسول ﷺ {لن يتَرك من عملك شيئا} وتنكيره كلمة {شيئا} أى شيئا ولو قليلا ، شيئا لايذكر ، فالله يثيب عليه ، وإن كان مهملا لايظن فيه الثواب .

منع الزكاة

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

" من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثّل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زَبِيبتان يُطَوَّقُه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلِهْزِمتَيْه يعني شِدقيه ، ثم يقول : أنا مالُك ، أنا كنزك" ثم تلا الآية ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ... ﴾ (آل عمران :١٨٠) . **رواه البخارى**

★ ★ ★ ★

ومعنى الحديث أن من أعطاه الله مالا من ذهب أو فضة أو غيرهما ، صور له ماله الذى لم يؤد زكاته على صورة حية ذكر- وهو من أجرأ الحيات وأكثرها دقة وخبثا . وصفه بأنه أقرع ؛ لأنه يَقرع السم ويجمعه فى رأسه حتى يتساقط من فروة رأسه ، أو سمى أقرع ؛ لأنه كلما كثر سمه ابيض رأسه ؛ لأن الأقرع هو الذى فى رأسه بياض .

وله زبيبتان ، أى : نكتتان سوداوان فوق عينيه . هذه الحية تبدو لمن يكنز ماله دون أن يؤدى زكاة الفقير فى صورة مخيفة تروّع البخيل فيقفز نحوه ويطوقه من عنقه حتي يصير كالطوق ملفوفا حول عنقه ولايستطيع التخلص منه ، فيأخذ بشدقيه - وهو لحم الخدين بين الأذن والفم- ثم يقول له الشجاع المصور من المال: أنا مالك ، أن كنزك يخاطب به صاحب المال ؛ ليزيده غصّة وهما ؛ لأن كنزه لماله شر أتاه من حيث كان يبغى منه خيرا ، وهذا الحديث الذى يجريه الثعبان مع مانع الزكاة غاية فى التهكم والاستهزاء بمن يجمع المال دون أن يؤدى زكاته ، ثم تلا من القرآن الآية التى نزلت فى مانع الزكاة تتوعده على بخله وشدة حبه للمال.

وقوله {ومن آتاه الله مالا} نكر مالا ليدل على العموم والشمول ، أى مالا من أى نوع سواء أكان من ذهب أو فضة أو دراهم أو دنانير أو غير ذلك.

فالمال محبوب تهفو إليه النفس ولاغبار فى السعى إليه لامتلاكه والانتفاع به مادام يؤدى زكاته ، ولكن الحديث النبوى الشريف يصور لنا المال الذى لم يؤد صاحبه الزكاة فيه يصبح شرا مستطيرا ، يصور هذا المال فى صورة الحية ، ليس على سبيل الكناية ، بل على سبيل الحقيقة ، حية من أخبث الحيات وأكثرها سمّاً وإخافة ، ولذا وصفها الرسول بأنها شجاع أقرع له زبيبتان تقفز إلي عنقه فتصبح كالطوق له ، فهو يشبه حال الحية بحال الطوق فى الاستدارة فيلتف حول العنق من كل اتجاه ، فلا يستطيع أن يجد ثغرة فيه حتي يستطيع أن يتخلص منه.

وفى التعبير بلفظة {لهزمتيه} ليدل على معنى الفظاعة والثقل الذى توحى به هذه الكلمة من الثقل حتى تتناسب مع الموقف الهائل والوعيد الشديد.

وقوله "أنا مالك أنا كنزك" الذى دبرته وادخرته وكنزته فكان وبالا عليك ، كان نقمة لا نعمة ، وطريق حساب لاسبيل ثواب ، فهذا أوان عقابك .

فالبخل ليس خيرا لك بل هو شر ، واكتساب إثم وعقاب ، وتلا الآية القرآنية التى تدل على ذلك :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (آل عمران :١٨٠) .

تعطيل الزكاة

عن أبى ذر رضي الله عنه قال : انتهيت إلى النبى ﷺ قال : {والذى نفسى بيده أو والذى لا إله غيره ، أو كما حلف- ما من رجل تكون له إبلٌ أو بقر أو غنم لا يؤدى حقها إلا أُتى يومَ القيامة أعظَم ماتكون وأسمنَه تطؤه بأخفافها ، وتنطَحه بقرونها ، كلما جازت أُخراها رُدتَ عليه أولاها حتى يُقضى بين الناس}. **رواه البخارى**

★ ★ ★ ★

يقول أبو ذر إنه جاء إلى رسول الله ﷺ وهو جالس فى ظل الكعبة ، فلما رآنى قال عمن يحجم عن أداء الزكاة : هم الأخسرون ورب الكعبة يوم القيامة : قال ذلك مقسما بربه الذى يمتلك نفوس الخلق جميعا ، بما فيها نفسه ﷺ . إن من لا يؤدى حق الزكاة فى إبله أو غنمه تجئ إبله وغنمه يوم القيامة فى صورة بشعة هائلة ، عظيمة فى حجمها ، سمينة فى لحمها ، الإبل تطؤه بأخفافها العريضة الثقيلة ، والبقر والكباش تنطحه بقرونها الحادة الطويلة الصارمة ، لاتكتفى الإبل بالوطء ولا البقر بالنطح مرة واحدة ، بل تعاود ذلك المرة تلو المرة حتى يفرغ الحساب.

هذه الصورة القاسية التى تنتظر كل من يبخل عن إخراج الزكاة وحق الفقراء، فالمال مال الله ، ونحن مخولون فى إنفاقه على الفقراء بموجب شرعه ، فلا راحة لمن يتخلى عن أداء هذا الحق ، وإنما تنتظره عقوبة الله سبحانه ، وهى عقوبة مهولة تأتى فى صورة بشعة حيث تتحول هذه الإبل والبقر والغنم من حجمها الطبيعى إلى صورة أخرى لانكاد ندركها ، وإنما قربها الرسول ﷺ لنا حتى نقف على جزاء الذى لا ينفق من ماله على الفقراء ، صوّرها فى صورة الإبل العظام ،

والبقر السمان والغنم الكبار ، حتى نشعر بهول الجرم الذى يرتكبه من لايؤدى الزكاة.

هذه الإبل العظيمة تطؤه بأخفافها الثقيلة ، وتعاود الوطء مرات ومرات ، وإن كانت مرة واحدة تكفى لتعذيبه والفتك به ، إمعانا فى الهول والنكال.

والبقر والغنم تنطحه بقرونها الحادة التى تنفذ فى اللحم فيتناثر قطعا ، يستمر هذا العذاب وهذا الهول فترة طويلة أطول مما يتوقع المرء ، يستمر حتى يفرغ من الحساب ، هذه الصورة البشعة صورة الأخفاف والقرون التي تتجاذب جسد المذنب ، إذا لم تكن حقيقة ، فهى يقينا تصور هول العذاب الذى سيلقاه كل من يمتنع عن الزكاة .

الشح

عن عائشة رضى الله عنها : قالت هند أمُ معاويةَ لرسول الله ﷺ :

{إن أبا سفيان رجل شحيح ، فهل علىَ جناح أن آخذ من ماله سرا ؟

قال : خذى أنت وبنوك ما يكفيك بالمعروف}

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

هند بنت عُتبة زوج أبى سفيان أسلمت عام الفتح وماتت فى خلافة عمر رضي الله عنه وأبو سفيان : اسمة صخر بن حرب ، أسلم يوم فتح مكة ، وكان رئيس قريش يومئذ.

سألتْ هندُ رسول الله ﷺ تستفتيه فى أمر زوجها أبى سفيان ، فهو رجل شحيح لاينفق على بيته وأولاده ، فإذا امتدت يدها وأخذت من ماله دون أن يدرى لتنفق على نفسها وأولادها ، فهل تأثم لذلك ؟.

قال لها رسول الله ﷺ خذى من ماله ما يكفيك أنت وأولادك بقدر حاجتهم دون زيادة .

وصفت هند زوجَها أبا سفيان وصفا كريها ينبغى للمسلم أن ينأى عنه وصفته بالشح ، وهي صفة لها آثارها الوخيمة على جميع أفراد الأسرة ، فتجعلهم دائما فى ضيق وعوْز وحاجة إلى الإنفاق ، ومع أبيهم مايكفيهم ولكنه يضنّ عليهم بما أفاء الله عليه من أموال تجعلهم إذا أنفق عليهم لايتطلعون إلى مافى يد غيرهم.

فإذا استمر الأب على الإمساك ربما اندفع الأولاد إلى الحصول على المال بطريق غير مشروع ، فيقعون تحت طائلة القانون السماوى أوالوضعى ، وأساس الشرور يعود إلى الشح ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الأب البخيل يزرع

البغض فى صدور أولاده ويؤلبهم عليه ، فيدفعهم إلى كراهته وبغضه والتصرف معه بما لاينبغى أن يتصرف الابن مع أبيه.

من أجل هذا وذاك وحفاظا على الروابط الأسرية ، سمح الرسول ﷺ لهند زوج أبى سفيان أن تأخذ من مال زوجها سرا بقدر مايكفيها ويكفى أولادها. هذا السماح بالأخذ يحل مشكلة النزاع بين الأولاد وبين أبيهم ، ويقضى على النفرة بينهم، ويجعل الحياة تسير فى مجراها الطبيعى دون أن يشعر الأبناء أن شيئا ما ينقصهم ، فالأم تنفق من مال زوجها علي أولاده ، ولا إثم عليها أن تأخذ المال دون مشورته أو الإذن منه ؛ لأنها إن فعلت - وهو رجل شحيح - فلن تحصل منه على شئ، وتبقى مشكلة الإنفاق باقية دائمة ، والأسرة من زوجة وأولاد فى حاجة إلى المال لقضاء حوائجهم المادية ، وليس فى طبع زوجها أن يلبى حاجة الأسرة.

والاستفهام بقولها : {فهل علىّ جناح أن آخذ من ماله سرا} فهى تستفهم وتريد أن يقرها رسول الله ﷺ على الأخذ من مال زوجها دون أن يعلم ، فأقرها رسول الله ﷺ على ما تريد من الأخذ سرا ، والسر ضد الجهر والعلن . والتعبير بلفظة سرا له مغزى ، وهو أن الأخذ علنا سيؤدى يقينا إلى المنازعة والخروج منه بلا طائل ، فهي تعرف طباع زوجها حق المعرفة ، وتريد أن تحصل على حق الأولاد دونما لجاجة.

وقوله {وهل على جناح}جملة استفهامية إنشائية ، جاءت بعدها جملة خبرية وهى {قال خذى أنت وبنوك بالمعروف} دون حرف عطف ؛ لأن العطف بين الجملة الخبرية والإنشائية ممتنع ؛ لما بينهما من التضاد والمخالفة ، والعطف يفيد الاتفاق والمماثلة .

وفى قوله {قال خذى} أى ماذا قال ؟ قال خذى . فهذه الجملة التى وردت عن رسول الله ﷺ هى إجابة عن سؤالها ، ولذا جاءت أيضا دون عطف ، كما يجئ السؤال يتبعه الجواب دون فاصل من حروف العطف أو غيره.

وقوله {خذى أنت وبنوك مايكفيك بالمعروف} كان مقتضى المقام أن يقول : خذى مايكفيكم ، حتى لايظن أنها تطلب لأولادها دون أن تطلب لنفسها ، فكان فى ذكر الجملة التي وردت فى الحديث وضوحا وتأكيدا ليس فى قولها لو قالت : خذى مايكفيكم ، واقتصر عليها فى قوله خذى ما يكفيك أنت ؛ لأنها هى الكافلة لأمورهم، القائمة على حوائجهم .

وقوله {مايكفيك بالمعروف} أى أن النفقة مقدرة بالكفاية ، والكفاية هى القدر المطلوب دون زيادة ولا نقصان .

صلة الرحم

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :
{من سَرّه أن يُبسطَ له رزقُه أو يُنسأ له فى أثره فليصل رَحِمه} .

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

أى من أسعده أن يوسع الله له فى الرزق ، وأن يكون صحيحا فى بدنه ، معافى من الأمراض والآفات ، وأن يبارك له فى عمره ويوفقه لفعل الخير ، وأن تتحقق له الآمال ، فليصل رحمه.

ومن أفرحه أن يطيل الله فى عمره ويبقى أثر أفعاله الطيبة بعد مماته . من أفرحه هذا أو ذاك فليصل رحمه ولايهجره ولا يقطعه ، ففى الهجر والقطيعة معصية كبيرة تشهد لها الأحاديث الكثيرة التي وردت فى صلة الرحم.

والرحم أبعد من أن يكون محددا فى كل ذى رحم محرم ، بل هو يشمل الورثة، ويعم الأقرباء جميعا ، سواء أكانوا محارم أم غيرهم .

ووصل الرحم بأن تشرك ذوى القربى فى الخيرات التى تقدر على أدائها لهم، وقد تكون القدرة متمثلة فى المال أو الخدمات أو الزيارة أو حتى مجرد السلام. فللصلة درجات بعضها أرفع من بعض ، وأدناها ترك المهاجرة ، ووصلها بالكلام ولو بإلقاء السلام.

فلو وصل المسلم بعض الصلة ولم يصل إلى غايتها لايسمى قاطعا ، ولو امتنع أو قصر عما ينبغى أن يقوم به لايسمى واصلا . والرسول ﷺ يقول : {ابن آدم اتق ربك ، وبر والديك ، وصل رحمك يُمدّ لك فى عمرك ، وييسر لك يسَرك، ويجنب

عسرك ، ويكثر لك فى رزقك} . وعنه أيضا {لايزيد فى العمر إلا بر الوالدين ، ولا يزيد فى الرزق إلا صلة الرحم} . وعن داود بن عيسى قال : مكتوب فى التوراة : صلة الرحم وحسن الخلق ، وبر القرابة ، تعمّر الديار ، وتكثر الأموال ، وتزيد فى الآجال .

وبناء الفعل للمجهول : يُبسط له رزقه ويُنسأ له فى أثره ، للعلم بأن الباسط للرزق هو الله ، وأن الذى يطيل الأعمار ويمد الآجال هو الله ، ولذا بنى الفعل للمفعول حتي يكون التركيز على الفعل ؛ لأن الغرض يتعلق به ، وهو البسط فى الرزق ، وأطالة العمر والبركة فيه ، فى الحياة وبعد الممات . وينسأ معناها : يؤخر ويؤجل من النسئ ، والإنساء هو التأخير .

وقوله {فليصل رحمه} جاء الأمر للترغيب والحث على صلة الرحم ودوامها ، والتمسك بها وعدم قطعها ؛ فقطيعة الرحم شئ مذموم مرذول يبغضه الدين ويأباه الشرع.

يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : إنى رأيت البارحة عجبا ؛ رأيت رجلا من أمتى أتاه ملك الموت عليه السلام ليقبض روحه ، فجاءه بر والده ، فرد ملك الموت عنه وهو حديث حسن جدا .

الصدقة

عن حكيم بن حزام رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ قال :

« اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول ، وخير الصدقة عن ظهر غنىً ، ومن يستعفف يُعفَّه الله ، ومن يستغن يغنه الله »

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

ومعنى قول رسول الله ﷺ : إن اليد التى تنفق خير من اليد التى تسأل ... فاليد المعطية هى العليا ، واليد التي تسأل هى السفلى ، واليد المعطية خير من السائلة .

يقول الخطابى : وقد يتوهم كثير من الناس أن معنى العليا هو أن يد المعطى المستعلية فوق يد الآخذ ، فيجعلونه من علو الشىء إلى فوق .

قال : وليس ذلك عندى بالوجه السديد ، وإنما هو علو المقام ورفعة المكانة لعطائه وكرمه ، فاليد العالية وقت العطاء هى العالية فى باب الفضل والكرم فالأمر على التقريب والتمثيل حيث شبه المعطى والسائل فى العطاء والسؤال بيد تعلو على يد ، فأصبح الأمر واضحا حيث يعلو أحدهما وهو المتصدق ويسفل الآخر وهو السائل حين شبه بهاتين اليدين الحسيتين ، فلا مجال للشك فى كون أحدهما مستعلٍ والآخر مستعل عليه.

"وابدأ بمن تعول" فتقدم الأولى فالأولى والأقرب فالأقرب ، أى تبدأ بنفسك ، ثم بولدك ؛ لأنه بضعة منك فإذا ضيعته ولم تنفق عليه هلك ولم يجد من ينفق عليه، ثم بزوجكَ ؛ لأنه إذا لم يجد ما ينفق عليها فرق بينهما ، ثم الخادم ؛ لأنك إذا لم تنفق عليه ترك خدمتك إلى غيرك .

وخير الصدقة وأفضلها ، ما أخرجه المرء من مال بعد أن يستبقى منه قدر الكفاية لأهله وعياله ، فخير الصدقة عن ظهر غنى ، ويستظهر به النوائب التى تنوبه.

ومن يطلب العفة ويكف عن المال الحرام ، والسؤال من الناس ، يصيره الله عفيفا ، ومن يطلب الغنى من الله يعطه الله ويغنه عن الناس.

وفى قوله اليد العليا خير من اليد السفلى "نكر" خير لتفيد الشمول ، أى خير من السفلى فى كل شئ ، فى البر والكرم والقدر والثواب ونحو ذلك ، وفيها طباق بين العليا والسفلى ، لأن المرء إما معط أو آخذ ولا شئ بينهما.

« وابدأ بمن تعول » أى بمن تجب عليك نفقته ، وتقوم بما تحتاج إليه من القوت والكسوة وغيرهما ، والمراد بمن تعوله ، فحذف الضمير إيجازا واختصارا وهو مفهوم من السياق فلا حاجة لذكره.

والتعبير بقوله ، «وخير الصدقة عن ظهر غنى» حين ذكر لفظ ظهر ؛ لأن المرء عندما يكفى أولاده بماله ويُعتمد عليه ، فهم يعتمدون على ظهر يمنع ترديّهم إلى الفقر ، فهو يعطى عندما لا يكون فى حاجة إلى ما أعطاه .

وقدم العفة على الاستغناء فى الحديث ، لأن المرء عندما يعف وهو في حاجة إلى المال يكون قد بلغ من النزاهة مداها ، أما الاستغناء ، فالمرء يستغنى وهو ليس فى حاجة إلى المال فيزيده الله غنى .

الإنفاق على الأهل

عن أبى مسعود عن النبى ﷺ قال :

« إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها فهو له صدقة » رواه البخارى

★ ★ ★ ★

إذا أنفق الرجلُ نفقة صغيرة كانت أو كبيرة على أسرته ، على زوجه وأولاده يريد بها وجهَ الله فله أجران : أجر القرابة وأجرُ الصدقة.

وحذَف المفعولَ فى قوله : «إذا أنفق الرجل» ليفيد الشمول والعموم ، والقلة والكثرة ، أى إذا أنفق نفقةً مهما كانت صغيرة أو كبيرة فهي صدقة ، وفى ذلك حث على الإنفاق ولو كان ضئيلا بحسب الطاقة والقدرة .

وعبر بإذا فى قوله «إذا أنفق الرجل» لأنها تفيد على وجه اليقين والجزم الذى لا سبيل إلى الشك فيه ، أن الرجل إذا أنفق على أهله احتسبت له صدقةً عند الله ، والله يكافئه عليها.

ثم دخول «إذا» على الفعل الماضى « إذا أنفق الرجل» مع أن معناها يفيد الاستقبال ؛ لأن الماضى أقرب إلى القطع بوقوع الفعل ؛ بل إنه وقع وانتهى وإلا لما كان ماضيا ، وفى ذلك زيادة تأكيد وتحقيق بأن له أجرين.

وفى قوله : «إذا أنفق الرجل» أطلق النفقة وأراد بها الصدقة مجازا ؛ لأن الشرع يحث الرجال جميعا أن ينفقوا على زوجاتهم وإن علون فى نسبهن ومراتبهن . فشبه الصدقة بالنفقة ، باعتبار ما يترتب على كل منهما من الثواب والجزاء .

و«ال» فى «الرجل» هنا للعهد ، أى الرجل المعهود ، وهو الزوج سواء أكان ينجب وله أولاد ، أو لا ينجب وليس له نسل ، والتعبير «بعلى» التى تفيد الاستعلاء

فى قوله «أنفَق على أهله» حتى تكون للرجل اليدُ العليا والفضلُ الأكبر فى الأسرة ؛ لأنه راع لها ومسئول عنها ، فالاستعلاء هنا مجازى ؛ لأن الرجل يَستوجب عليه وهو ينفق على أسرته أن ينفق عن طواعية ومودة ، وليس عن استعلاء وترفع .

وعبر بالمضارع فى قوله «يحتسبها» ليفيد أنه عندما ينفق ، تتجدد منه هذه النظرة ، وهى احتسابُ الإنفاق عند الله ، وليس لغرض دنيوى آخر ، وأن الإنفاقَ على الأهل مآلُه الثوابُ النابعُ عن الصدقة التي هى الإنفاق.

وفى قوله «فهو له صدقة » حيث قدم له الجار والمجرور على الصدقة ؛ ليفيد شدة الاهتمام بمن تعود عليه الصدقة ، وأن ثوابها جزاءُ له حتى يواظبَ على الإنفاق دون أن يحيد عنه أبدا .

التفرقة بين الأبناء

عن النعمان بن بشير أن أباه أتى به إلى رسول الله ﷺ فقال :

إنى نحلتُ ابنى هذا غلاما، فقال : أكلّ ولدك نحلتَ مثله : قال لا ، قال : فارجعه». **رواه البخارى**

★ ★ ★ ★

يريد النبى ﷺ من الأب أن يؤلف بين قلوب الأخوة ، وألا يزرع بينهم البغضاء والحسد ، وأن يترك ما يوقع بينهم الخصومة والتشاحن ، ويورث العقوق للآباء ، ومن أجل ذلك يرى الرسول ﷺ أن أسلم الطرق وأقصرها وأوضحها أن يعامل الرجل أولاده على حد سواء دون تفرقة بينهم ، فيشعر الأبناء جميعا أنهم بمنزلة سواء عند أبيهم ، وأن معاملته للجميع واحدة ، وكما يحبّ الأب أن يّبره أولاده جميعا ، وليس بعضهم دون بعض ، فكذلك عليه أن يعدل بينهم فى العطية والمكافأة ، ولو كان ذلك فى أبسط الأمور وأقلها شأنا ؛ لأنها تترك فى النفس أثرا وموجدة على من ينال الحُظوة عند ابيهم دون الجميع . وشرعنا الحنيف حريص كل الحرص على التآخى بين القلوب والمودة بين الإخوة ، وألا تلعب الحُظوة دورا بينهم قد يؤدى إلى الجفوة.

والقصة أن بشير بن سعد الصحابى ، أعطى ابنه النعمان غلاما باعتباره هدية ، ولم يعط مثلها لابنته «أبيّة» فسأله رسول الله ﷺ على سبيل الاستخبار : إن كان أعطى مثلها لأولاده ، فقال «أكلّ ولدت نحلت» ؟ ولفظ الولد يشمل الذكور ، والإناث ، أما لفظ البنين فالذكور فيهم ظاهر ، وإن كان فيهم إناث فيكون على سبيل التغليب . قال الرجل : لا ، لم أعط . قال رسول الله ﷺ : فارجعه ، أى : ارجع ما نحلته لابنك ، وفى رواية : «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم» وقال : أيسرّك

أن يكونوا إليك فى البر كلهم سواء؟ قال : بلى ، قال : «فأشهد على هذا غيرى» والرسول ﷺ من شأنه أن يكون إماما يحكم بين الناس ، فأراد أن يتوقّى عن الشهادة لما فيها من جور ، وألا يتحمل الشهادة فيما ليس بمباح .

والأمر فى قوله «فارجعه» على الندب لا على الوجوب ، والنهى هنا على التنزيه ، بأن ينزه نفسه عن الوقوع فى الظلم ، وليس على فرضية الترك.

واحتجّ بهذا الحديث من أوجب التسوية فى عطية الأولاد . إلا أن بعض الفقهاء جوز التفاضل إن كان ثمة سبب وجيه يدعو إلى ذلك ، كاحتياج الولد لصغره أو مرضه ، ولم يقصد الإضرار ببقية الأبناء.

وبعض الفقهاء يجوز التفاضل بين الأولاد والزوجات على الإطلاق ؛ لأن هذا أمر قلبى لا اختيارى ، ولا يستطيع الرجل أن ينازع أموره القلبية أو يحيد عنها.

وفى قول بشير : «إنى نحلت ابنى هذا غلاما» فيه تأكيد للعطية ، وتحديد للولد باسم الاشارة مما يفيد حضوره معه لسماع شهادة الرسول له ، ونكر غلاما باعتبار أنه مجرد غلام من عموم غلمانه الذين يعولهم.

وسؤال رسول الله ﷺ «أكل ولدك نحلت مثله؟» فيه حرص شديد على التسوية بين الأبناء ، وأن يكونوا متماثلين فى العطية ، فالسؤال هنا على حقيقته ، وأجاب الرجل فى إيجاز واختصار : لا ، أى لم أنحلهم مثل ما نحلت لابنى ، وأمره ﷺ بقوله «فارجعه» ليس على سبيل الوجوب ؛ بل على سبيل الندب ، فهو مخير بين أن ينفذ عطيته أو يردها .

أجر الزراع

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

ما من مسلم يغرس غرسا ، أو يزرع زرعا ، فليأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلا كان له به صدقةٌ». رواه البخارى

★ ★ ★ ★

هذا الحديث النبوى الشريف يبين فضل الزراعة والغرس ، لعموم نفعهما على البشر والطير والحيوان ، فتناول البشر للثمر ، أو التقاط الطير للحب ، أو أكل الحيوان للحشائش كلها مما يخرج من الزراعة ، وسواء أكان الذى يخرج من بطن الأرض من الحشائش أو الحب أو الثمر فهو لملأ البطن أو سد الرمق وذهاب آلام الشظف والمسغبة.

فالزارع أو الغارس يسدى الخير للمخلوقات جميعا ، ويكافئه الله سبحانه بأن يزيد من حسناته وينقص من سيئاته . وما أخذ من غرس يديه بإذنه أو حتى بالسرقة دون إذن منه فهو له صدقة ، يقول رسول الله ﷺ :

«ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أكل منه صدقة ، وما سرق منه له صدقة ، وما أكل السبع فهو له صدقة ، وما أكلت الطير فهو له صدقة ...»

وكل ما يفيد المخلوقات سواء أكان بالزراعة أو الصناعة أو التجارة فهو فضل ينسب لصاحبه ، وقد سئل رسول الله ﷺ أى الكسب أطيب ؟ قال : «عمل الرجل بيده» والزراعة من ألصق الأمور التى تكتسب باليد حتى ولو رُويت الأرض بماء السماء ، فهى تفتقر إلى أشياء عديدة من الحاجة إلى يد الزارع ، فشق الأرض والاهتمام بشأنها حتى تنبت وتثمر ، لابد فيها من الحاجة إلى يد الزارع ، وكل ما تنبته يد الزارع ويأكل منه البشر أو الحيوان أو الطير ، فهو يأكل من كسب يده وله أجره وثوابه ، يقول رسول الله ﷺ : من نصب شجرة فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر ، كان له فى كل شىء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل.

وفى الحديث أيضا حصول الأجر للغارس والزارع وإن لم يقصدا ذلك حتى لو غرس وباعه ، أو زرع وباعه كان له بذلك صدقة ، وذلك لتوسعته على الناس فى أقواتهم ، ومادام الانتفاع به قائما مستمرا يؤجر عليه حتى يوم القيامة.

وفى الزراعة أيضا حث على عمارة الأرض وتهيئتها للنفع له ولذريته ولمن يأتى بعده.

وقوله : ما من مسلم يغرس غرسا ...

وقعت النكرة وهى لفظة «مسلم» فى سياق النفى «ما» فتفيد العموم حتى تشمل كل مسلم ، سواء أكان رجلا أو امرأة ، مالكا أو مستأجرا . وقوله بالتنكير «يغرس غرسا ويزرع زرعا فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ» كل ذلك جاء منكراً ، حتى يشمل كل أنواع الغرس وأنواع الزرع بمحاصيله المختلفة ، فإن لم يأكل منها البشر ، يلتقط منها الطير أو يلتهمها الحيوان ففائدته عامة لأى نوع من الطير وأى صنف من البهائم.

والنفى والاستثناء يفيد ان التخصيص فقوله « ما من مسلم يغرس إلا كان له به صدقة» أى ليس للغارس أو الزارع إلا الخير من وراء غرسه ، وليس ما دون ذلك من أجر وثواب فيضاف إلى أعماله أو ينقص من سيئاته.

والتقديم فى قوله «كان له به صدقة» حيث قدم (له) على الصدقة ليفيد أن الصدقة تكون له ، أى للزارع إذا زرع والغارس إذا غرس ، وليس لأحد آخر غيرهما ، وقدم (به) أيضا على الصدقة ، ليؤكد أن الصدقة التى تعود على الغرس مرهونة بغرسه لا بغرس غيره ، وبزرعه دون زرع غيره ، ففى تقديمهما معنى التخصيص.

والتنكير فى لفظة «صدقة» من قوله : إلا كان له به صدقة ليفيد تعظيم الصدقة وشرفها للزارع والغارس ، أى كانت له صدقة عظيمة وجليلة ينبغى للمرء أن يسعى إليها ويستحوذ عليها ، ولا يكون ذلك إلا بأن يعمل الرجل بكلتا يديه.

الحــــج

محو الذنوب

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« من حج هذا البيت فلم يرفُث ولم يَفْسُق رجع كيوم ولَدَتْه أمُّه »

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

وفى رواية من أتى هذا البيت ، أو من قصد هذا البيت ، والإتيان والقصد أعم لأنه يشمل الحج والعمرة أو مجرد الوصول إلى البيت العتيق .

وقوله هذا البيت باسم الإشارة يفيد أن الرسول ﷺ قال هذا الحديث وهو فى مكة ، لأن الإشارة هنا تفيد أنه يشير إلى شئ مرئىّ مشاهد ولن يكون ذلك إلا وهو فى مكة عليه السلام ، إلا إذا قصد من الإشارة تقريب البيت إلى نفسه وروحه وقلبه رغم بعد المسافة بين موضع الرسول فى المدينة ومكان البيت الحرام فى مكة.

واشترط فى الحج عدم مقارفة الفحش من ذكر للجماع أو ذكر النساء ، أو ما يطلب الرجل من المرأة ، فالرفث كلمة جامعة لكل هذه الرغبات التى يأثم مرتكبها وهو فى الحج.

كما اشترط عدم الفسوق وهو الخروج عن حدود الشريعة الإسلامية ، فيرتكب ما لا يرضى عنه الشرع من كذب وقول زور وبهتان وأذى إلى غير ذلك من سباب أو قذف ، والقرآن الكريم يقول : ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ (البقرة :١٩٧).

والحديث النبوى ذكر الرفث والفسوق وسكت عن الجدال ؛ لأن المجادلة ارتفعت بين العرب وقريش فى موضع الوقوف بعرفة والمزدلفة ، فأسلمت قريش وارتفعت المجادلة ووقف الكل بعرفة ، بعد أن كانت قريش تفيض من المزدلفة إلى المشعر الحرام ، بينما الناس يفيضون من عرفة إلى البيت الحرام فاشتد الجدل بين الفريقين . وهم الأمر بأن يفيض الناس جميعا بما فيهم قريش من عرفة ، فانعدم الجدال ولم يصبح له محل حتى يتجادلوا فيه .

وعطف الفسق على الرفث من عطف العام على الخاص ، فتدرج من الخصوص إلى العموم حتى يشمل جميع الموبقات والآثام.

وجواب الشرط « رجع كيوم ولدته أمه » أى صارت حالته كيوم ولدته أمه بعيدا عن الخطايا خالصا من الآثام ، لم يرتكب صغيرة أو كبيرة يحاسب عليها فمازال وليدا لم يخرج إلى معترك الحياة ولم يتدنس بآثامها ، فهو برئ من الذنوب على اختلاف ألوانها وأحجامها ، فوجه الشبه بين الذى يؤدى فريضة الحج دون رفث أو فسوق ، وبين المولود هو البراءة الكاملة من الذنوب صغيرها وكبيرها ، حقيرها وجليلها.

أجل إن الإنسان مأمور باجتناب كل ما ذكر من المعاصى ، ليس فى الحج وحده وإنما فى جميع الأوقات والأماكن ، إلا أن ارتكابها مع الحج أقبح وأسوأ ، كلبس الحرير فى الصلاة دون داع لارتدائه.

وهكذا يريد رسول الله ﷺ أن ينبه أمته بأن من يقيم شعيرة الحج عليه أن يتأدب بآداب الاسلام حتى تقبل حجته عند الله ، عليه أن يتوجه إلى الأرض المقدسة بقلب صاف ونفس خالصة من الشوائب ، ويترك رغباته وشهواته ، ويبتعد عما كان يفعله فى أيامه المعتادة من خوض فى سيرة النساء ودواعى الجماع ، فلا يعرض بشىء من هذا القبيل ، قولا أو فعلا ، كل هذه المعانى عبر عنها رسولنا الكريم بلفظة واحدة وهى « لم يرفث ».

وكذلك على الحاج أن يترك العصيان والخروج عن طريق الحق ، وإنما عليه أن يلتزم بأوامر الله فيؤديها ، ويبتعد عما نهى الله عنه فيتجنبها . وهذا ما عبر عنه

الرسول بقوله « ولم يفسق » وكان الرسول فى حديثه غاية في الإيجاز الذى يؤدى المعنى كاملا دون نقص ، تاما دون خلل.

وفى الحديث عطف الفسق على الرفث ونهى عن كل منهما فى الحج ؛ لأن الفسق يشمل كل ما نهى الله عنه ويدخل فيه الرفث فى الحج . ومن ثم كان العطف فيه فائدة النهى عن كل شىء معيب ، بعد النهى عن بعضه ، فكأنه نهى عن الرفث مرتين ، مرة على وجه الخصوص وأخرى على وجه العموم ، مما يزيده توكيدا بأن يبتعد كلية عن الرفث ودواعيه .

وقوله : « رجع كيوم ولدته أمه » تشبيه من التشبيهات النادرة الحلوة لما يتضمنه من أمر معنوى يرسخ فى النفس دون أن يمر على الحواس ، ألا ترى أن رجوع الحاج فى نظافته وطهارته ، وأنه صار صفحة بيضاء ليس عليها نقوش تلوثها، مما يزيد الحاج نقاء وصفاء .

الحجر الأسود

عن عمر رضي الله عنه أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله ، قال : إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت النبى ﷺ يقبّلك ما قبّلتك» .

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

على كل مسلم أن يتابع النبى ﷺ فى أعماله ، وهذا أمر ينبغى الوقوف عليه ، وإن لم يعرف سببا معقولا أو علة معلومة ، فإذا بلغه أن الرسول كان يفعل كذا ، أصبح حجة عليه ، وإن لم يفقه المعنى فى عمله ، ومن المعلوم أن تقبيل الحجر الأسود إكرام له وإعظام لحقّه ، وأن الله فضل بعض الأحجار على بعض ، كما فضل بعض البقاع على بعض ، وجعل الناس بعضهم فوق بعض درجات .

وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبى ﷺ : «أن هذا الركن الأسود هو يمين الله فى الأرض يصافح به عباده مصافحة الرجل أخاه ».

وأخبر النبى ﷺ أن الحجر الأسود من أحجار الجنة . ولذا كان الركن الذى فيه الحجر الأسود يجمع فيه بين التقبيل للحجر واستلام الركن ؛ لكونه على قواعد إبراهيم وفيه الحجر الأسود.

فتقبيل الحجر واستلام الركن فيه تعظيم لله سبحانه وتعالى ، ومن ثم يقبل بعض الناس المصاحف تعظيما لها ، وبعض الأحاديث تكريما لها ، وقبور الصالحين كلفا بها.

وروى الطبرانى عن عائشة : «استمتعوا من هذا الحجر الأسود قبل أن يرفع فإنه خرج من الجنة ، وأنه لا ينبغى لشىء خرج من الجنة ألا يرجع إليها قبل يوم القيامة.

فالحجر الأسود ليس كبقية الأحجار ، وإنما هو حجر من نوع خاص ، نزل من الجنة ولم ينبثق من جوف الأرض حتى يكون شأنه كغيره ، وعلى الرغم من أنه حجر من نوع خاص إلا أنه لا يتأتى منه النفع أو جلب الضر ، أى ليس فى وسعه شىء إلا بإذن الله ، ولذا صحت المطابقة بين الضر والنفع للوصول إلى هذا الغرض .

والتعبير بلولا وهى حرف امتناع لوجود ، أى امتنع نفى التقبيل ، وامتناع النفى بمنزلة الجواز والإثبات ، والمعنى أنى قبلت الحجر لأنى رأيت الرسول يقبله ، وبين يقبّلك وما قبّلتك طباق آخر متوقف على الرؤية البصرية التى لا يمكن إنكارها بحال من الأحوال ، وإذا كان الحجر الأسود من أحجار الجنة وأثراً من آثارها فتقبيله ارتياح إلى الجنة ونزوع إلى آثارها .

الطواف

عن هشام بن عروة قال عروة :

كان الناس يطوفون فى الجاهلية عراةً إلا الحُمسَ ، والحمسُ : قريش وما ولدت، وكانت الحمس يحتسبون على الناس ، يعطى الرجلُ الرجلَ الثياب يطوف فيها، وتعطى المرأةُ المرأة الثياب تطوف فيها ، فمن لم يعطه الحمسُ طاف بالبيت عرياناً، وكان يفيض جماعةُ الناس من عرفات ، ويفيض الحمسُ من جَمْع ، قال : وأخبرنى أبى عن عائشة رضى الله عنها أن هذه الآية نزلت فى الحمس ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ (البقرة :١٩٩) ، **قال كانوا يُفيضون من جْمع ، فدفعوا إلى عرفات .**

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

كان الناس يطوفون فى الجاهلية قبل الإسلام عراة إلا الحمس وهم قريش وأولادهم، ولكنهم كانوا يقدمون الثياب للحجيج ، يعطى الرجل ثوبا للرجل يطوف به ، وتعطى المرأة القرشية للمرأة ثيابا تطوف بها ، فإذا لم يكن هذا الإعطاء ميسورا لسبب من الأسباب طاف الرجل عريانا ، وتطوف المرأة عريانة.

وكان الناس يندفعون من عرفات إلى المشعر الحرام يذكرون الله . ولكن القريشيين كانوا يندفعون لا من عرفات ولكن من جمع أى من المزدلفة.

وسميت عرفات بهذا الاسم ؛ لأن آدم وحواء التقيا هناك وتعرف كل منهما على الآخر ، أو لأن بها جبالا ، والجبال هى الأعراف وكل عال فهو عرف.

وسميت المزدلفة بالمزدلفة ؛ لأن آدم ازدلف إلى حواء ، أى دنا منها ، ثم صار المكان يزدلف إليه الناس ، أى يتقربون فيه إلى الله بالوقوف عليها.

وهذه الآية الكريمة ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ .

أى من حيث أفاض إبراهيم عليه السلام ، فيكون مجازا عبر بالعموم وأراد الخصوص ، أو المعنى من حيث أفاض سائر الناس غير الحمس.

والمعنى : فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام . ثم اجعلوا الإفاضة التى تفيضونها من حيث أفاض الناس لا من حيث كنتم تفيضون من المزدلفة . أى أنه أمرهم أن يتوجهوا إلى عرفات ليقفوا بها ثم يفيضوا منها . هذا ليس حديثا عن الرسول ﷺ ، ولذا لم نتعرض لإظهار بلاغته .

الإفاضة

عن عائشة رضى الله عنها قالت : حججنا مع النبى ﷺ فأفضنا يوم النحر ، فحاضت صفية ، فأراد النبى منها ما يريد الرجل من أهله ، فقلت يا رسول : إنها حائض ، قال : أحابستنا هى ؟ قالوا يا رسول الله : أفاضت يوم النحر ، قال : اخرجوا. رواه البخارى

★ ★ ★ ★

حج رسول الله ﷺ مع بعض نسائه ، وبعد أن طاف الجميع طواف الإفاضة ، حاضت زوج الرسول ﷺ صفية بنت حُيى بن أخطب أم المؤمنين ، إلا أن رسول الله ﷺ قد أراد منها ما يريد الرجل من زوجه من المعاشرة ، فأخبرته السيدة عائشة أم المؤمنين أن صفية جاءها الحيض مما يتعذر معه أن يقضى الرجل حاجته مع امرأته ، وظن رسول الله أن صفية لم تطف طواف الزيارة ، فيضطر الركب أن ينتظر بمكة إلى أن تطهر فتطوف طواف الزيارة ، فلما قالوا : إنها أفاضت يوم النحر ، قال لهم : ارحلوا إلى المدينة ، ورخص لها فى ترك طواف الوداع ؛ لأنه ليس بواجب على القول المأثور عند العلماء .

فلا بأس بالإعلام إذا كان للرجل أكثر من زوجة أن يخبر الآخريات أنه سيبيت الليلة عند إحداهن ، وإنما المكروه أن يغشاها حيث يُسمع أو يُرى.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما « أن النبى أمر الناس أنْ يكون آخر عهدهم بالبيت الحرام ، إلا أنه قد خفف عن المرأة الحائض ».

فالسيدة صفية حاضت بعد أن أفاضت يوم النحر . وقول عائشة : أراد النبى منها ما يريد الرجل من أهله ، كناية عن الغشيان وإتيان الرجل زوجه والمراد بالأهل هنا الزوج ، وهذه اللفظة أفضل من لفظ الزوجة وأفصح منها .

وقول السيدة عائشة لرسول الله ﷺ «إنها حائض » قول فيه تأكيد ولذا عبرت بأداة التوكيد وهى « إن » « وحائض » اسم فاعل ، للدلالة على استمرار الحيض عند السيدة صفية ، وشدة اندفاعه مما يدل على أنه فى أول أوقاته.

وقول الرسول ﷺ : أحابستنا هى ؟ الهمزة للاستفهام الإنكارى ، وذلك لأن الحيض يمنع الحاج من طواف الزيارة ، فيضطر للبقاء مع أهله حتى تطهر ولا يستطيع الخروج من مكة قبل أن تؤدى الطواف . والرسول يريد أن يتوجه إلى مكة ، فلما علم أنها طافت طواف الإفاضة قبل نزول الحيض عليها قال : اخرجوا ، فلا حبس علينا حينئذ . الأمر بالخروج فى قوله : اخرجوا ، ليس على طريق الإلزام والقسر ، وإنما جاء على سبيل الإباحة والندب.

فالحاج ينبغى أن يؤدى مناسك الحج وهو طاهر نظيف النفس والبدن ، فإن أصابه شىء يخرجه عن الطهارة فعليه أن ينتظر حتى يطهر ثم يؤدى بقية المناسك، ويتقبل الله منه حجته يومئذ .

وصية الرسول ﷺ للمسليمن

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر فقال أيها الناس ، أى يوم هذا ؟ قالوا : يوم حرام ، قال فأى بلد هذا؟ قالوا بلد حرام ، قال : فأى شهر هذا ؟ قالوا : شهر حرام ، قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا ، فأعادها مرارا ثم رفع رأسه فقال : اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت - قال ابن عباس رضى الله عنهما : فوالذى نفسى بيده إنها لوصيته إلى أمته - فليبلغ الشاهد الغائب ، لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض. رواه البخارى

★ ★ ★ ★

هذه ليست خطبة بالمعنى المفهوم للخطب ؛ لأنه ليس فيها ما يدل على أمر من أمور الحج ، وإنما هى أسئلة وأجوبة ، فإطلاق لفظ الخطبة عليها ليس على حقيقته.

قال رسول الله ﷺ « أيها الناس » لمن كان معه فى ذلك الوقت وبلغهم أن يخبر الشاهد الغائب حتى يعرف الناس جميعا ما قاله الرسول فى هذا الموقف العظيم.

وما ورد فيه من أسئلة الرسول إنما ورد على سبيل التقرير ؛ لأنه أبلغ فى الحجة وأقوى فى البرهان ، لما يتضمنه من اعتراف بالجواب وعدم النكوص عنه بعد ذلك.

أىّ يوم هذا ؟ قالوا : يوم حرام ، يحرم فيه القتال ، فوصف اليوم بأنه حرام ليس وصفا على حقيقته ، وإنما هو مجاز ، لأنه حرمة القتال تقع فى ذلك اليوم . وكذلك القول فى بلد حرام ، وشهر حرام .

فدماء المسلم حرام على المسلم لا يسفكها ، وأموال المسلم حرام على المسلم فلا ينهبها ، وعرض المسلم حرام على المسلم لا يخدشه ولا يجرحه ، وكل ما يحميه الإنسان ويلزمه القيام به فهو عِرضه ، وأكد هذا القول مرتين : مرة بأداة التوكيد إن دماءكم ... ومرة بتكرار هذه الألفاظ ثلاث مرات . وطلب أمام الناس من ربه أنه أدى ما عليه من بلاغ وأنجز ما عليه من فرض ، وطلب من الشاهد أن يبلغ الغائب حتى تنتشر مقولته بين الناس فلا تثريب عليه إذن . ثم طلب من المؤمنين ألا يرجعوا بعد وفاته مثل الكفار يقتل بعضهم بعضا ويؤذى بعضهم بعضا ، فالإسلام دين السلام وليس دين الإرهاب ، ودين المحبة وليس دين الكراهية .

وفى قوله : (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا) قدم عليكم وأخر حرام ، لما فى التقديم من الاهتمام بأمرهم وأن ذلك فيه من الحرمة عليكم أكثر من غيركم ، وتأكيد ما حرم من الدماء والأموال والأعراض وفى قوله (كحرمة يومكم هذا) فيه تشبيه ، أى لا تكن أفعالكم شبيهة بأعمال الكفار فى ضرب رقاب المسلمين ، فتستحقوا القتل عندئذ.

وقوله عليه السلام : (لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض) فيه معنى العموم الذى يتضمن كل ما فيه ظلم المسلم ، فلا يظلم المسلم أخاه المسلم بسفك دمه ولا بهتك عرضه ولا باستباحة ماله ، وغير ذلك مما يدخل فى الظلم ويتجاوز الحق والعدل . فكأنه عبر بالعموم وأراد ما يدخل فيه من الخصوص.

وعلى المسلم أن يثبت على ما هو عليه من إيمان وتقوى ، فلا يظلم أحدا ولا يحارب مسلما ، ولا يأخذ أموال الناس بالباطل ، ولما فى اقتراف هذه الأفعال من ضلال ، وعدول عن الحق إلى الباطل.

حرمة المدينة المنورة

عن أنس رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال :

« المدينة حرم من كذا إلى كذا لا يُقطع شجرُها ، ولا يُحدث فيها حَدث ، من أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

كان رسول الله ﷺ رحيما بأمته ، بل على الأحياء جميعا ، على الشجر والحجر ، فالمدينة محرمة لا تنتهك حرمتها ما بين عَيْر إلى ثَور ، أو ما بين عير إلى أحد .

وَعَير : اسم جبل بالقرب من المدينة معروف . وثور : بحذاء أحد عن يساره وهو جبل صغير يعرفه من يعيش بتلك الأرض وما فيها من جبال ، أما من ينكره ويقول إن جبل ثور بمكة وليس ثمة جبل آخر بهذا الاسم فى المدينة ، فلعدم شهرته ولعدم البحث عنه.

وليس المراد هذين الجبلين بعينهما على وجه الخصوص ، وإنما المراد المسافة التى بينهما هى التى يحرم فيها قطع الشجر وصيد الحيوان ، ولا يحمل فيها السلاح لقتال . فالمدينة حمى للناس يأمنون فيها ، والحيوان حتى لا يفزع فيسير هادئا لا يشغله صائد ، ولا يخيفه مطارد .

فالرسول ﷺ نهى عن قطع الشجر ، حتى لا تصبح أرضا جرداء فتتوحش وتتفر منها النفس ، وإنما أراد أن يبقى شجرها حتى يستأنس بها من يؤمها ، ويستظل به من يقدم عليها . ولم يحدد الرسول من ينهاه عن قطع الشجرة حتى

يكون قطعها ممنوعا عند الجميع عند الشاب والطفل ، والرجل والمرأة ، والفتّى والمسنّ ، ممنوعا لدى كل شخص ، ولذا بنى الفعل لغير الفاعل ، أى بناه للمجهول .

ولا يُحدث فيها حدث ، أى لا يعمل فيها عمل مخالف للكتاب والسنة ، بأن يأوى فى أحد أركانها مذنبا أو قاتلا أو هاربا ، أو يتستر على مجرم أو مطالب بدية أو مطلوب للعدالة ، وغير ذلك مما يدخل فى مثل هذه الأمور.

ومن أحدث حدثا ليس بمعتاد ولا معروف فى السنة ، يتوعده الرسول بالوعيد الشديد والعذاب المهين الذى يستحقه على ذنبه ، وعليه لعنة الله فيطرد من الجنة، فاللعن هو الطرد ، ويلعن من الملائكة فلا تحفّه بالرحمة ، ويلعن من الناس أجمعين لأنه خرج عما ألفوه واقترف مالم يحبوه.

وهكذا تنفى المدينة شرار الناس عن ورود حياضها كما ينفى الكير - وهو الزقّ الذى ينفخ فيه - خَبث الحديد ، ولا ينفى جيده ، فلا يرغب عن جوار المدينة إلا من لا خير فيه ، ولا يبقى فيها إلا من يتضوع بطيبها وشذى رائحتها.

الجهـــاد

الجنة تحت ظلال السيوف

عن موسى بن عقبة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قام فى الناس خطيبا فقال :

« أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف

ثم قال : اللهم منزل الكتاب ، ومجرىَ السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم ». رواه البخارى

★ ★ ★ ★

نهى رسول الله ﷺ عن تمنى لقاء العدو ؛ لما فيه من الإعجاب بالنفس ، والثقة بالقوة مما يغريهم بقلة الاهتمام بالعدو ، وعدم الاحتياط والحزم ، ثم أمرهم أن يسألوا الله العافية من الفتن .

فإذا كان لابد من ملاقاة العدو فعليهم بالصبر ، فإذا استشهدوا فالجنة مثواهم ، ودعا الرسول على الأعداء بالهزيمة ، كما دعا للمسلمين بالنصر .

نادى الرسول ﷺ المسلمين بنداء محذوف الأداة « أيها الناس » والأداة المحذوفة (يا) التى تستعمل لنداء البعيد ، والمسلمون مجتمعون حول الرسول يستمعون إلى خطبته ، فاستعملها فى نداء القريب ليشير إلى أهمية ما يأتى بعدها، حتى يتمكن الكلام فى نفوسهم ويتفهموه حق الفَهم ، وفى ذلك النداء إغراءٌ لهم بالتمسك بأقوال الرسول ﷺ .

كما نهاهم عن تمنى لقاءِ العدو (لا تتمنوا لقاء العدو) فالنهى هنا استعمل بغرض الزجر عن لقاء الأعداء لما فى ذلك من سفك الدماء ، وضياع الأموال ، وتمزيق الأوصال ، وعموم الخراب .

وعليهم أن يسألوا الله العافية من الفتن ، وفى ذلك حث للمسلمين وتحريض لهم على سؤال الله أن يجنبهم ويلاتِ القتال ، ويجعلهم فى منأى عن شرور الحرب وآثامها.

إلا أن الرسول ﷺ يرغب المسلمين فى القتال إذا حزب الأمر ، وصار اللقاء أمرا لا مفر منه فقال (واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) ؛ بل يرغبهم فى الاستشهاد فى سبيل الله ويؤكده بأداة التوكيد (أن) الجنة فى لقاء العدو ، والموت فى رفعة شأن المسلمين ، ودعا لهم بالنصر ، وللأعداء بالهزيمة فقال : « اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم ».

وانظر إلى فصاحة رسول الله ﷺ حين يقول « اللهم منزل الكتاب ، ومجرىَ السحاب ، وهازمَ الأحزاب حيث سلاسةُ التعبير ، واستواء الألفاظ ، واتفاق الأسجاع، فكل كلمة فى نهاية كل جملة ختمت بالباء وقبلها ألفٌ ساكنة ، مما يزيد الكلام حسنا وقبولا فى النفس ، إذ لا أثر فيه للتكلف ، وإنما هى ألفاظ تنساب انسياب الماء فى الجدول ، وكل فِقرة مكونة من كلمتين تتطابق مع غيرها من الفقرات فى سجع مرصع تتهادى موسيقاه فى لحن جذاب ، يأخذ بالأسماع فيصلُ إلى القلب مباشرة .

وهذا التعبير الحلُو (الجنة تحت ظلال السيوف) حيث جعل للسيوف ظلالا كظلال الأشجار ، يتفيؤها الشهيد بعد أن أجهدته حرارة القتال ، فاعتصم بالجنة وما فيها من راحة ومتعة وظلال.

وأضاف الظلال للسيوف ؛ لأن الجهاد بالسيف يؤدى إلى الاستشهاد ومآلُه الجنة ، وهى الظل الظليل ، فكان التعبير بالظلال غاية فى الدقة والاستواء.

وفى الخطبة حسن الابتداء حيث بدأها بالنداء ليشعر المؤمنين بعلو منزلتهم، ورفعة شأنهم ، وأنهم أحبُ عند الله من أعدائهم المشركين .

ثم انتقل إلى الغرض من الخطبة ؛ وهو توضيح ثوابِ المجاهد فى سبيل الله، والاستشهادُ من أجل رفعة الإسلام.

وفى الختام دعا للمسلمين بالنصر على الأعداء فكان أحسنَ ختام ، بحيث لم يبق للمسلمين المستمعين تشوقٌ لسماع شىء آخر .

أجر المجاهد

عن أبى هريرة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« مثل المجاهد فى سبيل الله - والله أعلم بمن يجاهد فى سبيله - كمثل الصائم القائم ، وتوكل اللهُ للمجاهد فى سبيله بأنه يتوفاه أن يدخلَه الجنةَ أو يَرجعه سالما مع أجر أو غنيمة ». رواه البخارى

★ ★ ★ ★

أراد رسول الله ﷺ أن يبين منزلة المجاهد فى سبيل الله وعظم أجره عند الله سبحانه ، فشبهه بالصائم نهاره القائم ليله ، الخاشع الراكع الساجد ، المداوم على صلاته ، فالذى يجاهد فى سبيل الله بماله ونفسه شأنه شأن المؤمن الكامل ، فإذا استشهد فى الجهاد فمآله الجنة بغير حساب ولا عذاب ، وإن عاد من القتال سالما لا يعود إلا بأجر وغنيمة ، وأجره كفارة عن جميع خطاياه ، وغنيمة من الأسلاب والأنفال . وسواء عاد بغنيمة أو عاد خاويا منها ، فأجره محقق دائم ، وثوابه جزيل عند الله .

فقول الرسول ﷺ - والله أعلم بمن يجاهد فى سبيله - جملة معترضة بين المشبه والمشبه به ، بين مثل المجاهد فى سبيل الله وبين كمثل الصائم القائم وجاءت هذه الجملة المعترضة لتفيد أن الله أعلم بعقد نيته إن كانت خالصة لإعلاء كلمته ، فذلك هو المجاهد فى سبيل الله ، وإن كان فى نيته حب المال والدنيا واكتساب الذكر بها أشرك سبيل الدنيا مع سبيل الله .

والحظ هنا أنه شبه ركن الجهاد فى سبيل الله بركنين من أركان الإسلام مجتمعين هما : الصيام والصلاة ، فكأن الجهاد يعدلهما معا ، مما يؤكد على المنزلة القصوى للجهاد عند الله إذا كان خالصا لوجهه . والذى يشترك بين الجهاد

والصوم ، أن الصائم ممسك لنفسه عن الطعام والشراب والملذات ، وكذلك المجاهد رصد نفسه على محاربة العدو ، وحسبها على من يقاتله ، والمصلى يتوجه بكليته إلى الله دون غيره من المخلوقات ، فهو حين يصلى يكون خالصا بوجهه لله سبحانه .

ومعنى « توكل اللهُ للمجاهد » أى ضمن له الجنة أو الأجر والغنيمة ، ولفظ توكل أو تكفل أو ضمن كلها تفيد تحقيق الوعد على وجه الفضل منه.

وعبر رسول الله ﷺ بلفظ توكل أو ما فى معناه من التعهد والتكفل والضمان بما جرت به العادة بين الناس ، حتى تطمئن به النفوس وتركن إليه القلوب ، بأن من يتوفى وهو يجاهد فى سبيل الله دخل الجنة ، وإن عاد من المعركة ظفر بالأجر والغنيمة معا أو بالأجر دون الغنيمة .

"وأنْ" فى قوله « بأن يتوفاه الله أن يدخله الجنة » مصدرية والتقدير ضمن الله بتوفيه دخول الجنة ، وهنا حذف وتقدير آخر جاء للإيجاز ، والمعنى : أو يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب ، أو أن يدخل الجنة من فوره ساعة موته.

و « أو » تكررت مرة فى قوله « يدخله الجنة أو يرجعه » لتفيد أن الله قد اختار له أحد الأمرين إما الشهادة فيدخل الجنة ، أو الرجوع إلى داره سالما.

ومرة فى قوله « سالما مع أجر أو غنيمة » فهى بمعني الواو الجامعة ، والتقدير « أن يرجعه بأجر وغنيمة » فهو أبداً يرجع بالأجر سواء أكان ثمة غنيمة أو لم تكن . أما أن يعود بالغنيمة دون الأجر فهو محال ؛ لأنه لا يرجع أصلا بدون الأجر ، وهو ما ينتظره من الثواب الحسن جزاء على جهاده . أما الغنيمة المادية فقد يعود بها أو يعود دونها . إلا إذا كانت الغنيمة معنوية فهى تدخل فى الأجر والثواب.

ضرورة العمل

عن المقدام رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال :

« ما أكل أحد طعاما قطُ خيرًا من ان يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده ». رواه البخارى

★ ★ ★ ★

العمل شرف وأمانة والبطالة ذل ومهانة ، فإذا استشرت البطالة فى مجتمع من المجتمعات ، وتسكع الناس فى الطرقات دون عمل ، عمَّ التذمر وسادت الفوضى وانمحت القيم ، فالحصول على المادة التي يتعيش بها المرء وأسرته عامل هام فى انتظام المجتمع ، وأن يسود الهدوء فيه . ومن ثم حث الإسلام كل فرد قادر أن يعمل بجد وأمانة ، حتى لو كان العمل بشد حزمة حطب على ظهره يبيعها فى الأسواق ، أو ينقلها بأجر من مكان إلى مكان ، فيحتطب الرجل ليكسب بعمل يده ؛ بل حث الإسلام على العمل بما هو أقل من الاحتطاب ، بأن يأخذ الرجل حبله ويعمل به كأداة للعمل وشد الحطب على الظهر . يقول رسول الله ﷺ : لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحُزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكفّ بها الله وجهه ، خير له أن يأتى رجلا فيسأله أعطاه أو منعه فخير الكسب ما جاء من يد العامل ، حتى يشعر بأنه فرد منتج من أفراد المجتمع وليس عالة عليه ، فالذى يعمل ينفع نفسه وينفع غيره ، ويعود كسبه عليه وعلى أسرته وعلى مجتمعه . أما البطالة فهى تؤدى إلى كسر النفس وذل السؤال .

وقد يرفض الشاب العمل ؛ لأنه لا يتفق مع مكانته الاجتماعية فى الأسرة أو أن العمل ليس فيه من الوجاهة التى ينبغى أن يبقى عليها ، أو أن العمل الذى عرض عليه أجره ضئيل ، أو نحو ذلك من الأسباب التى يتكئ عليها الشاب فى رفضه ما يعرض عليه من أعمال .

وأكثر من ذلك يظل الشاب خاملا ينام حتى الضحى فى بيته منتظرا أن توفر له الدولة العمل ، دون أن يجدّ فى السعى إليه والبحث عنه ، كل ذلك وارد ونراه بأعيننا فى مجتمعنا الإسلامى ، دون أن يتأسى الشباب بالمسلمين فى عصر الإسلام ، فرسول الله ﷺ كان يعمل فى مهنة أهله ، فإذا أقيمت الصلاة خرج إليها ، ولم يكن الرسول فى حاجة إلى العمل ليكتسب من عمل يده ؛ لأنه إذا أراد أن يكون أكثر مالا من كسرى وقيصر لتحقق له ذلك ، ولكنه يرسى مبادئ ويقيم دولة ، ولا يتوافر ذلك إلا بالعمل مهما كانت ضآلته.

والنبى داود عليه السلام كان خليفة فى الأرض بنص القرآن : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ ﴾ (ص:٢٦) ولم يكن فى حاجة إلى المال وكان يعمل الدروع من الحديد ، مصداقا لقوله تعالى ﴿ وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر فى السرد ﴾ (سبأ:١٢١) أى كان يصنع الدروع ولا يدق المسمار فيها إلا بقدر ، ويبيعها ويأكل منها هو وأهله وقومه ، فكان داود يعمل بيده ويأكل من عمل يديه ؛ لأنه قصد الأكل من الطريق الأفضل ، وقال أبو الزاهرية : كان داود عليه السلام يعمل القِفاف ويأكل منها .

وقوله إن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده ، علة لما ذكر قبله أى ما أكل أحد طعاما قطُّ خيرا من أن يأكل من عمل يده ؛ لأن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده فأخر العلة ؛ لأن ذكر الشىء مع العلة والسبب ، يكون أوقع فى النفس وأكثر إقناعا للمرء.

وقوله "يأكل من عمل يده" بالإفراد ولم يقل بالتثنية (من عمل يديه) لأن اجتماع اليدين وتآلفهما ومعاونة إحداهما للأخرى ، بحيث يصيران كشىء واحد ، فتصبح اليدان بمنزلة يد واحدة ؛ لشدة تماسكهما وتآخيهما فى العمل . وقوله "يأكل من عمل يده" الأكل لا يكون من العمل ، وإنما يكون من ثمرة العمل وكسبه ، ولكن العمل هو سبب الأكل ، فنسب الأكل إلى العمل مجازا . والله أعلم.

صفـات المؤمـن



الرحمـــة

عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال :

« أرسلت ابنة النبى ﷺ إليه : أن ابنا لى قُبض فأتنا ؟ فأرسل يُقرىء السلام ويقول : إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكلٌ عنده بأجل مسمى ، فلتصبر ولتحتسب ، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينّها ، فقام ومعه سعد بن عبادة ، ومعاذُ بن جبل ، وأبىّ بن كعب ، وزيدُ بن ثابت ، ورجال ، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبى ونفسه تَتَقعقْعَ ، قال حسبته انه قال :

كأنها شنّ ، ففاضت عيناه ، فقال سعد : يا رسول الله ما هذا ؟ فقال: هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء ». **رواه البخارى**

★ ★ ★ ★

أرسلت زينب بنت رسول الله أن ابنها على بن أبى العاص بن الربيع أوشك أن يقبض ودنت منه الوفاة ، تطلب من أبيها الحضور حتى يشهد الوفاة ويكون قريبا منها حتى يخفف عنها مصيبتها ، أو تحل بركته على ابنها فيشفى وتمتد به الحياة بإذن الله . فأرسل إليها يقول : « إن لله ما أخذ وله ما أعطى » فله الخلق كله ، وبيده الأمر كله ، وكل شىء عنده بأجل معلوم ومقدر ، فما يأخذه الله هو الذى كان قد أعطاه ، فإن أخذ ابنها فقد أخذ ما أعطى فلا ينبغى أن تجزع ؛ لأن مستودع الأمانة لا ينبغى أن يجزع إذا استعيدت منه . فألحت على أبيها بالحضور وأقسمت أن يأتى فقام ومعه جمع من الصحابة ، فلما حضر إليها رفع الصبى إلى النبى ، وكانت نفس الصبى مضطربة كلما صارت إلى حال لم تلبث أن تصير إلى حال أخرى تقرب من الموت ، وأصبح بدنه كسقاء من جلد بالٍ تضطرب فيه الروح كما تضطرب الحصاة

فى السقاء . عندئذ فاضت عينا الرسول ﷺ بالدموع ، فتعجب الناس من بكاء الرسول ، وسألوه عن سر بكائه فقال : إنها رحمة الله فى قلوب عباده.

« إن ابنا لى قُبض فأتنا » لم يقبض ولكن قرب من أن يقبض ، بما سوف يكون ، وإنما قالت قبض على سبيل المجاز الذى يوشى بما وقع فى قلبها من جزع واضطراب ، وقولها فأتنا . الأمر هنا على سبيل الاستعطاف وليس أمرا حقيقيا ، فزينب بنت الرسول فى موقف صعب تستعطف فيه أباها الرحيم أن يقف بجوارها.

« إن لله ما أخذ وله ما أعطى » قدم الجار والمجرور ليفيد أن كل شىء بيده لا بيد غيره فكل الأخذ والإعطاء له ومنه ، وحذف المفعول للدلالة على العموم ، أى أخذ الولد كما أعطاه وأخذ غيره كما أعطاه ، وكل شىء مقدر وله وقت معلوم ينفذ فيه قضاؤه.

« فلتصبر ولتحتسب » أى ويحسن لها أن تصبر ابتغاء طلب الثواب ، فالأمر هنا للحث على الصبر والاحتساب قربة لله سبحانه.

« فرفع إلى رسول الله الصبى » الفاء هنا تسمى فاء الفصيحة ، إذ إن الحذف كثير قبلها فأفصحت عنه والتقدير ، فذهبوا إلى أن انتهوا إلى بيتها فاستأذنوا فأُذن لهم فدخلوا فرفع إليه الصبى « ونفسه تتقعقع كأنها شن » أى تضطرب كأنها وعاء من جلد بال ، وتتردد فى جسده الروح كما تتردد الحصاة فى الوعاة فتحدث صوت القعقعة والشنشنة . والتشبيه هنا مرتبط بما فى البيئة من ارتباط وثيق .

فقال سعد : ما هذا ؟ سؤال يدل على التعجب ، إذ كيف تفيض عين الرسول بالدمع وهو القوى الذى لا يتأثر بالمصيبة . فالعين لا تفيض وإنما الدموع هى التى تفيض ، فعبر بذلك على سبيل المجاز .

فقال : هذه رحمة. عبر بالإشارة «هذه» كأن الرحمة شىء حاضر محسوس ، فنزل هذا الشىء المعنوى منزلة الشىء الحسى وأشار إليه كأنه ملموس أمامه وتستطيع أن تلمسه بأصابعك .

والتنكير فى « رحمة » يفيد تعظيمها ، أى هى رحمة عظيمة غرسها الله فى قلوب عباده ، وأضاف العباد إليه تشريفا لهم .

وعيون الرسول حين تفيض بالدمع حزنا على وفاة الصغير الحفيد ، كان ذلك من آثار الرحمة التى أودعها الله في قلب رسوله .

« وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » استعمل الرسول ﷺ أداة القصر إنما وهى أداة تدخل على الشىء المعلوم ، أو ما ينبغى أن يكون معلوما فمن يَرحم يُرحم ، وحصر الرحمة فيهم لأنهم رحماء يبثون رحمتهم على الناس والكائنات فاستحقوا الرحمة دون غيرهم من ذوى الأكباد القاسية.

وكانت هذه سنة يجب أن تتبع ، وهى أن يُأمر صاحب المصيبة بالصبر قبل وقوع الموت ، وأن يستحضر ذوو الفضل عند المحتضر رجاء دعائهم وبركتهم.

الدين النصيحة

يقول النبى ﷺ : « الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ».

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

النصيحة لله يرجع معناها إلي الإيمان به ونفى الشرك عنه ، ووصفه بصفات الجلال والكمال ، وتنزيهه عن النقائص ، والقيام بطاعته واجتناب معصيته .

والنصيحة لرسوله : تتمثل تصديق رسالته والإيمان بجميع ما جاء به ، والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه .

والنصيحة للأئمة : معاونتهم على الحق ، والصلاةُ خلفَهم ، والجهاد معهم ، وأداء الصدقة إليهم .

ونصيحة العامة : إرشادُهم لمصالحهم فى دنياهم وآخرتهم ، وكفُّ الأذى عنهم ، وإعانتُهم على البر والتقوى .

ومعنى الحديث : أن جوهر الدين وعماده ومعظَم أركانه يتمثل فى النصيحة ، كما تقول : الحج عرفة ، أى معظم أركان الحج الوقوف بعرفة .

وأصل النصيحة مأخوذ من نصَح الرجل ثوبه ، إذا خاطه بالمِنْصَح ، وهى : الإبرة ، أى يلُم شعث أخيه بالنصح كما تلُمّ المنْصَحَةُ الثوبَ الممزق ، كأن الذنب يمزق الدين والتوبةَ تخيطه ، ومنه التوبةُ النصوح .

والنصح نقيض الغشّ ، وفى النصيحة بذلُ المودة والاجتهادُ فى المشورة فقول الرسول ﷺ « الدين النصيحة » تشبيه ، حيث شبه تخليص القول من الغش والتمويه، بتخليص العسل مما عَلق به من أخلاط وشوائب ، وهو من التشبيهات

البليغة ؛ لأن الدين هو النصيحة نفسُها ، وليس شيئا آخر شبيها بها على سبيل المبالغة .

وهذا التركيب أى « الدين النصيحة » يفيد التخصيص ، أى أن الدين وما يتعلق به من أمور الشرع التى تنظم حياة الفرد والمجتمع تكون فى النصيحة وليس فى غيرها ، باعتبار أن النصيحة من أهم الأمور الدينية إن لم تكن أهمَّها على الإطلاق.

« والدين النصيحة » كلمة جامعة من وجيز الألفاظ ومختصر الكلام ، وليس فى كلام العرب كلمةٌ مفردة تستوفى المعنى المراد ، كما تستوفى هذه العبارةُ معناها من خير الدنيا والآخرة .

وفى قوله « الدين النصيحة لله » أثبت اللام فى لفظ الجلالة (لله) لأن العرب تثبتها فتقول نصحته ونصحت له ، والثانى أفصح ، والرسول أفصحُ العرب قاطبة.

وذُكرت اللام فى قوله لله ولرسوله ولأئمة المسلمين ، بينما تركت فى قوله «وعامتهم » .

لأن العامة كالأتباع للأئمة يسيرون على منوالهم ، ولا استقلال لهم ، وإعادة اللام تنفى عنهم هذه الصفة اللاصقة بهم ، وتعطيهم ما ليس فى صفاتهم وهكذا نرى ألفاظ الرسول ﷺ تتّسم بالدقة فى الاختيار ، والعمق فى دلالتها على المعانى، فما أوجز هذا الحديث فى ألفاظه واحتوائِه على الكثير من المعانى .

الورع

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« اشترى رجل من رجل عقارا له ، فوجد الرجل الذى اشترى العقار فى عقاره جرةً فيها ذهبٌ ، فقال له الذى اشترى العقار ، خذ ذهبك منى ، إنما اشتريت منك الأرض ولم ابتعْ منك الذهب . وقال الذى له الأرض ، إنما بعتك الأرض وما فيها ، فتحاكما إلى الرجل ، فقال الذى تحاكما إليه ألكما ولد ؟ قال أحدهما لى غلام ، وقال الآخر لى جارية ، قال : انكحوا الغلام الجارية ، وانفقوا على أنفسهما منه وتصدقا ». رواه البخارى

★ ★ ★ ★

هذا الحديث الشريف فيه كثير من الورع والبعد عن الشبهات ، والتحرج من أخذ الشىء دون وجه حق ، والتجافى عن مظنة الاستيلاء على مال الغير وادعاء أنه من ممتلكاته الخاصة . فالرجل الذى ابتاع الأرض ووجد فيها الذهب ، تحرج أن يأخذه لأنه اشترى الأرض دون الذهب . والبائع أيضا تحرج أن يأخذ الذهب ؛ لأنه باع الأرض وما فيها . وبرئت نفس كل من البائع والمشترى أن يأخذ شيئا لا حق له فيه .

فما أروع طهارة قلب كل منهما ، وحفاظه على حق الآخر ، وزعمه أنه لا حق له فيه .

فالرجل اشترى العقار وما يتصل به ، والعقار أرض أو منزل أو ضيعة ، فوجد فى أرضه جرّة من فخار فيها ذهب ، فعاد إلى البائع يرد إليه ذهبه ، زاعما أنه اشترى الأرض ولم يشتر الذهب ، ومعنى لم ابتع منك الذهب ، أى لم أشتر منك الذهب.

وقال الآخر إنما بعتك الأرض وما فى باطنها وما فوق ظهرها ، فالذهب ذهبك ، وليس لى فيه شىء ، فحكّما رجلا ليفصل فى هذه القضية ، فسأل الرجل إن كان لكل منها ولد .

ويلاحظ اختلاف العبارة (انكحوا) بالجمع (وتصدقا) بالتثنية ؛ لأن عقد النكاح لابد فيه من شاهدين فيكونان مع الرجلين أربعة وهو جمع . وأما التثنية فى الصدقة فهذا أمر يخصهما دون غيرهما.

يقول القرطبى : هذا الرجل الذى تحاكما إليه لم يصدر منه حكم على أحد منهما ، وإنما أصلح بينهما لما ظهر ورعهما وحسن حالهما ، ولما ارتجى من طيب نسلهما وصلاح ذريتهما . فوفّق بينهما بهذه الكيفية ، ونعم ما وفّق به.

التيسير والتبشير

عن أنس رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال :

« يسّروا ولا تعسّروا وبشّروا ولا تنفّروا ». رواه البخارى

★ ★ ★ ★

هذا الحديث من جوامع الكلم لاشتماله على خيرى الدنيا والآخرة ؛ لأن الدنيا دار أعمال ، والآخرة دار جزاء ، فأمر الرسول فيما يتعلق بالدنيا بالتسهيل والتبشير، وفيما يتعلق بالآخرة بالوعد بالخير ، والإخبار بالسرور ؛ تحقيقا لكونه رحمة للعالمين فى الدارين.

والتبشير من البشارة وهى الإخبار بالخير لا بالشر ، والتفاؤل بالسرور ، وليس التشاؤم بما يجلب الأحزان والهموم .

فقول الرسول ﷺ يسروا ، أمر بالتيسير والحث عليه مراعاة لقضاء مصالح الناس والابتعاد عن تأخيرها ، والأمر بالشىء نهى عن ضده ، فكان فى التيسير نهى عن التعسير ، وإذا كان الأمر كذلك ، فما فائدة قوله : ولا تعسروا ؟

أجل إن التيسير يتضمن معنى النهى عن التعسير ، ولكنه صرح بالنهى عن التعسير فقال « ولا تعسروا » تأكيدا لما تضمنه التيسير ، ومن جهة أخرى : لو اقتصر على ذكر التيسير دون النهى عن التعسير لصدق الحديث على كل من يسّر مرة وعسّر فى معظم الأحيان ، فإذا قال : « ولا تعسروا » انتفى التعسير فى جميع الأحوال ومن كل الوجوه.

ومثل ذلك يقال : فى قوله : « بشروا ولا تنفروا » لا يقال : كان ينبغى أن يكتفى بقوله « ولا تعسروا ، ولا تنفروا » دون أن يرد ذكر للتيسير أو التبشير ؛ لأنه

لا يلزم من عدم التعسير ثبوت التيسير ، ولا من نفى التنفير تحقيق التبشير ، فجمع بين ثبوت الشىء ونفى ضده حتى تثبت هذه المعانى وتتأكد ، وهذا يقتضى التكرار وترديد الألفاظ ، وليس الاختصار وقلة الألفاظ .

وفى الحديث إيجاز بالحذف ؛ لأن المعنى يسروا أمور الناس ولا تعسروها فتتحقق آمالهم ولا يخيب رجاؤهم .

وبشروا المؤمنين بفضل الله وثوابه وجزيل عطائه وسعة رحمته ، ولا تنفروا الخلق بذكر أنواع التخويف وألوان الوعيد ، فيتوجسون خيفة ، ويعتريهم القلق واليأس من النجاة .

وبين يسروا وبشروا جناس لفظى ، فالكلمتان متشابهتان فى اللفظ عدا التنقيط وهذا يزيد الكلام البليغ حسنا وطلاوة .

وقوله « بشروا ولا تنفروا » كان حقه أن يقول « ولا تنذروا » بدلا من قوله ولا تنفروا ؛ لأن الإنذار نقيض التبشير وليس التنفير ، ولكن لما كان المقصود من الإنذار التنفير صرح بما هو المقصود منه.

والحديث فيه توكيد على التيسير والتبشير ، وتكرار ذلك مرة بنفسه ومرة بالنهى عن ضده .

خير الناس

عن أبى هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال :

« تجدون الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا، وتجدون خير الناس فى هذا الشأن أشدهم له كراهية ، وتجدون شر الناس ذا الوجهين ، الذى يأتى هؤلاء بوجه ويأتى هؤلاء بوجه ».

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

مس رسول الله ﷺ فى هذا الحديث أمورا تتعلق بشئون الناس وأحوالهم وبيان ما فيهم من مزايا وما يعتريهم من نقص .

فالناس يختلفون كما تختلف المعادن : فمنها الجوهر الثمين ، والخزف الرخيص . ومنها النفيس ومنها الخسيس ، والناس منهم الشريف ومنهم الوضيع.

ومن كان شريفا فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شرفا ، فإن تفقه فى الدين وصل إلى غاية الشرف ، فإذا كانت للمرء مأثرة فى الجاهلية وفقه فى الدين ، فقد أحرز مآثره القديمة.

والأمر الثانى الذى تناوله الحديث : « تجدون خير الناس فى هذا الشأن أشدهم له كراهية » ، أى أن بعض الناس يكره الخلافة ، ويبغض الإمارة ، وينأى عن الولاية ، فإذا وقع فيها وهو كاره لها ، عليه أن يقوم بأمورها ويجتهد فى القيام بمسئولياتها ، ويتولاها كما يتولاها الراغب لها ، الباحث عنها . وبعض الناس يكره المنصب ولا يسعى إليه ، فإذا جاءه لا يتركه ولا يهمل فى أداء واجبه ، وإنما يعمل

فيه كما لو كان باحثا عنه راغبا فيه ، فهو يعمل دون ملل أو تقصير ، كما لو كان مغرما بحب المنصب هائما به.

أما الأمر الثالث وهو ذو الوجهين المنافق الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه فهو شر الناس وأسوؤهم مكانة وأقلهم احتراما بين الناس ، فهو متذبذب متحير بين الإيمان والكفر ، فلا هو مع المؤمنين فى الظاهر والباطن ، ولا مع الكفار ظاهرا وباطنا ؛ بل ظاهره مع المؤمنين وباطنه مع الكافرين ، فتارة يميل مع هؤلاء ، وتارة يميل مع أولئك . كالشاة المترددة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة لا تدرى أيهما تتبع .

فتشبيه الناس بالمعادن تشبيه مؤكد جميل ، تتناقله الناس حتى صار يطلق فى هذه الأيام عند المقارنة بين الأشخاص بعضهم إزاء بعض.

الشفاعة

عن الزهرى قال : أخبرنى عروة بن الزبير أن امرأة سرقت فى عهد رسول الله ﷺ فى غزوة الفتح ، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه . قال عروة : فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله ﷺ فقال : أتكلمنى فى حد من حدود الله ؟.

قال أسامة : استغفر لى يا رسول الله ، فلما كان العشىّ قام رسول الله ﷺ خطيبا فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال :

« أما بعد ، فإنما أهلك الناسَ قبلكم ، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريفُ تركوه وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحد ، والذى نفس محمد بيده ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها». رواه البخارى

★ ★ ★ ★

هذه الخطبة عباراتها قوية ، ونبرتها عنيفة ، فيها نصح وإرشاد ، وتوضيح لحدود الله ، وضرورةُ إقامتِها على الشريف والضعيفِ حتى لا يتعداها الناس ، فهم عن الله سواسيةٌ كأسنان المُشط.

وهذه الخطبة فيها من اللّطائف البلاغية ما فيها :

فيها التخصيص بأداة القصر وهى « إنما » إذ هى بمنزلة ما وإلا ، أى بمنزلة النفى والاستثناء ، فهى تنفى كل شىء وتثبتُ شيئا واحدا ، تنفى هنا إقامة الحد على أشراف الناس وأعيانهم ، وكل من حاز النسب الرفيع والمكانة السامية ، أما البسطاءُ والفقراء ، فقد كانوا يقيمون عليهم الحد ؛ إذ ليس لهم قبيلةٌ قوية تحميهم أو تدافع عنهم .

وقد أقسم رسول الله بربه الذى فى قبضته الحياةُ والموت إنه يقيم الحد ولن يتهاون فى شأنه . ولو كان السارق فاطمة بنت محمد أعز الناس إليه وأقربهم إلى قلبه . لم يخف رسولُ الله ﷺ اسم ابنته ، وإنما عرفها وشخصها فى ذهن السامع باسمها الخاص ونسبتها إليه « فقال : فاطمةَ بنت محمد » كى لا يلتبس الأمر فى ذهن أحد فيظن أن المراد واحدةٌ أخرى غيرُ بنت رسول الله .

وفى قوله عليه السلام « لو أن فاطمة بنتَ محمد سرقت لقطعتُ يدها » جاء الأسلوب على صورة الامتناع فعبر بلو . وهو في حقيقة الأمر يراد به التمنى ، فكون فاطمة بنت محمد تسرق شيئا ، بعيد الحصول قصى المنال ، ويكاد أن يكون مستحيلا ، فأبرزه فى صورة الممتنع ، واستخدم لو التى تدل على الامتناع فأظهر الشىء البعيد الحصول وإن كان ممكنا فى صورة الممتنع الذى لا يقع أصلا .

وفي قوله ﷺ « أقاموا عليه الحد » كنايةٌ عن قطع اليد ، وهو الحد الذى شرعه الله لجريمة السرقة ، حيث يُقطع العضو الذى ارتكب الجريمة . وهذا واضح فى قوله عليه السلام « لقطعت يدها ».

والحظُ هنا الطباق الخفى بين الشريف والضعيف ، فالشريف قوى بنسبه ونفوذه ، ومن ثم تكون المقابلة بينهما واردة ، حيث هى مقابلة بين القوى والضعيف فتشمل الكل على السواء.

وأيضا الطباق بين « تركوه » أى لم يقيموا عليه الحد وبين قوله « أقاموا عليه الحد » لأن عدم إقامة الحد يستلزم تركَه .

وهكذا نرى فى هذه الخطبة الموجزة كثيرا من المعانى واللطائف البلاغية .

الحلال والحرام

عنْ النعمان بن بشير : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشبّهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل مَلِك حمي ، ألا إن حمى الله فى أرضه محارمُه ، ألا وإن فى الجسد مضغةً إذا صلُحت صلح الجسد كلّه ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » . رواه البخارى

★ ★ ★ ★

الحلال ظاهر بلا شبهة ، والحرام واضح بلا شك وبينهما أمور يكتنفها دليلان : أحدهما دليل على الحِلّ ، والآخر دليل على الحرمة ، وعلى المرء عندئذ أن يستهدى قلبه لا رغبته .

فالأشياء ثلاثة أقسام : حلال واضح لا يَخفى حلُّه ، كأكل الخبز ، والكلام الطيب ، والمشى فى الطرقات ونحو ذلك .

وحرام بيّن كشرب الخمر ، والدم ، وممارسة الزنا ، والمشى بالنميمة ، وما أشبه ذلك .

ومشبهات ليست بواضحة الحل أو الحرمة ، ولهذا لا يعرفها كثير من الناس ، وليس كلُّ الناس ، ولا يدرون أمن الحلال هى أم من الحرام ، هذه المشبهات تستوجب على المرء أن يشيح بوجهه عنها . والرسول ﷺ يقول : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » فمن اتقى هذه المشبهات فقد استبرأ لدينه من النقص وعرضه من الطعن .

وقدم الدين باعتبار تعلقه بالشرع ، وأخر العرض لتعلقه بالناس ومروءتهم .. أما من قدم العرض على الدين ؛ فلأنه يقتضى مزيدا من الاهتمام لشدة تعلق الناس به .

(ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى) شبه المكلفَ بالراعى ، والنفسَ التى تميل إلى الإثم بالأنعام ، والمشبهات بما يحيط بالحمى ، والمحارمَ بالحمى ، أى شبه معني بمعنى ، شبه حال من يدخل فى الشبهات بحال الراعى الذى يرعى حول المكان المحظور فلا يأمن الوقوع فيه ، وبالتالى لا يأمن العقاب لأنه لم يحترز فى ذلك ، فالراعى إذا جره رعيه حول الحمى إلى وقوعه فى الحمى استحق العقاب ، فكذلك من أكثر من الشبهات وقع فى الحرام فاستحق العقاب .

وحمى الله هو المعاصى فمن ارتكب شيئا منها استحق العقوبة .

وتنكير مضغة فى قوله (ألا إن فى الجسد مضغةً) للتقليل ، فالقلب قطعة صغيرة إذا قورنت ببقية الجسم ، ولكن صلاح الجسم وفساده تابعان له ويتوقفان عليه .

أو أن التنكير فى (مضغة) للتعظيم ، أى قطعةٌ عظيمة لها كل السلْطةِ على الجسد كله ، وأعضاءُ الجسم كُلها تابعةٌ له كالرعية التى تتبع السلطان.

ولفظة (كل) فى قوله الرسول ﷺ (إذا صلحت صلح الجسد كله) تفيد العموم والتأكيد بأن الجسم بجميع أجزائه ، وليس جزءا منه ، أو عُضْوا فيه لا يتوجه إليه الصلاح أو الفساد إلا بصلاحه وفساده . فعماد الصلاح أو الفساد هو القلب ، ولذا نبه بأداة التنبيه (ألا) وخصص بأل وأدخلها على لفظه القلب فى قوله : (ألا وهى القلب) ، أى أن المختص بالصلاح والفساد هو القلب وحده ولا شىء سواه . وصدق رسول الله ﷺ .

المسلم والنخلة

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم فحدثونى: ماهى؟ فوقع الناس في شجر البوادى ، قال عبدالله : وقع فى نفسى أنها النخلة ، فاستحييت ، ثم قالوا : حدثنا ماهى يارسول الله ؟ قال هى النخلة ». رواه البخارى

★ ★ ★ ★

وصف رسولُ الله ﷺ المؤمن بصفات النخلة ، فالمؤمنُ خيرٌ كلُّه ؛ لكثرة طاعته ومكارم أخلاقه ، ومواظبته على صلاته وصيامه ودفع الصدقة ونحو ذلك .

والنخلة حسنة الصفات ، كثيرة الخيرات ، دائمةُ الظل ، طيبةُ الثمر ، جليلةُ الفوائد .

ومن ثم صلح تشبيه المؤمن بهذه النخلة ؛ لاشتراكهما فى كثير من الصفات المذكورة.

عبر الرسول ﷺ بالجملة الاسمية : « إن من الشجر شجرة » وأكدها بإن ؛ لأن المخاطبين كانوا مستشرفين إستشراف الطالب المتردد فى معرفة هذه الشجرة، ما اسمها ؟ وما نوعها ؟ ولم يقطعوا فى ذلك برأى ، ولذا حسن مجئ الكلام مؤكداً بإن .

ونكر كلمة شجرة فى قوله « إن من الشجر شجرة » لتعظيم أمرها ، فمِن حين يَطلُع ثمرُها لايزال الناس يأكلون منه حتى ييبَس ، فإذا يبس اتخذوا من خشبها وورقها وأغصانها منافعَ كثيرة ، فيستعملون منها الجذوعَ والعصيَّ والحصرَ والحبالَ ونحو ذلك ، ومِن نواها أيضا يُتخذ العلف للمواشى .

وضربُ المثل يبرزُ ما خفى من المعنى ، ويكشف ما استتر منْ حقيقته ، والأمثال ترينا الشىءَ المتخيل فى صورة الشىءِ المحقَق ، والمتوهم فى معرِض المتيقن، والغائبَ كأنه مشاهد .

وقول الرسول ﷺ « إنها مثل المسلم » إشارة إلى إن حالَ المسلمِ العجيبَ الشأن كحال النخلة ، أو صفةَ المسلم الغريبةِ كصفة النخلة ، فالمسلمُ مشبه فى خيره وطيب عمله ودوامه عليه ، بالنخلة فى خيرها وثمرها وما ينتفع به منها.

والأمر فى قول الصحابة « حدثنا ماهى يا رسولَ الله » ليس أمرا على حقيقته ؟ لأن حقيقة الأمر فيها علو وارتفاع ، وليس الأمر هنا كذلك ، وإنما جاء الأمر مرادا به مجردَ الاستفسار وحسْنَ الطلب.

يقول المفسرون إن المراد بالشجرة الطيبة فى قول الله تعالى :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (إبراهيم:٢٤)

المراد بها النخلة ، فرأسها عالٍ فى عنان السماء ، وجذورها ممتدة فى باطن الأرض .

العمل الصالح



العمل

عن أبى هريرة ﵁ عن رسول الله ﷺ قال :

« والذى نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتى رجلا فيسأله أعطاه أو منعه ». رواه البخارى

★ ★ ★ ★

أقسم رسول الله بذات الله العلى العظيم أن خير العمل ما يكون من كسب يد الرجل ، ولو لم يكن لديه شىء سوى الحبل يشده على ظهره ويجمع الحطب لكان ذلك خيرا له من سؤال الناس ، فإن أعطوه ففى عطائهم مِنّة عليه وذل فى السؤال ، وإن منعوه ففيه ذل وخيبة سعى وهوان يجرح مشاعر النفس الإنسانية ، والإسلام حريص كل الحرص على حفظ كرامة الإنسان من الهوان والمذلة ، فيكون شامخا برأيه ، لا يشعر بضعف ولا صغار .

ولذا نرى الإسلام يحصر المسألة فى أوجه محددة قليلة لا يصح للمرء أن يتجاوزها ، وهذه الأوجه كلها ضرورة لا اختيار للمرء فيها . لذى فقر مدقع ، أو لذى غرم مُفْظع ، أو لذى دم موجع.

فالفقير يريد أن يدفع عن نفسه وأسرته غائلة الجوع ، فما من سبيل إلى ذلك سوى السؤال من الناس الذى تعافه نفس الكرام .

والمدين الذى لا يجد ما يؤدى به دينه ، ولم يجد أحدا من أقاربه يدفع عنه دينه ، فيضطر أن يطوف بالناس حتى يجد منهم العون والمساعدة.

وكذلك الذى ركبه دم وعليه دية قتل ، فهو فى حاجة إلى أموال طائلة تقصر عنها يده المغلولة ، ولم يجد أحدا من قبيلته يحمل عنه دية القتيل .

وفى غير ذلك يقول رسول الله ﷺ « من سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسألته فى وجهه خُدوش ... » أى لا تجوز المسألة فى غير هذه الأمور الثلاثة . «فمن سأل الناس وهو عن ظهر غنى ، فصداع فى الرأس وداء فى البطن » كما قال رسول الله ﷺ .

وصدر الحديث مبدوء بالقسم ليبين أهمية ما يقول ؛ لأنه يتعلق بكرامة المسلم وتحريضه على العمل وأن يكون كسبُه من يده وليس بالسؤال ، وأكد مقولته ﷺ باللام فى قوله (لأن يأخذ أحدكم حبله) فأتفه الأشياء مثل الحبل قد يكون وسيلة لصيانة ماء الوجه ودفع مذلة السؤال ، هذا العمل هو خير له ، فحذْف الضمير «هو » إيجاز للكلام ، وفى قوله " من أن يأتى رجلا" على التنكير وليست له بهذا الرجل علاقة ما ، فربما أعطاه وربما منعه ، وفى كلا الوجهين تحقير من شأن السائل الذى ينبغى أن يتصف العفة وعدم السؤال ، فالسائل فى كل الوجوه أُعطى أو مُنع ، وليس ثمة شىء سوى ذلك محتقر فى كل الأحوال.

استصلاح الأرض

قام رسول الله ﷺ يخطب فى الناس قائلا :

« من كانت له أرض فليزرعها ، فإن لم يزرعها فليمنحها أخاه ، فإن لم يمنحها أخاه فليمسكها ». **رواه البخارى**

★ ★ ★ ★

فى هذه الخطبة القصيرة ، يوصى النبى ﷺ أمته بزراعة الأرض لمن يملكها، فهو أحق بها وباستصلاحها ، فإن لم يستطع لسبب من الأسباب أن يزرعها ، فعليه أن يمنحها لأخيه المسلم حتى يقوم باستصلاحها بدلا منه ، فإن لم يعطها له فليمسكها لنفسه.

هذه الخطبة تجرى على نسق واحد بألفاظ مستوية المقادير والأوزان ، متفقة فى الخواتم والإعجاز ، تتسم بالحلاوة والنغم الدافئ الذى يتدفق من خلال اللفظ والمعنى .

كما اشتملت على صحة التقسيم بين أجزائها ، فليس للأرض إلا زراعتها ، أو منحها لمن يستطيع أن يقوم بزارعتها ، فإن لم يستطع أن يفعل هذا أو ذاك فعليه أن يمسكها تكريما له ، وحفاظا على ممتلكاته الشخصية .

وذلك لأن استصلاح الأرض وفلاحتها واستنباتها للزرع والثمر يعم بالخير على الوطن كله ، وفى تركها دون عمل تتحول إلى أرض بورلانفع فيها ، وقد تعود بالضرر على الناس جميعا ، وقد يؤدى إهمال زراعتها إلى المسغبة والجوع.

وقد اشتملت الخطبة على ثلاثة أفعال بمعنى الأمر ، ولكل فعل قصد مختلف عن الآخر .

من كانت له أرض (فليزرعها) ، هذا الفعل لم يقصد به الأمر بمعناه الحقيقى، وإنما أراد به النصح والإرشاد ، أى ينصح الأمة بزراعة أرضها.

والفعل الثانى (فليمنحها أخاه) أى أباح له أن يمنح الأرض لأخيه ، ليس على سبيل القسر أو الجبر ، وإنما على سبيل الإباحة والرضا.

والفعل الثالث (فليمسكها) وفى ذلك تكريم لصاحبها ولملكيته لها.

وكل جملة تترتب على ما قبلها ، وترتبط بأختها ارتباطا صحيحا لا تنفك عنه.

وانظر إلى ما فى الخطبة من تشابه الأطراف حيث تبدأ الجملة الثانية بما ختمت به الجملة الأولى ، وتنتهى الجملة الثانية بما بدئت به الجملة الثالثة ، فأطراف الجمل متآخية متماثلة يأخذ بعضها برقاب بعض .

من كانت له أرض فليزرعها ، فإن لم يزرعها فليمنحها أخاه ، فإن لم يمنحها أخاه فليمسكها .

كما نلاحظ إثبات الفعل ونفيه ، فليزرعها ، فإن لم يزرعها ، فليمنحها فإن لم يمنحها . وإثبات الفعل وضده يعطى الكلام شمولا ، وإجابة عن طرح سؤال قبل أن يسأل ، وفى ذلك معرفة لرغبة المخاطب وإدراك لسريرة نفسه ، وهذا يتطلب البراعة فى فهم النفس البشرية وما يدور بداخلها.

وليس أقدر على ذلك من رسول الله ﷺ . وهكذا تبدأ الخطبة كما تنتهى على أحسن ما يكون الابتداء والانتهاء .

الرأفة بالحيوان

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش فنزل بئرا فشرب منها ثم خرج ، فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا مثلُ الذى بَلَغ بى ، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رَقِىَ فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له ، قالوا : يارسول الله : وإن لنا فى البهائم أجرا : قال فى كل كبدٍ رَطبةٍ أجر ».

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

هذا الحديث النبوى الشريف يحث المسلم على الرأفة بالحيوان ، وله فى ذلك أجر عظيم وثواب كبير عند الله ، وإذا كانت الرأفة بالحيوان فيها هذا الأجر ، فسقى بنى آدم أعظم أجرا ، وأوفى ثوابا ، وأن سقى الماء للحيوان اللاهث أو الرجل الظامئ من أعظم القربات ، يغفر الله بها الذنوب ويجزل بها الحسنات . فالمسلم ينبغى أن تكون معاملته رقيقة مع كل الناس وخاصة الحيوان الأعجم الذى لا يستطيع أن يتكلم ، فلا نشعر إزاءه بما يحتاج . فلا ننهره ولانؤذيه ، وقد عذبت امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت جوعا فدخلت فيها النار.

ويروى الحديث الذي معنا أن رجلا كان يمشى بطريق مكة فبلغ به العطش مبلغا كبيرا فنزل بئرا ليشرب ويروى ظمأه ، فلما ارتوى وخرج من البئر ، فأجاه كلب يخرج لسانه من شدة العطش وحرارة الجو ، ويمّص التراب لعله يجد من مصّه له قطرة ماء ، فرأى أن الكلب قد جهد من العطش بالقدر الذى جهد به منذ لحظات ، فنزل الرجل البئر مرة ثانية وملأخفّه بالماء ، وسقى الكلب حتى ارتوى ، فشكر الله له وغفر ذنبه وأثنى عليه ثناء عطرا وتقبل عمله ، وأثابه عليه.

وقد سئل رسول الله ﷺ : إن لنا فى سقى البهائم والإحسان إليها أجرا؟ قال رسول الله ﷺ : فى كل حىّ أجر حاصل وصواب دائم.

وفى قوله : « بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش » الفاء هنا بمعنى إذا ، وفى الكلام حذف تقديره : بينما رجل يمشى إذا اشتد عليه العطش . ونكر «رجل» لأن المغزى والعبرة لاتتوقف عند رجل معين ، بل عند رجل أى رجل لايفيد معه التعيين أو التحديد، ثم وصف الرجل بأنه يمشى وهو فى حال من العطش شديدة ، فنزل بئرا فشرب منها. فالعطف جاء بالفاء ليفيد أن هذه الأمور تلاحقت وتدافعت بعضها وراء بعض دون مهلة بين فعل وآخر ، فاشتد عليه العطش فنزل بئرا فشرب منها ، ثم خرج ، وكان خروجه بعد فترة ، أى بعد أن ارتوى وأزال ظمأه ، ولم يبق له حاجة فى الماء أو المكث داخل البئر ، ولذا عبر بثم التى تفيد التراخى بين الفعل الذى بعدها والفعل الذى قبلها.

وحين خرج من البئر كانت تنتظره مفاجأة أخرى ، تتمثل فى كلب وصفه بأنه يلهث ويخرج لسانه من شدة العطش ، ووصفه مرة ثانية بأنه يأكل الثرى ، أى مصّه ليستقطر منه الماء . وجاءت الجملتان يلهث ، يأكل الثرى دون أن يكون بينهما عاطف ؛ لأن الجملة الثانية بيان وتفصيل للأولى ، والأولى سبب فى الثانية ، فتلاصقت الجملتان فجاءت الثانية بعد الأولى دون واو العطف.

وقوله : « لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى » أى بلغ مبلغا من شدة العطش مثل الذى بلغ بى .

وفيه تشبيه حال الكلب من العطش بحال الرجل وهو يسير فى الفلاة متقلبا فى حرارة الجو ، فهو تشبيه أمر معنوى وهو شدة عطش الكلب بأمر معنوى آخر وهو شدة عطش الرجل .

«فملأ خفه » أى نزل في البئر فملأ خفه ، فالفاء هنا أفصحت عن فعل محذوف . « ثم أمسكه بفيه » أى بفمه ؛ لأنه كان يعالج بيديه ليصعد من البئر مما يدل على أن الصعود من البئر لم يكن سهلا ، ثم صعد فسقى الكلب ، أى بمجرد

صعوده من البئر سقى الكلب حتي يرد عطشه ، وهذا تدل عليه الفاء فى قوله : فسقى الكلب.

« فشكر الله له فغفر له » أى بسبب قبول عمله غفر الله له ، أو أن غفران الله له هو نفس الشكر ، فيكون الغفران تفسيرا للشكر ، وشكر الله عبارة عن مغفرته له.

قالت الصحابة إن لنا فى البهائم أجرا ؟ فى الكلام حذف تقديره إن لنا فى سقيها أجرا ؟ والحذف هنا جاء للإيجاز . قال رسول الله ﷺ فى كل كبد رطبة أجر ، كناية عن أن الأجر يستوفى فى كل نفس وكل حياة ، وهو أجر حاصل ، ولكن فى كل بهيمة لاضرر فيها ، أما الخنزير والسبع وغير ذلك مما فيه ضرر وأذى ، فلا يحصل الثواب بسقيه أو إطعامه ، حتى لا يتقوى ويزداد ضرره .

الأوامر والنواهى

عن البَراء رضي الله عنه قال : أمرنا النبى ﷺ بسبع ونهانا عن سبع :

« أمرنا باتباع الجنائز ، وعيادة المريض ، وإجابة الداعى ، ونصر المظلوم وإبرام القسم ، ورد السلام ، وتشميت العاطس.

ونهانا عن آنية الفضة وخاتم الذهب والحرير والديباج والقَسىّ والاستبرق ». رواه البخارى

★ ★ ★ ★

أمر الرسول ﷺ أمته بسبعة أشياء ، فعل كل منها يثاب عليه المؤمن ، ونهى عن سبعة أشياء اقتراف أيّة واحدة منها تزيد فى سيئات فاعلها.

أمرنا : **أولا :** بإتباع الجنازة بأن نسير خلف نعش الميت ونمضى معه إلى مكان الدفن.

وثانيا : أن نعود المريض ونسأل عن أحواله ، فهذه الزيارة تخفف من آلامه ووحدته ، وتشعره أن الناس مازالوا يذكرونه وهو عزيز عليهم وغالٍ لديهم. وبدأ بالميت وأتبعه بالمريض ، فربما أدى مرضه إلى الموت.

وثالثا : إجابة دعوة الداعى للطعام ، فذلك يرفع من قدر الداعى ، واستجابتك لدعوته فيها توقير له ، وخاصة إذا كان الداعى رجلا مستورا لاميسورا، فذلك يكون أوقع عنده . وأحب لنفسه من كل ما عداه .

ورابعا : نصرة المظلوم ، وإعادة الحق إليه ، فلا يظلم سوى الضعيف ، وإذا وقف الرجل بجوار الضعيف وأعاد إليه حقه ، كان ذلك بلسما لجراحه ، واعتقاده أن

فى الدنيا خيرا حين ينتصر له القوى العادل ، وينتزع له الحق من أنياب المتجبر الظالم .

وخامسا : أن يبر بقسمه إذا حلف ولا يحنث فيه ، لأن فى الحنث خروجا عن دواعى الصدق ، فقد كذب على الله وعلى الناس ، فيوصف بالكذب فى كل أموره ، وتضيع هيبته بين الناس .

وسادسا : رد السلام ، لأن فى ذلك مشاركة للناس وتفاعلا معهم ، وهذا ما يزيد أواصر المحبة بين الناس ، فإفشاء السلام يوطئ الأكناف ويلين القلوب ويطمئن النفوس.

والسابع والأخير : تشميت العاطس ، بقولك يرحمك الله ، فهو دعاء ، وكل داع لأحد بخير فهو مشمّت .

والأمر في هذه الأشياء السبعة يفيد الترغيب فى فعلها وعدم النكوص عنها وليس على سبيل الوجوب .

وبعد أن فرغ الراوى من ذكر ما أمر به الرسول ، شرع فى ذكر مانهى عنه ، والنهي هنا على سبيل التحريم وليس على سبيل الكراهة.

آنية الفضة ، أى أحدها آنية الفضة ، وخاتم الذهب ؛ لما فى هذين الشيئين من إظهار الثراء العريض ، الذى يدل على الفخامة والأبهة ، وهذا يثير مكامن الفقراء والمستورين ؛ لبعد الشقة بين الغنى المرفه وبين الفقير الكادح ، وهذا يؤلب النفوس ويزيد الأضغان .

وكذلك نهى الرسول ﷺ عن لبس الحرير للرِّجال ، والحرير يتناول الثلاثة التى بعده من ديباج وهو نوع من الحرير ، متخذ من الإِبْرَيْسَم ، والقَسىّ وهو ثياب من كتان مخلوط بالحرير ، والاستبرق وهو ماغلظ من الحرير ، فعطف هذه الأشياء الثلاثة على الحرير اهتماما بشأنها ، فذكرها بصفة خاصة بعد أن ذكرها على العموم حين نهى عن الحرير .

أو لما كانت هذه الأشياء الثلاثة لها أسماء أخر غير الحرير ، ربما يظن بعض الناس أنها شيء آخر غير الحرير ، فنص على ذكرها تأكيدا لها ، فقد ذكرت مرتين مرة على الإجمال وأخرى على التفصيل .

ويروى أن رسول الله ﷺ أخذ حريرا فجعله فى يمينه وأخذ ذهبا فجعله فى شماله ، ثم قال : « إن هذين حرام على ذكور أمتى ».

فالرسول ﷺ يدرك المشاعر الإنسانية ومايرضيها ومايخفف عنها ، فالرجل مهما كان قنوعا راضيا فهو يطلب الثراء ، فإن لم يتوافر ذلك ، ووجده فى يد الآخرين تناوشته غزيرة الحسد ، وشعر بتفوق الآخرين عليه ، فلا يهدأ له بال ولا يغمض له جفن حتى تزول النعمة عن الآخرين وتنتقل إليه .

الحسد الحميد

عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « لاحسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها ». رواه البخارى

★ ★ ★ ★

هناك فرق بين الحسد والغبطة.

فالحسد : أن يرى الإنسان لأخيه نعمة فيتمنى أن تكون له وتُسلب عن أخيه ، وهو مذموم ، وعلى المرء ألا يتصف به.

والغبطة : أن يرى الإنسانُ النعمة لأخيه ، فيتمنى أن تكون له مثلُها دون أن تزول عنه ، وهو محمود ، ولابأس أن يتصف الإنسان بهذه الصفة.

والحسد مأخوذ من الحسود وهو القُراد - والقُراد حشرة معروفة عند العامة، والحسد ينفذ إلى القلب ويسيطر عليه كما ينفذ القراد إلى الجلد ويُمسكُ به فيمص الدم.

وعلى الرغم من ذم الحسد إلا أن الشرع قد رخص للإنسان أن يكون حسودا فى خصلتين اثنتين ذكرهما رسول الله ﷺ فى هذا الحديث حيث قال لاحسد إلا فى اثنتين :

وليس المراد هنا حقيقة الحسد ؛ لأن الحسدَ مذموم قطعا ، ولكنه مجاز عن الغبطة المحمودة التى ينبغى الحرصُ عليها والرغبة فيها ، فكنّى بالحسد عن الغبطة ؛ لأن المسلم لا يتمنى أن يَسلبَ اللهُ من أخيه هذه النعمة ، نعمةَ إنفاق المال فى وجوه الخير ، ونعمة نشر تعاليم القرآن بين الناس والقضاءِ بها . وقد تمنى ذلك الصالحون والأخيار . فلا إباحة فى شىء من الحسد إلا فيما كان هذا سبيلَه .

ونكّر مالا فى قوله « رجل آتاه الله مالا » ؛ لأن المراد هو النوعية ، أىُّ نوع ، سواء أكان من ذهب أو فضة أو دراهم أو دنانير ، مادام يُنفق فى الحق ، وينطبق أيضا على أى قدر من المال ضئيلا كان أو عظيما ، قليلا كان أو كثيرا .

وفى التعبير يقول « فسلطه الله على هلكته » مبالغةٌ شديدة جاءت من معنى التسلط الذى يدل على الغلبة وقهر النفس التى جبُلت على الشح . ومبالغةُ أخرى جاءت من لفظ « هلكته » فإنه يدل على أنه لايبقى منه شىء .

وفى قوله : سلطه على هلكته فى الحق ، احتراس عن إهلاكه فيما لاينبغى من الملذات والشهوات فدفع هذا الوهم بإهلاكه فى الحق.

وعرف « الحكمة » فى قوله : « رجل آتاه الله الحكمة » ؛ لأن المرادَ بها القرآنُ الكريم ، ومعرفةُ التعاليم التى جاء بها الشرعُ الحنيف . ومبالغةٌ أخرى جاءت فى كلمة « الحكمة » لأنها تدل على العلم الدقيق المحكم والقضاءِ بين الناس وتعليمهم.

فالفضيلة الداخلية الجوهرية تتمثل فى العلم ، والفضيلة الخارجية العَرضية تتمثل فى المال ، فإذا جمع المرء بين فضيلة العلم وفضيلة المال ، وأنفقهما فى وجوه الخير ، فقد حاز التفوق والقبول ، وكان جديرا أن يُغبط من المسلمين الذين تتوق نفوسهم إلى التحلى بهاتين الفضيلتين .

الاستخارة

عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال :

كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها ، كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول : إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إنى استخيرك بعلمك ، واستقدرُك بقدرتك ، وأنت علام الغيوب . اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ، فاقدره لى ويسّره لى ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرّ لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ، فاصرفه عنى واصرفنى عنه ، واقدُر لى الخير حيث كان ثم ارضنى ، قال : ويسمى حاجته . رواه البخارى

★ ★ ★ ★

من شفقة رسول الله ﷺ بأمته أن يرشدهم إلى مصالحهم الدنيوية والأخروية وذلك بحثهم على صلاة الاستخارة ، والدعاء المأثور بعدها ، وذلك فى الأمور التى لايدرى العبد وجه الصواب فيها.

وقوله « يعلمنا الاستخارة » فيه إيجاز بالحذف ، أى يعلمنا صلاة الاستخارة ودعاءها .

والاستخارة معناها : طلب الخير ، تقول : خار الله لك ، أى أعطاك ماهو خير لك ، فيما هممت به ، والخير هو كل معنى زاد نفعه على ضرره.

وقوله « فى الأمور كلها » أى فى الأمور الصغيرة والجليلة على العموم ، فقد يحتقر المرء أمرا صغيرا ولايهتم به فيترك الاستخارة فيه ، فربما يكون فى الإقدام عليه أو تركه ضرر عظيم .

وقوله "يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن " تشبيه يدل على الاهتمام بأمر الاستخارة وأنها ذات شأن عظيم لايستهان بها ، وليس المراد من هذا التشبيه وجوبها. إذا أنها معلقة بالشرط وهو قوله « إذا همّ أحدكم » وإذا هم بالأمر فليس فيها وجوب أيضا كوجوب الصلوات الخمس ، لأن الصلاة التى تجب على المسلم منحصرة فى الصلوات الخمس دون غيرها.

فإذا هم بالاستخارة وقصد إليها « فليركع ركعتين » أى فليصل ركعتين فالحذف هنا للعلم به ، فعبر بالجزء وأراد الكل ؛ لأن الركوع جزء من الصلاة وليس كل الصلاة.

وقيد الصلاة بأنها من غير الفريضة ، بأن لايكون بالدعاء عقب الصلاة المفروضة ، وإنما صلاة الاستخارة هى صلاة مستقلة يندب إليها من يريد أن يقدم على الفعل أو يتركه ، ويستعين بالله على طلب الخير فى ذلك الإقدام أو الإحجام.

يعلمنا رسول الله ﷺ صيغة الدعاء : « اللهم إني أستخيرك بعلمك » إلى آخر الدعاء .

وانظر هنا إلى معانى الحروف « الفاء » فى قوله فليركع ركعتين ، و « ثم » فى قوله : ثم ليقل ، لأن الصلاة تكون حين الهمّ مباشرة ، أما الدعاء فلا يضر تأخيره عن الصلاة ما لم يطل الفصل ، فكل حرف وضع فى معناه اللائق به .

وقوله : « وأسألك من فضلك العظيم » ، فكل العطاء من الله ، وهو فضل منه وليس لأحد عليه حق ، فكل ما يهب فهو زيادة من عنده لم يقابلها منا عوض ، لا فيما مضى ولا فيما يستقبل ، ويستوجب منا الحمد والشكر.

«وأنت علام الغيوب » فالغيب لا يعلمه سواك ، فهب منه ماترى أنه الخير لى فى دينى ودنياى ، في العاجل والآجل ، فقد يكون الخير فى دنياى فقط أو فى آخرتى فحسب ، وقد يكون حالا أو فى المستقبل ، ولكن إذا اجتمع الخير فى هذه الأمور الأربعة فهو الخير كله ، وهو ما ينبغى للعبد أن يسأل سوى ربه.

« فاقدره لى ويسره لى » فاقدره بمعنى يسره ، فكأن تكرار المعنى لتأكيده وتسهيله « وبارك لى فيه » بأن تديمه وتضاعفه لى .

« واصرفه عنى واصرفنى عنه » لم يكتف بذكر أحدهما دون الآخر ، فقد يصرف الله الأمر عن المستخير ، ولايصرف قلب العبد عنه فيبقى فى تشوق إلى حصوله ، ولا يطيب له خاطر ، فإذا صُرف كل منهما عن الآخر كان ذلك أكمل.

«واقدر لى الخير حيث كان ثم ارضنى » لأنه إذا قدر له الخير ولم يرض تكدر عيشه ، وأثم فى عدم رضاه بما قدر الله مع كونه خيرا له ، ولكن عليه أن يرضى وتسكن نفسه وتقر عينه إلى ماقدر الله وقضى به سواء أكان فيه خيرا أم شرا.

« ويسمى حاجته » كناية عن ذكر ماعقدت الصلاة من أجله ، فيضمن دعاءه ذكر حاجته .

ويستحب أن يقرأ فى الركعة الأولى من الاستخارة بعد الفاتحة : (قل يا أيها الكافرون) وفى الثانية (قل هو الله أحد).

الكذب المباح

عن أم كلثوم بنت عقبة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« ليس الكذاب الذى يُصلح بين الناس فينمى خيرا أو يقولُ خيرا ».

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

الكذب ممنوع أصلا ، وليس لأحد أن يعتقد إباحة الكذب ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الكذب نهيا مطلقا وأخبر أنه مخالف للإيمان ، فلا يجوز استباحة شىء منه ، وإنما أطلق للمصلح بين الناس أن يقول ماعلم من الخير بين الفريقين ، ويسكت عما سمع من الشر بينهم ، وأن يسهل ماصعب ، ويقرب ما بعد ، لا إن يخبر الشىء على خلاف ماهو عليه ؛ لأن الله قد حرم ذلك والرسول نهى عنه.

وكذلك الرجل يعد امرأته ويمنّيها ، وليس هذا عن طريق الكذب ، لأن الكذب إخبار عن الشىء على خلاف ماهو عليه ، والوعد لايكون حقيقة حتى ينجز ، والإنجاز يقع فى المستقبل ، فلا يصلح أن يكون كذبا ، فربما يتحقق .

وفى الحروب يجوز الإيهام ، لأن الحرب خدعة ، والتورية تكون بألفاظ تحتمل معنيين ، فيورى عن أحد المعنيين ، ليغتر السامع بأحدهما عن الآخر ، وليس فى ذلك إخبار عن الشىء بما هو ضده ، ويروى فى مثل ذلك أن رسول الله مازح عجوزا فقال « لا يدخل الجنة عجوز » فأوهم فى ظاهر الأمر أن العجوز لن يدخل الجنة أصلا ، وإنما أراد أنهنّ لا يدخلْن الجنة إلا شبابا ، فهذا ومثله من المعاريض فيه مندوحة عن الكذب . أما صريح الكذب فليس بجائز لأحد.

فالرسول ﷺ لم يرخص فى شىء مما يقول الناس إلا فى ثلاث :

الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته أو المرأة زوجها ؛ لأن الكذب المذموم هو الذى يؤدى إلى المضـرة بالناس ، أما الذى يؤدى إلى خير فلا بأس به.

فقول الرسول ﷺ : ليس الكذاب الذى يُصلح بين الناس فَينمى خيرا أو يقولُ خيرا لفظة « فينمى » من نمى الحديث إذا بلغه على وجه الإصلاح ، وربما قالوا ينمو بالواو ، وينمى أفصح.

" أو يقول خير " أو هنا للشك من الراوى ، فلا يدرى على وجه اليقين أن الرسول قال : « ينمى » أو يقول خيرا .

قضاء الدين

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« مَطْل الغنىِّ ظلْمٌ ، فإذا أُتبع أحدكُم على ملَىٍّ فليتبعْ ». رواه البخارى

★ ★ ★ ★

هذا الحديث النبوى الشريف يتكون من عبارتين اثنتين لاتتعدى السطر الواحد ، ولكنه يحتوى على كثير من المعانى ، ويدل على شريعة الإسلام التي تعاف الظلم وتنهى عنه ، وتحث الناس على قضاء ديونهم ، بل إن رسول الله ﷺ يرفض أن يصلى على رجل لأنه مات مدينا بثلاثة دنانير ، عندما سئل رسول الله ﷺ أن يصلى عليه فقال هل ترك شيئا ؟ قالوا : لا ، قال فهل عليه دين؟ قالوا : ثلاثة دنانير ، قال: صلوا على صاحبكم ، قال رجل من الحاضرين ، صلى عليه يا رسول الله وعلىّ دينه ، فصلى عليه .

فامتناع رسول الله عن الصلاة علي الميت لأنه مدين بقدر قليل من المال لا يتعدى ثلاثة دنانير ، مع أنه لم يملك من المال شيئا يتركه لورثته ، فكان عاجزا عن أداء الدين ، لاممتنعا عن قضائه ، ومع ذلك فالرسول ﷺ يأبى أن يصلى فى جنازته إلا إذا قضى دينه ، وهذا يدل على الالتزام بقضاء حقوق العباد ، فهى حق فى رقبة المدين كالأغلال ، وعليه أن يفك الأغلال ليتحرر من عبودية الدين قبل الوفاة.

ومن ثم يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه « مطل الغنى ظلم » والمطل: غدم قضاء ما استحق أداؤه مع التمكن منه .

« ومطل الغنى » من إضافة المصدر إلى الفاعل ، ويصح أن يكون من إضافته إلى المفعول ، مع اختلاف المعنى ، وكلاهما ينفر من المطل .

فإذا أضيف إلى الفاعل يكون المعنى : يحرم على الغنى القادر أن يَمطل بالدين بعد استحقاقه ، بخلاق العاجز فلا حيلة له.

وإذا أضيف إلى المفعول كان المعنى : يجب وفاء الدين ولو كان مستحقه غنيا، ولايكون غناه سببا لتأخير حقه عنه ، وإذا كان الأمر كذلك فى حق الغنىّ فهو فى حق الفقير أولى .

فمعنى « مطل الغنى ظلم » مطل الغنى من الظلم ، ولكنه حذف « مِنْ » ليقول إن المطل فى حقيقته هو كل الظلم ، وليس جزءا من الظلم على سبيل المبالغة فى التنفير عن المطل .

وقوله عليه السلام : «فإذا أُتْبِع أحدكم على ملئ فلْيتبع » أى إذا أحال المدين الدائن إلى شخص آخر مليًا أى غنيا . فعليه أن يتبعه ، ويسترد دينه منه .

فالفاء فى لفظة « فإذا » كالتوطئة والعلة لقبول الحوالة ، أى إذا كان المدين مماطلا ، وحّول الدائن إلى غيره ، فعليه أن يتبع من أحيل إليه ، لأن فى المطل التواء ولىّ بالحق عن صاحبه ، وأكل أموال الناس بالباطل ولا ظلم أقبح من ذلك ، ومن هنا يقول رسول الله ﷺ : « الواجد يحلّ عِرضُه وعقوبتُه » والواجد : هو الغنى الذى يجد ما يقضى به دينه ، فإذا كان الأمر كذلك فيحل لومه وعقوبته وحبسه ، ويستباح عرضه ، وعرض الرجل لا يحل انتهاكه مثل الدم إلا فى أمر جلل ، ولا أخطر من أكل حقوق الناس . فالعرض النقى هو البرئ من أن يشتم أو يعاب ، فعرض الرجل هو ريحه الطيبة إن كانت أعماله طيبة ، وريحه الخبيثة إن كانت أعماله خبيثة .

وإذا منع الحق بعد طلبه ولم يكن ثمة عذر يمنع الأداء صار كالغصب ، والغصب كبيرة ، وتسميته بالظلم ، يشعر بكونه كبيرة ، أما العاجز عن الأداء فلا يدخل فى المطل ولا يسمى ماطلا .

وقوله « فليتبع » الأمر هنا ليس للوجوب أو الفرضية ، وإنما الأمر هنا للندب؛ لأن الدائن له الحق فى أن يرفض الحوالة ، فهو أمر ترغيب وليس بإلزام .

فالشرع الحنيف حريص كل الحرص ، على أداء حقوق الناس ، فإذا لجأ رجل إلى الاستدانة ، وأعطاه الدائن من ماله لينفس عن كربته ويخفف من ضيقه ، كان على المدين أن يرد الدين عندما يستطيع ، فإذا استطاع أن يرد الدين وتوفر له المال لرده ولم يرده كان آثما وظالما ، وتحل عقوبته ولومه ، وقد شدد الرسول الكريم وبين أهمية رد الدين حين امتنع عن أداء الصلاة على الميت إن كان مدينا ، ولم يترك شيئا لقضاء الدين ، إلا إذا تكفل أحد أقربائه أو أصدقائه برد الدين.

الستر

عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« المسلم أخو المسلم لا يَظلمه ولا يُسلِمُه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرّج عن مسلم كُربةً فَرج الله عنه كربةً من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة ».

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

هذا الحديث النبوى الشريف يحضّ على التعاون وحسن المعاشرة بين الناس، والألفة والستر على المؤمن ، وترك التسمع ، كما يفيد الكتمان على ذنوب المسلم وعدم التشهير به ، ويحث على كثير من آداب المسلمين التي ينبغى أن يراعوها ويألفوها حتى تسود بينهم ، وتكون هى الشريعة الحاكمة عندهم ، ومن يخرج عنها يخرج عن المألوف الذى ينبغى أن يحكم ويسود وأن يُتبع وُيقتدى .

فالمسلم أخو المسلم ، ليس على التشبيه به ، بل هو الأمر الواقع فهما شقيقان يحرص كل منهما على الآخر ، ويعرف حاجته دون أن يشير إليها فيلبّيَها له وكأنه يلبيها لنفسه ، ومن دلائل الأخوة ألا يظلم أخاه ولا يلُقى به إلى التهلكة ، ولا يتركه مع من يؤذيه ؛ بل ينصره ويدفع عنه أذى الآخرين وشرورَهم ، وهذا معنى قول الرسول ﷺ « لا يُسلمه » والأخوة فى الإسلام أقوى من الأخوة فى النسب ، والمسلم كلمة تتناول كل مسلم سواء أكان حرا أم عبدا ، رجلا أم امرأة ، بالغا أم صبيا . «فأل» فى المسلم تشمل كل من دخل فى دين الإسلام ، وعرف باعتناقه .

وإذا رأى أخاه المسلم فى حاجة مادية أو تأييد معنوى سارع إلى تلبيه حاجته، حتى يخفف عنه وطأة الحاجة وشدة العوز ويقيله من عثرته، ومن ينوى أن يعين أخاه أعانه الله، وأعانه أيضا على قضاء حاجته هو إن وقع فى ضيق أو هوى فى شدة.

ومن نفس عن مسلم كُربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسّر على معسر فى الدنيا يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة.

ومن ستر على مسلم فى الدنيا ستر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه.

وعن النبى ﷺ « من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موءودة » أخرجه ابن ماجة من حديث عكرمة .

وتكرار لفظة المسلم فى قوله : المسلم أخو المسلم ؛ ليفيد اتفاقهما فى ملة الإسلام ، وهى أقوى من أى شىء آخر ، حتى النسب .

وَنرَى الجناس فى اللفظ بين المسلم وبين يُسْلِمه ، فلكلٍّ معنى يختلف عن الآخر فالمسلم من الإسلام ، ويُسلم معناه الأذى والوقوع فى التهلكة .

وانظر إلى جمال هذا التعبير « من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته » فالعون الذى يقدمه الأخ لأخيه مهما بلغ فهو ضئيل ، ولن يصل إلى قدر العون الذى يقدمه الله للعبد ، فالحسنة بعشر أمثالها ، والله هو القوى القادر المحسن ، وإحسانه عميم ، والفقير عندما يبذل شيئا للغنى ، فالغنى لايرد بمثل ما أخذ ، إنما يرد أضعافا مضاعفة ، فالله هو الغنى ونحن الفقراء ومن يعن صاحب الحاجة ، يعنه ابتغاء وجه الله ومرضاته .

« ومن فرج عن مسلم كربة » أى نفس عنه الغم الذى ملك عليه نفسه ، واشتد عليه وقهره ، نفّس الله عنه كربة عظيمة من كربات يوم القيامة وهى كثيرة ومتنوعة وثقيلة ، فمن أزال غمّاً ورفع همّا عن أخيه المسلم ، رفع الله الغم والهم عنه يوم القيامة جزاء عونه لأخيه المسلم فى الدنيا .

« ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة» أى رأى منه القبيح فلم يظهره للناس ، ولم يفشه بينهم فتسوء سمعته بين أهله وجيرانه ، وإن كان ينبغى عليه خفية أن ينكر عليه فعلته ويلومه عليها حتى لايعود إليها ، فالستر فى المعصية واجب على المسلم إذا وقعت وانقضت ، وإذا بادر إليها مرة أخرى أنكرها ومنعه من ممارستها.

وتكرار الألفاظ التى تفيد تكرار المعنى وتأكيده كثيرة فى نص الحديث فمن ذلك :

من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته .

ومن فرّج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة.

ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة .

السبعة الذين يظلهم الله

عن ابى هريرة عن النبى ﷺ قال :

« سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظلّ إلا ظلُّه : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق فى المساجد ، ورجلان تحاباً فى الله ، اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته امرأة ذاتُ منصبٍ وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق أخفي حتى لا تعلمَ شِماله ماتنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ». **رواه البخارى**

★ ★ ★ ★

سبعة يظلهم الله فى ظله ، أسند الظل إلى الله سبحانه ، وأضافه إليه إضافة تشريف ، ليتميز هؤلاء السبعةُ عن غيرهم ، كما يقال للكعبة بيت الله تشريفا لها ، وأما الظل الحقيقى فالله منزه عنه .

ومعنى يظلهم الله ، يسترهم فى ستره ورحمته ، تقول العرب : أنا فى ظل فلان ، أى فى ستره وكنفه ، أو يجعلُهم فى ظل جنته .

سبعة يظلهم الله ، أى سبعة أشخاص ليدخل فيه النساء. ولم يرد التخصيص بالسبعة بمعنى أن غيرهم لن يظلهم الله ، لأن التنصيص بالعدد فى شىء لا ينفى الحكم عما عداه . وقد روى أبو مسلم : « من أنظر معسرا أووَضع له أظله الله فى ظله يوم لاظل إلا ظلّه » وهاتان الخِصلتان غيرُ الخصال السبعِ المذكورة .

وأول هؤلاء السبعة « الإمام العادل » أى الذى يضع كل شىء فى موضعه ، سواء أكان فى العقائد أم فى الأعمال أم فى الخلاق ، فالإمام العادل يُصلح الله به أمورا عظيمة وكثيرة .

والثانى من السبعة : « شاب نشأ فى عبادة ربه» حتى توفى على ذلك ، بعد أن أفنى شبابه ونشاطه فى العبادة . وانظر إلى هذا المعنى الدقيق حين قال شاب نشأ فى عبادة ربه دون أن يقول : رجل نشأ ؛ لأن العبادة فى الشباب أشد وأشق على النفس لغلبة الشهوات عليه ، وكثرةِ الدواعى الصارفةِ عن العبادة فى هذه السن ، وقوةِ البواعث على اتباع الهوى .

والثالث : « رجل قلبه معلق فى المساجد» ، أى شديد الحب لها ، ملازمٌ للجماعة فيها . وهذا كناية عن انتظاره أوقات الصلاة ، مما يستلزم صلاته أيضا مع الجماعة .

والرابع : «رجلان تحابا فى الله » ، معناه : رجل يحب غيره فى الله ، والمحبة تكون بين اثنين فقال : رجلان تحابا لأجل الله ، لالغرض دنيوى ، وفى الله بمعنى بسبب الله ، وكان سبب اجتماعهما حب الله والاستمرار عليه حتى تفرقا من مجلسهما .

والخامس : « رجل دعته امرأة إلى نفسها» ، دعته إلى قضاء رغبتها ، وكانت ذات حسب شريف ونسب عريق ، يكثر فيها الراغبون ، إلا أنه تعفف عن ذلك ، وقال مؤكدا إنى أخاف الله ، وصبر عن ذلك . ولم يستجب لها وإلى نزواتها ، وذلك من أكمل المراتب وأعظم الطاعات .

والسادس : « رجل تصدق فأخفى » أى الصدقة فحذف المفعول للعلم به ، أى جعلها صدقة مخفية ، حتى لا يطلعَ إليها أحد ؛ بل لا تطّلع يده الشِمالُ على اليد اليمنى التي أعطت ، فنفى العلم بها من كل وجه ، حين نفى علم شماله بما فعلت يمناه.

والسابع : «رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه» بالدمع ؛ لأنه حينئذ يكون أبعد من الرياء ، فلا أحد يراه ، وإنما هو يقف وحيدا لايراه سوى ربه ، فإذا فاض دمعه فاض من أجل الله وخشية منه ، وليس إرضاء لأحد أو خوفا من أحد .

وقوله « ففاضت عيناه » أسند الفيض إلى العين ، والعين لاتفيض وإنما الدموع هى التى تفيض فى العين ، فالإسناد هنا مجازى أريد به المبالغةُ فى البكاء والخشيةُ من الله سبحانه .

وقوله : سبعة يظلهم الله بظله ، ابتدأ بالنكرة وهى سبعة ، ووصفها بهذه الصفة اللازمة لها ، وهى الظل الدائم لهم من الجنة ومافيها من نعيم وظلال ، ومتعة روحية ترنو إليها الأعناق .

«يوم لاظل إلا ظلّه» يوم القيامة حيث تنتفى الظلال ولايبقى سوى ظل الله ورحمتِه .

وبعد هذا الإجمال بذكْر السبعة . فصّل القول فيهم فذكرهم ، ليس على ترتيب الأهمية ، بل كلهم سواء فى أهمية صفاتهم ، إمام اتصف بالعدل ، فلايُرضى المخلوق ويُسخط الخالق ، وشاب نشأ واستمر فى عبادة ربه ، لايقع فى الرذيلة ولايستمر فى الشهوات ، ورجل يحب المسجد وينتظر الصلاة يؤديها داخل المسجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، فبين اجتمعا وتفرقا طباق وتضاد، أى يجتمعان على طاعة الله ويتفرقان عليها ، وغير ذلك من هذه الصفات الشاقة الجسيمة ؛ لأنها ضد الرغبات النفسية لإنسان ، وعليه أن يجاهد نفسه حتى يحتفظ بهذه الصفات . فالمرأة ذات الحسب والجمال إذا دعت رجلا إليها صُعب عليه أن يُقصى نفسه عنها ، فإذا ردها عن طلبها وقال إنى أخاف الله كان غاية في العفة والطهر . والرجل الذى يخفى صدقته ، لأن ذلكِ مخالف لما جبل عليه المرء من فخر وتظاهر ، والرجل الذى تفيض عيناه من الدمع حين يخلو بنفسه وربه فلا يطلع عليه أحد حتى يتهم بالرياء والتصنع . .

الفقه فى الدين

عن معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه قال :

سمعت النبى ﷺ يقول : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطى ، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لايضرهم من خلافهم حتى يأتى أمر الله ». رواه البخارى

★ ★ ★ ★

يقول المصطفى ﷺ من أراد الله به خيرا يوفقه ويزده فهْما في أمور الشرع ، إذ الأمـرُ كله لله ، وهو الذى يعطى ويمنع ، ويزيد ويُنقِص ، والرسـول قـاسم وليس بمعطٍ يَنسبَ إلى نفسه الزيادةَ أو النقصان . فمن يرد الله به صَلاحاً ومنفعةً يجعلْه فقيها فى الدين مدركا لأموره ، فيزهدْ فى الدنيا ويرغبْ فى الآخرة ؛ لأنه بصير بأمور دينه مداوما على عبادة ربه .

والرسول ﷺ موكل بالقسمة بين الناس فيلقى إلى كل فرد ما يليق به من أمور الشـرع ، والله يوفق من يشـاء منهم لفهمه والتفكير فى معناه ، والرسـول ﷺ لم يفضّل أحدا على أحد فى قسمة ما أوحى الله إليه ؛ بل سوى فى البلاغ وعدل فى القسمة ، وإنما التفاوت فى الفهم ، وقد كان بعضُ الصحابة رضوانُ الله عليهم يسمع الحديثَ فلايفهم منه إلا الظاهَر الجلىّ ، ويَسمعهُ الآخرُ فيستنبطُ منه مسائل كثيرة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وفى قوله « من يرد الله به خيرا » نكر خيرا للشمول والعموم ؛ لأن النكرة فى سياق الشرط تعمّ ، كالنكرة فى سياق النفى ، فالمعنى : من يرد الله به جميع الخيرات يفقهه فى الدين .

أو أن التنكير جاء للتعظيم ، أى من يرد الله به خيرا عظيما يفقهه فى الدين.

« وإنما أنا قاسم » إنما تفيد الحصر والاختصاص أى ما أنا إلا قاسم ، فخص الرسول نفسه بالقسمة لا بالعطاء ، ولاشك أن الرسول ﷺ له صفات أخر غير القسمة ، مثل كونه رسولا ومبشرا ونذيرا ، وإنما جاء الحصر هنا بالنسبة لاعتقاد السامع ؛ فهو يعتقد أن الرسول ﷺ مُعطٍ ، أو هو معط وقاسم ، فقال : بل أنا قاسم .

وقد وصف الرسول ﷺ نفسه بأنه مجرد قاسم تطييبا لنفوس المسلمين ، فإذا تفاوتوا فى الأفهام ، فهذا التفاوت ليس من الرسول ؛ بل هو من الله ؛ لأنه هو المعطى ، وهو يعطى الناس على قدر ماتعلقت به إرادته ، والرسول قاسم بينهم بأن يبلّغ الوحى إليهم من غير تخصيص بأحد .

وقال "والله يعطى" ولم يقل والله معط ، نظرا لتكرار العطاء من الله وتجدده . وقتا بعد آخر .

السفر قطعة من العذاب

عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « السفر قطعة من العذاب ؛ يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه ، فإذا قضى نهْمتَه فليعجل إلى أهله ».

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

لاشك أن السفر قطعة من العذاب وجزء منه ؛ لما ينشأ عنه من جهد ومشقة ومهما كانت وسيلة السفر طائرة أو باخرة أو سيارة ، برا أو بحرا ، أو سيرا على الأقدام . فالاستعداد للسفر فيه تأريق لجفن المسافر ، وتغيير لأحواله المألوفة ، مما يسبب له القلق والاضطراب ، فهو يخرج من حال اعتاد عليها إلى حال أخرى لايدرى كيف تكون .

ولم كان السفر قطعة من العذاب ؟ هذا السؤال يستنبط من العبارة السابقة : السفر قطعة من العذاب ، فأجاب : لأنه يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه . ولذا لم يعطف هذه الجملة على ما قبلها ، شأن السؤال والجواب لايعطف أحدهما على الآخر ، لأنهما مرتبطان ارتباطا كليا ولاينفصم أحدهما عن الآخر . فهو يمنعه لذة الطعام وفى الوقت الذى يريده غداء أو عشاء ؛ وكذلك النوم يمنعه فى وقته ، ومن استيفاء القدر الذى يتطلبه جسده وراحته ، والسفر قد يشغل المرء عن صلاته فى وقتها ، وكذلك الصوم فربما يمنعه من أدائه ، ولذا رخص الشرع فى إفطار المسافر فإذا لم يمنع السفر المسافر من الصلاة والصيام ، فقد يمنعه من الكمال كما يؤديه فى حال الإقامة .

فإذا قضى حاجته من السفر فليعجل بالعودة إلى أهله فإنه أعظم لأجره ، فهم فى حاجة إليه ، خاصة إذا كان لديه صغار يخشى عليهم الضياع ، ولما فى

الإقامة بين الأهل من الراحة والأنس والاستعانة على صلاح الدين والدنيا فى كثير من الأمور التى يحتاج فيها إلى لمّ شمل الأسرة ، فالرجل أمير فى بيته ، والبيت لايصلح دون راع ، وإن كان فى السفر غنيمة أو رزق ، فإذا قضى الرجل حاجته المعقولة التى لاتؤدى إلى ضياع الأسرة فليعجل بالعودة .

وقول الرسول : طعامه وشرابه ونومه ، عطف كل منها على الآخر تنبيها على كثرة الأشياء الضرورية التي يحرم منها المسافر ، وهى الأشياء التي يسعى إليها المرء من سفره .

وقوله : « فليعجل إلى أهله» الأمر هنا للاستحباب لكونه أعظم أجرا وأكثر ثوابا ، والعود أحمد .

عيادة المريض

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : « دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك ، فقلت : يا رسول الله : إنك توعك وعكا شديدا ، قال : أجل ، إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم ، قلت : ذلك أن لك أجرين ، قال : أجل ، ذلك كذلك ، مامن مسلم يصيبه أذى شوكةٍ فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاتِه كما تحط الشجرة ورقها ». **رواه البخارى**

★ ★ ★ ★

عيادة المريض واجبة على الأقارب والأصدقاء والجيران والمعارف ، للائتناس بهم والتخفيف عنه ، فالمشاركة الوجدانية مطلوبة فى مثل هذه الأمور ، فإذا شعر المريض أن له أصدقاء يعودونه ويسألون عنه ويشاركونه فى أحزانه وآلامه ، يشعر أنه ليس وحيدا فى هذه الدنيا ، وإنما معه رصيد من الأحباء يشاركونه أمراضه كما كانوا يشاركونه أفراحه ، وكل إنسان معرض للمرض مهما كانت صحته وقوته ، فالمرء يمرض فى لحظة ويشفى بعد فترة ، هذه الفترة تكون شديدة الوقع عليه وعلى أسرته ، وهو فى حاجة ماسة إلى من يسأل عنه ويعوده من وقت لآخر ، فربما أزال عنه الكرب بحديثه الدافئ الذى ينبثق من صدر يكنّ له المودة والألفة .

فابن مسعود يعود النبى ﷺ فى مرضه ، وهو مصاب بآلام الحمى وتباريحها ، فيشعر معها المريض بحرارتها ، وشدة وقعها ، فتنهك جسده ، وتحطم أعضاءه ، فيتفصد جسده عرقا ، ويصبح الجسد كأنه قطعة من نار ملتهبة .

قال ابن مسعود : يارسول الله إنك تُوعَك وعكا شديدا ، استفهام جاء فى صورة الإخبار ، كأنه يؤمّن على ما رأى من مرض رسول الله ، وأن مرضه واضح

للعين لا يقبل شكا ولا ريبا . فأجابه رسول الله ﷺ أن ما أصابه من حمّى يعدل ما يصيب رجلين ، أى أن الحمى شديدة على نفسه ولايكاد يتحملها رجل واحد ؛ بل هى لشدتها لايتحملها إلا رجلان . والمرض الشديد يقابله أجر كبير ، وأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .

وعن فاطمة بنت اليمان قالت : أتيت النبى ﷺ فى نساء تعوده ، فإذا سقاء يقطر عليه من شدة الحمى فقال : إن من أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذى يلونهم.

يقول رسول الله ﷺ : « مامن مسلم يصيبه أذى شوكةٌ فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته ، كما تحطّ الشجرة ورقها».

فالتنكير فى « أذى» للتقليل ليصح ترتب مافوقها فى العظم وما دونها فى الحقارة . وفى الكلام إيجاز حيث حذف ماهو مفهوم من السياق ، وهو مادونها.

وجاءت شوكة بالرفع ؛ لأنها بيان لأذى ، فهى توضح الأذى حتى ولو كان بأقل القليل ، حتى الشوكة تصيب الرجل فلا تؤلم إلا أسقط الله عنه ذنبه وكفر عنه سيئاته ، وأزالها عنه كما يسقط عن الشجرة أوراقها .

فالألم والمرض يسقطان الذنب كما تهب الريح فترتطم بالشجرة فتسقط أوراقها ورقة ورقة ، حتى تخلو الشجرة من جميع أوراقها كما يحدث فى الخريف .

وجمع سيئاته وإضافتها . مما يفيد العموم فيلزم منه تكفير جميع الذنوب صغيرها وكبيرها ، فشدة المرض تضاعف الأجر ، حتى ينتهى إلى إسقاط السيئات كلها ، كما تسقط أوراق الشجرة برمتها ، فشبه الشىء المعنوى بشىء حسى واضح للعيان نراه دائما فى فصل الخريف ولاينكره أحد .

وما جاء فى حديث أبى هريرة : « لايزال البلاء بالمؤمن حتى يلقى الله وليس عليه خطيئة » يؤكد ذلك.

ومن ثم لايحق لامرئ مهما اشتدت به العلل والأوجاع أن يتمنى الموت ومفارقة الحياة ، فإن كان ولابد من التمنى فليقل :

« اللهم أحينى إن كانت الحياة خيرا لى ، وأمتنى إن كانت الحياة شرا لى ».

من أحق بالهدية

عن عائشة رضي الله عنها قالت : « قلت يارسول الله إن لى جارين فإلى أيهما أهدى ؟ قال : إلى أقربهما منك باباً ». رواه البخارى

★ ★ ★ ★

فى هذا الحديث يرى الرسول ﷺ وجوب أن يحافظ الجار على مشاعر جاره، وعلى مشاعر أبناء جاره ، وكلما تعددت الجيران كان أقربها أولى بحسن المعاشرة والإهداء . فلو دخلت بقرطاس من الفاكهة على أولادك ، ورآه أولاد جيرانك ، لزم عليك أن تهدى إليه بعضا من الفاكهة التى أتيت بها لأولادك ؛ لأن أبناء الجيران تطلعوا إليها ، وربما لم يكن لديهم فاكهة من هذا الصنف ، أو ليست لديهم فاكهة على الإطلاق .

وهكذا إذا تصاعدت رائحة الطبخ من بيتك إلى بيت جيرانك فعليك أن تهديهم بعضا منه ، فالعبرة فى المحافظة على مشاعر الجيران ، لا فى تناولهم لطعامك أو أخذ هداياك . هذه لمسة رقيقة من لمسات ديننا الحنيف وشريعتنا السمحة التي تقوم على المودة والمحافظة على مشاعر الأخوة بين الناس .

وربما كان السر فى وجوب الإهداء للأقرب فالأقرب ، أن الأقرب بحكم جيرته الملاصقة مطلع فى الغالب على أحوال بيتك ، ملاحظ لما يجرى بداخله.

فإذا رأى أولاد الجار شيئا ليس عندهم ، ورأوا أن أباهم لا يستطيع إحضار مثله ، شعروا بأنهم أقل من أبناء الجار شأنا ، وأن أباهم ليس فى منزلة أب جيرانهم، فربما انعكس ذلك على تصرفاتهم نحو أبيهم ونحو جيرانهم ، فيصيب العلاقة الوهن بين الجيران بعضهم مع بعض ، والإسلام حريص أن تكون العلاقة متوائمة حميمة ، لامتنافرة بغيضة .

والرسول ﷺ أمر بالهدية إلى من قرب بابه ؛ لأنه ينظر إلى ما يدخل دار جاره وما يخرج منها ، فإذا رأى ذلك أحب أن يشارك فيه ، وكذا فإنه أسرع إجابة لجاره عندما تنوبه بعض النوائب والملمات ، فلذا بدأ به لقرب بابه ، وهو أولى من الذى يكون داره قريبة وبابه أبعد . يقول رسول الله ﷺ : «لايؤمن أحدكم يبيت شبعان وجاره طاوٍ » وقال : « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه».

وقول عائشة : « إن لى جارين » قدمت فيه الجارّ على الاسم مما يبين مدى حيرتها وأيهما أولى بالإهداء . والاستفهام هنا فى قولها : « فإلى أيهما أهدى » استفهام حقيقى أرادت به إجابة ، حتى تستقر نفسها وتهدأ ، فهى لاتعرف على التحديد أيهما أولى ، وقد أجاب رسول الله بأنه أقرب الجارين بابا .

المهابة والقوة

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول :

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى) . رواه البخارى

★ ★ ★ ★

أمر رسول الله ﷺ المسلمين أن يعدوا أنفسهم قدر طاقتهم . على الأخذ بأسباب القوة ، ومن تملك للسلاح والتدرب على استعماله وممارسة فنون الحرب ، حتى يهابَهم العدو ويخشى بأسهم ، فيخاف أن يتهجم عليهم أو يستهين بهم ، فالقوة فى الرمى ، رمى النبال أو السهام أو الرماح ، أو رمى بآلة الحرب سواء أكانت هابطةً من الجو ، أو منطلقة من البر ، أو مصوبة من البحر ، استعداد كامل بآلات الحرب أيا كان نوعها مما يلائم العصر وتطورَه .

قال رسول الله ﷺ هذه الخطبة بألفاظ جزلة ليس فيها تكلف ، ألفاظ تزخر بالقوة والعنف ، قالها بألفاظ مقتبسة من القرآن الكريم تحث المسلمين أن يبادروا بالاستعداد لأى لقاء أو مواجهة ، فالصمود أمام العدو ، والتأهبُ له بروح قتالية ضارية تعطيه القوة وتزوده بالنصر ، فترتفع راية الإسلام خفاقة فى العالمين .

هذه الخطبة تشتمل على فقرتين فحسب ، الثانية منها كررت ثلاثَ مرات ؛ لتُلهب حماس المؤمنين وتشدَّهم نحو التمسك بالقوة ودواعِيها ، وممارسة التدريب ومعرفة أدواته وأساليبه ، فالقوة تكون بسواعد أبناء المسلمين ، لابغيرهم .

هذه الخطبة قليلة الألفاظ كثيرة المعانى ، ليس فيها تنافر أو غرابة ، ألفاظها فصيحة، وعباراتُها قوية وتعبيراتُها حسنة ، فيها سلاسة ، بعيدةُ كل البعد عن التعقيد اللفظى أو التعقيد المعنوى .

أمرهم الرسول بأن يعدوا من قوتهم على قدر استطاعتهم (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) فالأمر هنا قصد به الإثارة والتهييج والحث الشديد بأن يكونوا على أهُبة الاستعداد ، وألا يتركوا ذلك للظروف والأحوال .

واستعمل (ألا) الاستفتاحية التى تفيد التأكيد ثم اقترانها بإنّ فقال (ألا إن القوة الرمى) زادت الجملة تأكيدا على تأكيد بأن القوة فى الرمى ، مطلق عموم الرمى ، من أى اتجاه وبكل سلاح يرمى به ، هذا التأكيدُ بأكثر مِنَ مؤكد يفيد بأن الصحابة كأنهم كانوا منكرين أن الرمى هو الوسيلة للقوة ، فأكد الرسول لهم الكلامَ بأكثرَ من مؤكِدّ .

ثم الحظ تكرار هذه الجملة ثلاث مرات (ألا إن القوة الرمى) حتى تثبُت فى نفوس المسلمين ، فلا يداخلهم شك أو ظن فى ثباتها والعمل بها .

كما تلحظ أن هذه الجمل الثلاث جاءت إحداها تلو الأخرى دون عطف (ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة رمى) لأن كل جملة منها جاءت مؤكدة بتكرارها للجملة السابقة لها .

فإذا أضفنا إلى ذلك مجىء هذه الجمل الثلاث بعد قوله (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) دون عطف أيضا ؛ لأن هذه الجمل جاءت مفسرة موضحة ما المراد بالقوة ، إنه الرمى ، الذى جاء معرفا بأل ، حتى يشمل كل ما تعارف الناسُ عليه بأنه من جنس الرمى .

دخــول الجنــة

عن موسى بن طلحة عن أبى أيوب رضي الله عنه : (أن رجلا قال للنبى ﷺ :

(أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ، قال : ماله ماله ؟ قال النبى ﷺ : أرَبٌ ماله ؟ تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة وتصل الرحم) . رواه البخارى

★ ★ ★ ★

جاء رجل للنبى فقال له : دلنى على عمل يدخلنى الجنة ، يريد إجابة على سؤال فُهم من مقولته هذه .

قال رسول الله ماله ماله ؟ أى ماذا يريد ، أله حاجة مفيدة ملحة يريد أن يستفسر عنها ؟ .

أن يعبد الله ويوحده ، ولا يشرك به شيئا بعد العبادة ، لأن الكفار كانوا يعبدونه سبحانه فى الصورة ، ويعبدون معه أوثانا يزعمون أنها شركاء ، فنفى هذا .

وأن يداوم على الصلاة ويحافظ على أدائها . ويقدم الزكاة لمستحقيها ، وأن يصل أقرباءه ويشاركهم فى الخيرات . وربما كان الرسول قد علم حال السائل كأنه كان قاطعا للرحم مبيحا لذلك فأمره به .

والتنكير فى قوله (أخبرنى بعمل) يفيد التفخيم ، أى أخبرنى بعمل عظيم معتبر فى الشرع يدخلنى الجنة .

(يدْخلنى الجنة) جواب الشرط محذوف ، أى أخبرنى بعمل إن عملته يدخلنى الجنة ، والحذف هنا للإيجاز والاختصار .

وقوله : (ماله ماله ؟) كلمة ما للاستفهام ، والتكرار هنا للتأكيد ، والمعنى : أى شىء جرى للرجل وماذا يريد ؟ .

ولما رأى رسول الله ﷺ أن الرجل حريص فى سؤاله ملحّاً عليه قال الرسول متعجبا من حرصه : أربٌ ماله ؟ والأرب : الحاجة ، أى : أله حاجة يستفسر عنها ؟ «تعبد الله ولا تشرك به ...» فالعبادة بمعنى الطاعة ، أى تطيع ربك ، فيدخل فى الطاعة جميع وظائف الإسلام من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإيصال الرحم ، فهى من عطف الخاص على العام تنيبها على شرفه وأهميته ،

وتعبد الله معناها : أعبد الله ، فهى جملة طلبية فى معناها ، ولهذا جاز عطف الجملة التى بعدها عليها ولا تشرك .

وعبادة الله تتضمن عدم الشرك به مطلقا ، ولذا نكر شيئا فى قوله ولا تشرك به شيئا لتدل على الشمول ، فتشمل نفى الشرك به ، من كل شىء يعبدونه . والتعبير بالمضارع فى قوله : تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصل الرحم ؛ ليفيد استحضار صورتها ، وتجددها فى كل وقت ، حيث ينبغى أداؤها .

العمـل الطالـح



الشمس والقمر

عن عائشة رضى الله عنها قالت :

قام رسول الله ﷺ فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا ، ثم قال : يا أمة محمد والله ما من أحد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته ، يا أمة محمد ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا) .

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ من مارية القبطية وعمره عام ونصف العام ودفن بالبقيع ، وصادف وفاته خسوف الشمس ، فظن الناس أن ذلك حزنا على وفاة ابن رسول الله ﷺ ، فنفى الرسول هذا الاعتقاد ، وقال إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يظهرهما ويخفيهما بإرادته وليس عن رضى الناس أو حزنهم .

ولما أمرهم رسول الله بدفع البلاء الذى يكون بالذكر والصلاة والصدقة ، ناسب ردعهم عن المعاصى التى هى من أسباب جلب البلاء . وخص منها الزنا بالذكر ، لأنه أعظمها فى المعصية التى هى من أسباب جلب البلاء . وخص منها الزنا بالذكر ، لأنه أعظمها فى المعصية وأشدها تأثيرا فى إثارة النفوس وغلبة الغضب ، ناسب ذلك تخويفهم فى هذا المقام من مؤاخذة الله لهم لغيرته على ارتكاب المعصية وما ينتج عنها من شرور .

فالخسوف من الشمس لا يأتى مطلقا ، لا للموت ولا للحياة ، والدنيا على اتساعها ليس فيها شىء سوى الموت والحياة ، فعمم بهاتين اللفظتين كل أمور الدنيا حين طابق بين الموت والحياة .

فإذا رأيتم الخسوف أو الكسوف ، فماذا تفعلون ؟ ادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا . أى افعلوا كل ما يحب الله ويرضيه من الدعاء له والثناء عليه من التكبير الذى هو فى حقيقته تعظيم للخالق وهو أكبر من كل كبير ، وتقربوا إليه بالصلاة والصدقة فهما ترفعان الذنوب ، وتزيل البلاء ، والدعاء والتكبير والصلاة والصدقة كلها من وادى الخير يحثنا الله على الالتزام بها فعطف بعضها على بعض . وقوله يا أمة محمد ، نداء فيه معنى الإشفاق ، كما يخاطب الوالد ولده إذا اشفق عليه بقوله: يا بنى ، وكررها بعد ذلك تأكيدا لهذه العاطفة الخالصة من رسول الله لأمته .

وأقسم بقوله (والله ما من أحد أغير من الله) وقوله (والله لو تعلمون ما أعلم) حيث صدر العبارتين بالقسم ، وإن كان المسلمون لا يشكون فى أخباره ، إلا أن المقام مقام الإنكار عما يليق فعله من استبعاد الغيرة من الله ، وأنهم لا يعلمون ما أحاط به الرسول علما من أهوال النار وشدة سعيرها .

وقوله (ما من أحد أغير من الله من أن يزنى عبدُه أو تزنى أمتُه) .

فلفظة (أغير) أفعل تفضيل من الغيرة ، وهى تغير يحصل من الحمية والأنفة، وأصلها فى الزوجين والأهل ، وكل ذلك محال على الله تعالى ، فهو من الاستعمال المجازى الذى يدل على غاية إظهار غضب الله على الزانى .

فالزجر عن الزنا ، وشدة الوعيد لمن يرتكبه ، قصد به صون الحريم عمن يقصدهم ، ومنع ارتكاب الإثم معهم غرض من أغراض الشريعة الإسلامية ، فليس أحد أمنع من المعاصى ولا أشد كراهة لها من الله سبحانه ، وفى ذلك تشبيه حال ما يفعل الله مع عبده الزانى من الانتقام وشدة العقاب بحال ما يفعل السيد لعبده الزانى من الزجر والتعزير .

وقوله : (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا) أى لما ضحكتم أصلا ؛ إذ القليل هنا بمعنى العدم ، لأن السياق يقتضى ذلك ، حيث اطلاع الرسول على الأهوال التى يراها الزانى والعاصى فى جهنم ، ومن يشاهد أهوالها لا يضحك أبدا .

وفى قوله (لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا) وجود اللام فى لضحكتم ولبكيتم ، التى تفيد التوكيد على نفى الضحك وكثرة البكاء ، وفى العبارتين مقابلة لطيفة تبين المعنى وضده ، وتظهره فى صورة واضحة جلية لا مزيد عليها ، بأن ضحكهم القليل وبكاءهم الكثير ليس إلا إشفاقا وخوفاً .

الخسران

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

(ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) .

رجل كان له فضل ماء بالطريق فمنعه من ابن السبيل .

ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا لدنيا ، فإن أعطاه منها رضى وإن لم يعطه منها سخط ورجل أقام سلعته بعد العصر ، فقال : والله الذى لا إله غيره : لقد أُعطيت بها كذا وكذا ، فصدقه رجل ثم قرأ هذه الآية : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ (آل عمران : ٧٧) . **رواه البخارى**

★ ★ ★ ★

يقول رسول الله ﷺ : ثلاثة أشخاص لا يحسن الله إليهم ولا يثنى عليهم ولا يطهرهم من الذنوب يوم القيامة .

أولهم : رجل كان لديه ماء أكثر من حاجته ، فمنع الفاضل من الماء عن طالبه.

وثانيهم : ورجل بايع إمامه وعاهده ليس إلا لأجل شيء يحصل له من متاع الدنيا ، فإن أفاد منه بقى على مبايعته ، وإن لم يفد منه سخط عليه وترك مبايعته .

ورجل أقام سلعته وعرضها للبيع وأقسم بأغلظ الأيمان - وهو كاذب - أنه عرض عليه ثمن مرتفع ، يحدده بمعرفته فصدقه المشترى وأخذها بالسعر الذى ادعاه البائع ، فهذا البائع هو الخاسر ؛ لأنه اشترى بقسمه ومعاهدته لله ثمنا قليلا .

وقوله (ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة) ليس المقصود بالثلاثة هو الحصر فيهم ، بحيث لا ينبغى أن يتجاوز الوعيد الثلاثة ؛ لأن التنصيص على الثلاثة لا ينافى الزائد عليهم .

وقوله : (لا ينظر الله إليهم) لم يرد حقيقة النظر ؛ لأن النظر يكون بحاسة العين ، وهو مستحيل على الله سبحانه ، وإنما هو كناية عن إهمالهم وعدم الإحسان إليهم . وأيضا قوله : (لا يزكيهم) : كناية عن عدم الثناء عليهم وتطهيرهم من الذنوب التى ارتكبوها فى دنياهم ، فلهم عذاب مؤلم وحساب موجع لا يطاق .

وذكر الثلاثة أولا على سبيل الإجمال ، ثم فصل القول فيهم واحدا إثر الآخر.

فإذا جاء الحديث مجملا تشوقت النفس إلى معرفته تفصيلا ، وتعلقت به وأرادت أن تدركه مفصلا حتى يرسخ فى النفس ويستقر فى الفؤاد .

فالرجل الأول الذى يخاصمه الله على فعلته ، هو الرجل الذى يمنع الماء - وليس فى حاجة إليه - يمنعه عن عابر سبيل ، غريب عن بلده ، يذرع الأرض دون أن يستقر فى مكان ، فهو فى حاجة إلى العون وشد الأزر ، ولا ينبغى للمسلم أن يمنعه من فضل الله عليه ، ولو بقطرة ماء ينفع بها غلته ويزيل بها ظمأه ولفظة (منعه) توحى بأن الماء ليس من حق الذى عنده الماء حتى يمنعه عن غيره ، خاصة إذا كان غريبا عابر سبيل ، فإذا منعت الشىء عن رجل فكأنك منعته عن مستحقه ، وهذا مما يخاصم الله فيه عبده إذا استأثر بالفضل دون غيره .

والرجل الثانى الذي يبايع إمامه ، أو يعاهد من بيده السلطان وقضاء مصالح الناس ، يعاهده من أجل أن يخصه بشىء من متاع الدنيا ، ومهما كان هذا الشىء فهو زهيد القيمة بالإضافة إلى رضا الله عنه ، فإن تحقق مراده وحصل منه على ما يشتهى رضى غاية الرضا واستمر فى مبايعته ، وإن لم يحقق له المنفعة والحصول على ما يرغب ، سخط عليه وتألب ضده ، فهو يسعى لمنفعته الخاصة ، ويريد تحقيق المزيد من زهرة الحياة الدنيا .

وانظر هنا إلى المقابلة الواضحة بين المعنى وضده : فإن أعطاه منها رضى ، وإن لم يعطه منها سخط ، فالإعطاء والرضا ، والحرمان والسخط ، بينهما تقابل فى المعنى يزيده وضوحا وتأكيدا .

أما الرجل الثالث : فهو الذى يعرض سلعته فى السوق ، فى أى وقت شاء ، وقوله بعد العصر ليس بقيد ، وإنما خرج هذا مخرج الغالب حيث يفرغ التجار من السوق ومعاملة الناس . وهو الوقت الذى تصعد فيه ملائكة النهار ، ولهذا يغلظ الأيمان به ويلعن صاحبه إن كان كاذبا ، فتعظم المعاصى فيه لارتفاع الملائكة بالأعمال إلى الله ، فيكون آخر عمله فى يومه معصية .

وانظر إلى تأكيد البائع الكاذب لقوله : إنه صادق ، حيث أقسم بلفظ الجلالة (والله) ثم قصر لفظ الجلالة على الوحدانية ، ثم استعمال (اللام وقد) وهما أداتان تفيدان التأكيد ، ثم الكناية عن تحديد السعر الذى عرض عليه : أُعطيت كذا وكذا ، مما يدعو المشترى إلى تصديقه ، ويستشهد رسول الله بالآية الكريمة لخسران عمل البائع ومحو ثوابه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ (آل عمران : ٧٧) ..

الضرر

عن أبى هريرة ﵁ قال :

(نهى رسول الله ﷺ أن يبيع حاضرٌ لبادٍ ، ولا تناجشوا ، ولا يبيع الرجل على بيع أخيه ، ولا يخُطب على خطبة أخيه ، ولا تسأل المرأة طلاق أختها لتكْفَأَ ما فى إنائها) .

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

القصد الذى يدور حوله هذا الحديث النبوى الشريف هو منع الضرر عن الناس ، وتجنب ما يلحق بهم من فساد ، وقد أراد الرسول ﷺ من أمته أن يحتفظ الرجل بصدره خاليا من الحقد والغضب على أخيه المسلم . فالقلوب إذا امتلأت حقدا لا يرجى لها صلاح ، والرسول ﷺ يهمه فى الدرجة الأولى أن يكون القلب صافيا والصدر سليما ، ليس فيه نقطة سوداء تجاه الآخرين فنهى عن عدة أشياء .

أولها : أن يبيع أهل المدينة لأهل البادية ، والبادى هو الذى يعيش فى البادية ويسكن الخيام ، وصورة البيع (أن يقدُم غريب من البادية بمتاع ليبيعه فى المدينة بسعر يومه ، فيقول له الحضرى : أتركه عندى لأبيعه لك على التدريج بأغلى منه ، فإذا باعه فالبيع صحيح ، إلا أن البائع آثم ، لأن ظاهر الحديث تحريم بيع الحاضر للبادى ، لما فيه من إلحاق الضرر بالبادى الذى لا يدرى المكث فى المدينة ، فيضطر إلى البقاء وهو لا يريد ذلك فيقع عليه الضرر . أما إذا قصد البدوى الإقامة فى المدينة ، فسأله الحضرى أن يفوضه فى بيعه فلا بأس به ؛ لأنه خال من الضرر ، ولا سبيل لمنع المالك عنه إذ لا ضرر فيه .

وثانيها : النهى عن النَّجش ، والنجش : هو مدح الشىء وإطراؤه ، وإظهار ما فيه من مميزات ، وإخفاء ما فيه من مساوئ ، وفيه معنى الختْل ، يقال : نجش الرجل إذا ختَل ، وأصل النجَش : الإثارة ، وسمى الناجش ناجشا ؛ لأنه يثير الرغبة فى السلعة ويرفع ثمنها ،وهو لا يريد شراءها .

ثالثها : لا يبع الرجل على بيع أخيه ، والرواة يقولون لا يبيع الرجل بإثبات الياء ، والفعل غير مجزوم ، وهذا لحن ، فإن صحت الرواية فتكون لا نافية متضمنة معنى النهى ؛ لأنه إذا نفى هذا البيع ، فكأنه طلب إعدامه أو دوام إعدامه .

فنهى رسول الله ﷺ عن صورة هذا البيع كأن يقول للبائع : افسخ هذا البيع وأنا أبيعك مثله بأقل من السعر الذى أخذت به .

أو يقول افسخ بيعك وأنا أشترى منك بأكثر مما بعت به ، فإذا اتفق صاحب السلعة والراغب فيها على البيع واستقرا على تحديد الثمن دون أن يتم تحرير عقد بذلك ، فيأتى شخص آخر ويقول لصاحبها : أنا أشتريها بأكثر ، أو للراغب إنما أبيعك خيرا منها بأرخص ، فهذا حرام ومرتكبه آثم قطعا .

ونهى رسول الله ﷺ أن يخطب الرجل على خطبة أخيه ، لأنه يلقى الضغينة فى النفوس ويفسد العلاقات بين الأسر ، وصورته أن يخطب الرجل المرأة فتركن هى إليه ، ويتفقا على صداق معلوم ولم يبق إلا العقد ، فيجئ آخر ويتقدم للخطبة ويزيد فى الصداق .

ونهى رسول الله ﷺ أخيرا أن تأتى المرأة الأجنبية وتسأل الزوج طلاق زوجته لينكحِها ، ويصيرَ لها من نفقته ومعاشرته ما كان للمطلقة ، وشبه رسول الله ﷺ هذا الفعل بقلب الإناء الممتلئ ، فإذا انقلب الإناء أفرغ مما فيه من الخير ، لطلاقه لزوجه ، وتحصل هى على ما كان فى الإناء وهذا مثل لإمالة الضرّة حق صاحبتها من زوجها إلى نفسها .

بدأ رسول الله ﷺ الحديث بجملة خبرية (نهى رسول الله) وأتبع هذه الجملة الخبرية بجملة إنشائية (ولا تناجشوا) وكان حق الجملة الثانية أن تأتى بدون الواو ،

إذ لا يصح عطف الإنشاء على الخبر ، ولكن صح هنا العطف ؛ لأن الإنشائية فى تقدير الخبرية ، أى : وقال لا تناجشوا .

أما قوله بعد ذلك (ولا يبيع الرجل على بيع أخيه) إن جعلت خبرية قدرنا التقدير السابق أى وقال : لا يبيع الرجل ، أما إذا كانت إنشائية أى نهيا ، فعطفُ الإنشاء على الإنشاء جائز .

وقوله (ولا تسأل المرأة طلاق أختها) عبر بلفظة الأخت ، حتى يزيدها حنانا عليها ويُدينَها بما اقترفته يداها فى سؤالها الطلاق والاستيلاء على زوجها .

وانظر إلى هذا التعبير الرائع وهو قوله (لتكفأ ما فى إنائها) إذ كبّت الإناء وقلبته فجعلت عاليه سافله وسافله عاليه ، استعار ذلك لحالة الزوجة التى تنقلب حياتها فتصبح جحيما بعد أن كانت نعيما ، وشقاء بعد أن أمست سعادة ، وشبه حياتها المستقرة فى بيت الزوجية بالإناء الذى يحتوى ما بداخله ويستقر فيه دون أن يكون هناك ما يدعو لسكبه خارج الإناء ، حتى تجئ اليد الآثمة فتسكب ما بداخل الإناء وتطرده خارجه .

فحص السلعة قبل الشراء

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال :

(كان الناس فى عهد رسول الله ﷺ يتبايعون الثمار ، فإذا جدّ الناس وحضر تقاضيهم ، قال المبتاع : إنه أصاب الثمَر الدُّمان ، أصابه مُراض ، أصابه قُشامٌ عاهات ، يحتجون بها ، فقال رسول الله ﷺ لما كثرت عنده الخصومة فى ذلك : فإما لا ، فلا تتبايعوا حتى يبدوَ صلاح الثمرة ، كالمشورة يشير بها لكثرة خصومتهم) . رواه البخارى

★ ★ ★ ★

يريد رسول الله ﷺ أن ينشر الحب والمودة بين المسلمين ، وأن تتم الأمور بينهم فى هدوء دون منازعة أو خصومة ، فإذا وقع النزاع بين المسلمين واشتدت الخصومة بينهم ، فتش الرسول ﷺ عن الأسباب التى تدعو إلى هذا النزاع فيعمل على إزالتها وتبديدها . وما جاء فى هذا الحديث النبوى يؤكد ذلك .

فقد كان الناس فى أيام رسول الله ﷺ يتاجرون فى تمر النخيل ، فإذا عزموا على البيع ، وتم عقد الصفقة ، قطعوا النخيل وجذوا ثماره ، فوجدوا فيه عيوبا كانوا يظنون أن الثمرة بريئة منه ، وجدوا فيه الدمان وهو أن يدب الفساد فى طلعه قبل أن يدرك نضجه ، فيخرج قلب النخلة أسود معفونا ، وأصابته العلل والأمراض ، فيسقط الثمر قبل أن يصير بلحا ورطبا ، فلا يريد المشترى أن يأخذه ولا يريد البائع أن يسترده ، فتحدث المنازعات والخصومات وكل من المشترى والبائع يقول إنه صاحب الحق فى ثمنه أو فى الحصول على بلح جيد لا عيب فيه .

فلما كثرت الخصومات بين الناس فى ذلك الأمر نبههم رسول الله ﷺ إما إلى ترك المبيعات بهذه الطريقة أصلا ، أو تركها حتى يبدو صلاح الثمر ، فتنضج وتحلو وتظهر حمرتها أو صفرتها ويطيب أكلها .

وقوله يتبايعون الثمار ، أي يبيع بعضهم لبعض دل عليه المفاعلة (وجدّ الناس) أى قطعوا ثمر النخيل .

وقوله (أصاب الثمر الدمان) قدم المفعول به للاهتمام بشأن الثمر الذى أصابه العفن والسواد والآفات التى تصيب الثمار من قبل أن تنضج .

وكرر ما أصاب الثمر من مرض ولكن بأسلوب مختلف ، أصابه الدمان ، أصابه مراض ، أصاب قشام ، وكلها تبين ما أصاب الثمر من مرض ، ولذا لم يذكر حرف العطف بين الجمل ، فالجملة الثالثة بدل من الثانية ، والثانية بدل من الأولى، وتشتمل على معناها ، فهى تزيده وضوحا وبيانا .

وقوله (عاهات يحتجون بها) أى هذه الأمور الثلاثة عاهات يحتجون بها ، فحذف المسند إليه إيجازا واختصارا .

وقوله (فإما لا) أي فإن لا تتركوا هذه المبايعة ، وزيدت كلمة (ما) للتوكيد وأدغمت فى النون وحذف الفعل ، كما تقول العرب ، من سلم عليك فسلم عليه ومن أى ومن لا يسلم عليك فلا تسلم عليه ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا ﴾ (مريم : ٢٦) فزيدت ما للتوكيد .

ونهى رسول الله ﷺ عن المبايعة إلا إذا ظهرت الثمرة ووضح طيبها أو فسادها ، فإذا تم البيع ، تمّ والمشترى يعلم بحال الثمر ، فلا يحدث النزاع بين البائع والمشترى ، وتتلاشى الخصومة بين الناس فى البيع والشراء .

وشبه رسول الله ﷺ البيع مع ظهور حال الثمر من الفساد للمشترى ، بالمشورة وعندئذ لا تجرى المنازعة . فالمشورة دعوة إلى الشراء إذا تكامل صلاح الثمر ، وعلل النهى عن المبايعة بكثرة الخصومة التى جاءت فى خاتمة الحديث .

كشف الستر

عن أبى هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (كل أمتى معافًى إلا المجاهرين ، وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملا ، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول : يا فلان عملتُ البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربّه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه) . رواه البخارى

★ ★ ★ ★

إن ستر الله على المؤمن يستلزم أولا ستر المؤمن على نفسه ، فمن قصد إظهار المعصية والمجاهرة بها ، فقد أغضب الله تعالى عليه فلم يستره . ومن قصد التستر بها حياء من ربه ومن الناس ، منّ الله عليه بستره .

وفى الحديث إيجاز واضح : أى أن كل أمتى معافًى من ذنبه مستور عليه إلا الفئة التى تجاهر بالمعاصى التى ارتكبتها ، فعلى الرغم من أن الله ستر على العاصى وقت ارتكاب فعلته ، إلا أنه أبى إلا أن يفشيها للناس ، فيهتك الله ستره ويذيع أمره بين الناس ؛ لأنه هو الذى جاهر بالمعصية ، وخلع عن نفسه ثوب الحياء.

فمن المجانة وهى عدم المبالاة بالقول أو الفعل ، فهو يقول ما لا ينبغى أن يقال ، ويفعل مالا يحق أن يفعل، ولا يبالى أن يفعل ذلك مخالفا لما تعارف عليه الخلق الكريم ، ثم يجاهر بذلك ، وكأنه فعل ما يمدح به لا ما يندم عليه .

فمن المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملا ، أى عملا قبيحا يؤاخذه الله على ارتكابه ، وكلمة بالليل توحى ارتكابه للإثم الذى يرتكب خفية بعيدا عن الأعين ، كالزنا والسرقة ، فإذا أصبح الصباح وقد ستر الله ما فعل إلا أنه يجاهر بمعصيته فخورًا بما ارتكب ، فكيف يعفو الله عن المجاهر بالمعصية ، وكيف يغفر للفاسق

المجاهر بفسقه وبدعته ؟ فيتحدث مع العصاة من أمثاله ، متباهيا بفحشه وخناه والخوض فى أعراض الناس . وأنه فعل بالأمس ما فعل ، وبذلك يكشف الستر عن نفسه ، فيكشف ستر الله عنه .

والحديث فيه محسنات تزيده حسنا وجمالا كالطباق بين بات ويصبح ، ويستر ويكشف .

الفتن

عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال :

(يتقارب الزمان ، وينقُص العملُ ، ويلْقَى الشحُّ ، وتظهرُ الفتن ، ويكثر الهرَجُ قالوا يا رسول الله أيُّمُ ؟ قال : القتلُ القتل) . رواه البخارى

★ ★ ★ ★

سيأتى أيام بعد زمان الرسول ﷺ يفسد فيها الخلق ويعيث الناس فى الأرض فسادا ، ويقل الدين ، وتزيد المنكرات ، ويعمّ القتل والقتال .ويتقارب الزمن حتى تكون السنة كالشهر ، والشهر كاليوم ، واليوم كالساعة الواحدة ، والناس ترتع فى الموبقات ، وتستلذ العيش بها ، فأيام السرور قصار .

أو أن الساعة تدنو فتقل الأيام وتقصر الليالى ، وتتقلب الأحوال ، ويترك العلم ويفشو الجهل ،وتسرع الدول إلى الفناء ، والقرون إلى الانقضاء ، فيتقارب الزمان وتدنو الأيام ، فلا تجد من يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر ؛ لغلبة الفسق وظهور أهله ، وقد جاء فى الحديث : لا يزال الناس بخير ما كان فيهم أهل فضل وصلاح يلجأ إليهم عند الشدائد ، ويحتمى بآرائهم ، ويتبرك بدعائهم .

ويُلقى الشحّ والحرص فى قلوب الناس على اختلاف أحوالهم وما يترتب على ذلك من مفاسد ، وامتناع عن ما يجب عليهم من قضاء الدين ، وسلب حقوق الناس ويكثر ذلك ويغلب عليهم ، حتى يصبح عادة عندهم فيأكلون أموال غيرهم.

وتكثر الفتن وتنتشر حتى تعم البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، كما يكثر الهرج ، والهرج بلسان الحبشة القتل . وأصل الهرج فى اللغة العربية الاختلاط ، تقول : هرج الناس إذا خلطوا فى الكلام واختلفوا ، وهرج القوم فى حديثهم : إذا أكثروا وخلطوا ، فالكلمة عربية صحيحة ، وتستعمل فى القتل مجازا ؛ لأن اختلاط

الحديث مع الاختلاف يفضى كثيرا إلى القتل ، واستعمال العرب الهرج بمعنى القتل لا يمنع كونها من لغة الحبش .

فسألوا رسول الله : أيُّم ؟ أى : أى شىء الهرج ؟ قال القتل القتل مكررا تأكيدا على معنى الهرج بأنه القتل ، وفى الحديث تخويف وهو : لون من ألوان البديع يَظهر فى تناسق الجمل وتوازنها فى المقادير والوزن ، مما يعطى الحديث النبوى سحرا وروعة وجمالا .

عبد الدينار

عن أبى هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ :

(تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة ، إن أعطى رضى ، وإن لم يُعط لم يرض) . رواه البخارى

★ ★ ★ ★

بدأ رسول الله ﷺ حديثه بالدعاء على من يستهويه الدرهم والدينار ، فلا يعرف غيره ، ولا يسعى إلى شىء سواه ، فهو معبوده الذى لا يدين لشىء أو لأحد غيره .

فالرسول يدعو على من كانت هذه صفته بالويل والعثار والبعد عن رحمة الله؛ لأنه جعل من نفسه خادما للمال ، حريصا على جمعه ، قائما على حفظه ، فكأنه لذلك عبد للمال ، فعبد الدينار والدرهم ، تعبير مجازى يبين مدى انغماس المرء فى المادة وحبّه لها .

وخص كلمة (العبد) بالذكر ، ليظهر شدة حبه للدنيا وشهواتها ، حتى صار كالأسير الذى لا يجد خلاصا من الأسر .

ولم يقل مالك الدينار أو جامع الدينار ؛ لأن المذموم ليس الملك أو الجمع ، وإنما المذمم هو الزيادة على قدر الحاجة ، ولا يتوافر ذلك إلا بالتعبير عنه بكلمة (عبد الدينار) أو (عبد الدرهم) .

والقطيفة وهو الثوب الذى له خمْل ، وهى معروفة عند عامة الناس .

والخميصة ثوب أسود مربع، ويمكن أن يطلق على العباءة التى يلبسها الرجل للزينة ، وقوله إن أعطي منها رضى وإن لم يعط سخط ، اقتباس من قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ (التوبة : ٥٨) .

وصدق رسول الله حين يقول : (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب) فهو نهم لا يشبع من الدنيا حتى يموت ، وهو دائم الطلب للمال وتحصيل الملذات من أكل وشرب وشهوة ، فلا يشبع مَن خُلق من التراب إلا بالعودة إلى التراب .

وبين إن أعطى رضى وإن لم يُعط لم يرض . مقابلة بالسلب ، فذكر الكلام وضده مرة بالإيجاب ومرة بالنفى ، وهذا يعطى الكلام عموما وشمولا ودقة وتحديدا للمعنى .

نقص الإيمان

عن أبى هريرة رضي الله عنه : قال النبى ﷺ :

(لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نُهبةً يرفع الناسُ إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن) . رواه البخارى

★ ★ ★ ★

يقول المصطفى ﷺ : لا يزنى الشخص الذى يزنى وهو مستكمل لشرائط الإيمان ، فيزول منه الثناء بالإيمان ، وليس المراد نفس الإيمان ، إلا إذا استمر على ذلك الفعل أو استحله ، عندئذ لا يكون مؤمنا ويعد كافرا ، فينزع عنه نور الإيمان .

ولا يشرب الشارب الخمر ، إذا كان مؤمنا ، لأن المؤمن لا يقترف هذه الفعلة . وكذلك إذا سرق لا يكون كامل الإيمان ولا يتصف بأنه مؤمن ؛ لأن السارق استحل مال غيره الذى توصل إليه بالتعب والعرق ، استحله دون جهد منه ، وقطف ثمرته دون حق ، فجاءه المال سهلا دون أن يبذل فيه شيئا ، وهذا أمر ينفر عنه الشرع وينهى عنه رسول الله ﷺ .

ولا ينتهب نهبة ذات قدر عظيم وشرف كبير ، يستشرق الناس لها ناظرين إليها رافعين أبصارهم ، لأنه انتهك شيئا خطيرا ونفذ أمرا جسيما ،كأن يغتصب حقا من حقوق العباد ، أو يتجاسر فيسطو على شىء من ملكية الغير .

هذا كله نهى رسول الله ﷺ عن اقترافه ، وأن الرجل المسلم حين يفعل شيئا من ذلك تنتفى عنه صفة الإيمان الكامل ، أجل هو مؤمن لأنه يعترف بوجود الله

ورسالة نبيه ، ولكن كمال الإيمان يكون بالمعاملة الحسنة والمعاشرة الطيبة مع الجار والإخوان ، فإذا انتفى ذلك انتفى عنه الإيمان الحقيقى الكامل .

قد يرد اعتراض بأن حديث رسول الله الذى رواه أبو ذر (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق) قلنا إن المراد من نفى الشىء كماله ، كما يقول لا مال إلا الإبل ، ولا علم إلا بما نفع ، مثل هذا التأويل ظاهر شائع فى اللغة العربية.

أربع فقرات وردت فى حديث رسول الله ﷺ كلها تنفى الإيمان الكامل عمنْ يقترفها أو يقترف واحدة منها :

فتنفى الإيمان عن الزانى ، وعن شارب الخمر وعن السارق ، والمغتصب ، لأن الرجل حين يرتكب ذلك ، يكون فى هذا الوقت غائبا عن الإيمان وعن شريعة الإسلام .

فإذا انتهى من فعلته ، عاد إلى صوابه ، وندم على ما اقترف ، وأنب نفسه على ما فعل ، فهو مؤمن إلا أنه قد تخلى عن إيمانه فى هذه اللحظة .

فالله ينتزع منه نور الإيمان ، ويجعله كمن يتخبط فى ظلام دامس لا يهتدى فيه لشىء ، ولن يصل إلى بر الأمان إلا بالتوبة ، والعزم على عدم الرجوع إلى الفعل.

حق الطريق

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال :

(إياكم والجلوس على الطرقات ، فقالوا : ما لنا بدٌ ، إنما هى مجالسنا نتحدث فيها ، قال : فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها ، قالوا : وما حق الطريق ؟ قال : غضُّ البصر ، وكفّ الأذى ، وردُ السلام ، وأمرٌ بالمعروف ونهىٌ عن المنكر) . رواه البخارى

★ ★ ★ ★

حذر رسول الله ﷺ من بعض الأشياء وعدها من المنكرات التى ينبغى علينا أن نتجنبها ونبتعد عنها كلّية ، ومن أهم الأشياء التى طالبنا الرسول ﷺ بتجنبها ، الوقوف على قارعة الطريق ، وهى عادة بغيضة مرذولة يستمرئها شباب اليوم ، فيتحلقون فى منافذ الطرق ، ولا يسلم من ألفاظهم الغادى والرائح ، مما يسبب لفتياتنا الحرج والضيق .

قال رسول الله ﷺ ما معناه : فإن لم يستغنوا عن الجلوس أمام البيوت والطرقات فعليكم أن تراعوا حق الطريق ، وألا تؤذوا مشاعر الآخرين لا بالفعل ولا بالقول .

ومن أبغض هذه الأمور التى ينهانا رسول الله عن فعلها : أن نتطلع بأبصارنا إلى من يسير فى الطريق ، فنرشقه بنظراتنا ، صعودا وهبوطا ، فيتأذى السائر فى الطريق ، وخاصة الفتيات اللاتى يملؤهن الحياء والخفر ، كما أراد رسول الله ﷺ من غض البصر : السلامة من التعرض للفتنة بسبب من يمر من النساء ، فربما يجد الشاب فيهن مايتعلق به فيشتهيه ويهيم به ، فيؤدى به إلى ارتكاب فعل فاضح فى الطريق العام ، قولا أو فعلا .

ونهى أيضا عن كف الأذى ، بعمومه على الإطلاق ، حتى لا يتعرض أحد لما يؤذى مشاعره ، فإماطة الأذى ورفعه عن الطريق صدقة ، وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (بينما رجل يمشى إذ وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له) ورفع الأذى عن الطريق يعدّ صدقة ؛ لما فيه من إيصال النفع إلى المتصدق عليه ، وأن الذى أماط الأذى عن الطريق قد تصدق عليه بالسلامة ، فكان له أجر صدقة .

ومن حق الطريق : رد السلام على من يلقيه من المارين ؛ لأن فى الرد إشاعة للسلامة بين الناس وغرسها فى القلوب ، فتمتلئ محبة ومودة ، ويزول منها ما يكون قد علق بها من كره وإهمال ، ولذا فقد أوجب الشرع رد السلام ؛ إن كان السامع منفردا ، أو كان مع غيره فيؤدى أحد السامعين الرد كأنه ناب عن الآخرين .

وطالب رسول الله ﷺ الجالس على الطريق بأن يكون ذا نفع لغيره .

ومن نفعه أن يأمر بالمعروف ، وهو أمر جامع لما عرف من طاعة الله تعالى ، والتقرب إليه والإحسان إلى الناس ، وكل ما ندب إليه الشرع من الحسنات .

ونهى عن كل المنكرات وعن كل ما قبّحه الشرع أو حرمه أو كرّهه .وقد لا يقع شىء من المنكرات فى الطريق أو من الجلوس على قارعته ، ولكن الأمر بعدم الجلوس فيه سد للذرائع ، التى تؤدى إلى الوقوع فى المعاصى والإثم ، وقبل أن نتجنب الإثم ينبغى أن نتجنب ما يدعو إلى الإثم ويحض عليه ، وهذا أسلم من التردى فيه ومحاولة الخلاص منه .

كان الناس يجلسون فى المساجد فى عهد رسول الله وعهد الخلفاء أبى بكر وعمر وعثمان ، فلما قتل عثمان رضي الله عنه خرجوا إلى الطريق يسألون عن الأخبار ، فكان منهم من يجلس أمام داره ، ومنهم من يجلس إلى الطريق وأخذت هذه العادة فى الانتشار ، حتى كان الرجل يسمع مالا يحب سماعه ، ويرى ما يكره رؤيته ، وما يجب عليه إنكاره .

أمـا إذا لم يكن هنـاك بد من الجلوس فى الطريق ، كحـالة البيع أو الشـراء ، فعليه أن يجتنب ما نهى عنه ، أو ما يؤدى إلى الخير .

فـالرجل يؤجـر على إمـاطة الأذى عن الطريق ، أى نوع من الأذى يؤدى إلى معصية ؛ بل عليه أن يسعى جاهدا للبعد عنها ، فلا يفعل إلا الخير أو ما لا يؤذى حقيرا أو جليلا .

حتى إزالة الشوكة أو العظمة أو الحجر عن الطريق صدقة ، ورفع الكناسة وإزالة المياه الراكدة المفسدة للطرق صدقة ، والبعد عما يؤذى الناس ويسبب لهم الضيق فى حياتهم وأعمالهم يُعدّ له صدقة ، ولاشك أن ذلك كله من أعمال البر ، وأن أعمال البر تكفر السيئات وتوجب الغفران ، فإماطة الأذى شعبة من شعب الإيمان ، والله يقول : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة :٧/٨) .

وفى قـول الرسـول ﷺ (إياكم والجلوس) أسلوب تحـذير أى اتقـوا الجلوس واتركوه على الطرقات ، وقوله (وإذا أبيتم إلا المجالس) ، أسلوب فيه معنى الحصر والتخصيص ، أى إذا لم تستطيعوا إلا الجلوس ، فعليكم أن تلتزموا بقواعد الأدب والذوق السليم ، فلا تغامز ولا رفع صوت ، ولا شىء يقترف مما يدخل فى الأذى.

وهذه الجمل التى وردت متعاقبة متآخية متوازية مما تكسب الأسلوب جمالا وروعة وهى : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام، ثم المقابلة بين قوله ﷺ : أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، مما يفيد الشمول والعموم ، فالشىء لا يخرج عن كونه أمرا أو نهيا ، أو معروفا أو منكرا ، ولا شئ غير ذلك.

عقوق الوالدين

عن انس ﷺ قال : سئل رسول الله ﷺ عن الكبائر .

(قال : الإشراك بالله ، عقوق الوالدين ، وقتل النفس ، وشهادة الزور) .

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

سئل رسول الله ﷺ عن الكبائر ، وهى جمع كبيرة ، والكبيرة هى الفعلة القبيحة من الذنوب المنهى عنها كالقتل والزنا ، وكل ذنب يؤدى إلى العذاب واللعنة من الله سبحانه .

وفى حديث أبى هريرة : {اجتنبوا السبع الموبقات وهى : الإشراك بالله ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، والسحر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات} .

إلا أن الرسول ﷺ خص هذه الأربعة بالذكر فى الحديث الذى معنا ؛ لأنها أكبر الكبائر والشرك أعظمها ، ولا ذنب أشد منه وأعظم مقتا .

ومن الكبائر عقوق الوالدين ، والعاقّ : هو الذى شق عصا الطاعة لوالديه ، فعدم طاعة الوالدين معصية لهما ، حتى حرم على الولد الجهاد بغير إذنهما ؛ لما يشق عليهما من توقع قتله ، أو بتر عضو من أعضائه ، وشدة خوفهما وتفجعهما عليه.

وألحقه بالشرك لأنه يشبهه ، من حيث إن الأب سبب فى وجود الابن ، وهو الذى يربيه ويوليه اهتمامه ورعايته ، فعندما يخالف الولد أبويه ويعصيهما ولم يأبه برأيهما ، فكأنه أشرك معهما رأيا آخر اتبعه وترك ما يأمرانه به ، ومن الأمور

المنهى عنها قتل النفس بغير الحق ، وقد أوعد الله القاتل بقوله ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ (النساء : ٩٣) .

ونهى أيضا عن قول الزور ؛ لأن المزور يثبت الحق لغير مستحقه ، والله سبحانه يقول : ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (الحج :٣٠) .

ولأن شهادة الزور أسهل وقوعا عند الناس ، ودوافعها كثيرة من العداوة والحقد والحسد وغير ذلك ، فكان ذلك مدعاة للاهتمام بشأنها وذكرها .

والشهادة على زور هى الشهادة على جور ، وهو الظلم والميل عن الحق.

وشاهد الزور يجلد بالسوط ، ويفضح فى الأسواق، أو يعزر بشىء يراه القاضى ، ولا يبلغ بالتعزير أربعين سوطا كما يقول الإمام الشافعى .

وعلي الرغم من الإثم الكبير الذى يرتكبه المرء إذا شهد زورا ، أو قتل نفسا إلا أن الرسول ﷺ قدم عقوق الوالدين عليها ، وجعله مصاحبا للشرك بالله ، مما يدل على فظاعة العقوق وعدم طاعة الوالدين أو التهاون فى شأنهما .

أشراط الساعة

عن انس بن مالك رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : {إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويثبت الجهل ، ويشرب الخمر ، ويظهر الزنا} . رواه البخارى

★ ★ ★ ★

ذكر رسول الله ﷺ أربعا من علامات الساعة ، ولم يذكر علاماتها جميعا ، **فالعلامة الأولى :** أن يُرفعَ العلم ، بأن يموت حملته ، ويُقبضَ العلماء ، فإذا لم يبق عالم ، اتخذ الناس رؤساء لهم يتصفون بالجهل ، وإذا سألوهم افتوْهم بغير علم فيحيق الضلال بهم فَيضلون ، يسهمون بذلك فى إضلال الناس فيُضلون ، وليس المراد محوَ العلم من الصدور ، صدورِ الحفاظ وقلوب العلماء .

والعلامة الثانية : أن يفشوَ الجهلُ وينتشرَ بين الناس ، ويعمَّ حياتَهم ، وعندئذ لا يمكنهم أن يتصرفوا تصرفا ينبئ عن فكر وروية ، وإنما يتصرفون خبط عشواء دون تروّ ، فيتراكم الجهل عليهم ، ويتحكمُ فى حياتهم ، ويَثبتُ بينهم كما يثبت الجبل على ظهر الأرض ، فيثبت معها دون أن تحيد عن حركتها .

فكأنه شبه الجهل الذى ران على القلوب حتى طغى على أصحابها وعلا فيهم، بالجبل فى علوه وشموخه دون أن يطاوله أحد أويحاذيه شىء .

فرفْعُ العلم وإثبات الجهل فيه مقابلةٌ جميلة توضح سلبَ العلم ونشرَ الجهل توضيحا شديدا وتزيدُه تأكيدا .

والعلامة الثالثة من علامات الساعة : هى شرب الخمر ؛ لأنها تعمل على تغطية العقل وسترِه عن الرؤية الحقيقة والإدراك الواعى ، فإذا تصرف الناس دون

عقل أو تفكير ، فقد ثبت جهلُهم وزال علمُهم ، ولاشك أن لحظات السكر وما يترتب عليها قبل الإفاقة تَشُلّ التفكير ، أو يلومُ نفسه عليه بعد أن يَذهب أثر السكر ، ويُفيق من غيبوبته.

أما العلامة الرابعة : أن ينتشر الزنا بين الناس ؛ لأن شرب الخمر يدعو إلى الفسق والفجور ، فيتجرأ المرء على هتك الحرمات ، وثلم الأعراض ، فالزنا والخمر من واد واحد ، وبينهما ارتباط كارتباط المسبب بأسبابه .

وهذه الجمل الأربع التى جاءت في الحديث : أن يُرفع العلم ويثبتَ الجهلُ ويُشربَ الخمر ويظهَر الزنا ، تراها جملا متساوية متوازية فى حروفها وأفعالها، وفى حركاتها وسكناتها ، مما يعطى سحرا وخِلابة ، فيسهلُ حِفظه ، ويستقرُ فى النفس كل الاستقرار .

دم المسلم

عن عبدالله بن عمر قال : قام فينا رسول الله ﷺ فقال :

{والذى لا إله غيره لا يحل دم رجل مسلم يشهد ألا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا ثلاثة نفر :

التارك للإسلام ، المفارق للجماعة ، والثيب الزانى ، والنفس بالنفس} . رواه البخارى

★ ★ ★ ★

أقسم رسول الله ﷺ بأنه لايحل دمُ امرئ تلفظ بكلمات الشهادة وهى لا إله إلا ا لله محمد رسول الله ، إلا في حالات ثلاث :

الحالة الأولى : إذا ارتد عن الإسلام بقول أو فعل ، بقول : كأنه ينفِى رسالة محمد ، أو ينكرها ، أو يسخر من الرسول الكريم ، أو يهزأ بتعاليم الشرع.

أو فعل : كأن يشرك بالله بأن يعبد غير الله ، أو مع الله ، أو يسجد لصنم أو لأحد مظاهر الكون كالشمس أو النار أو كوكب من الكواكب .

ومن يترك الإسلام يعد مفارقا للجماعة ، وخارجا عن تعاليم الشرع ، فجملة (المفارق للجماعة) بينت المقصود من الجملة السابقة وهى (التارك للإسلام) ولذا اتصلت بها اتصالا وثيقا دون حرف العطف ، وكأن الجملتين صارتا جملة واحدة لأن معناهما واحد.

والحالة الثانية : أن يرتكب الثيب - المتزوج - جريمةَ الزنا ؛ لأنها عدوان على حقّ الغير ، وانتهاكٌ لحرمته ، ولما تؤدى إليه من ذيوع الفسق واختلاط الأنساب بين الناس ، خاصة أن المتزوج لا عذر له فى ارتكاب جريمته .

هذه الجريمة البشعة التى تدمر روح المرء ، وتزيلُ عنها طهارتها ، وتنحدرُ بها إلى مهاوى الفساد والرذيلة ، لايصح أن تلحق بالمؤمن ، وإذا ارتكبها المسلم ، فليس بمسلم حين يقترفها.

والحالة الثالثة : أن يقتل المسلم نفسا وهو متعمد دون وجه حق ، فيكون جزاؤه القتل قصاصا ، لأنه قتل إثما وعدوانا فيحلّ قتلهُ ، ويُهدرُ دمُه جزاء وفاقا لفعلته الشريرة الدنيئة .

هذه الخطبة يتمثل فيها الردع عن إراقة دم المسلم ؛ لأن النفس كريمة على الله ، كريمةٌ بين الخلق ، فيجب احترامها وعدمُ ابتذالِها . سواء بالزلل أو التهتك.

كما يتمثل فى كل فقرة من فقراتها ، أسلوب بلاغى يبهر العين والنفس معا ، بدت الخطبة بالقسم لإشعار المخاطب أن ما يأتى عده غاية فى الأهمية وينبغى التمسك به وعدمُ التهاون فيه.

ثم يأتى بعد ذلك التخصيص بأن الله هو الإله الأحد ، الفرد الصمد ، وليس لغيره أن يوصف بهذه الصفة .

ويُعقب هذا التخصيص الغرض من الخطبة ، وهو نفى إراقة دم المسلم مهما كان الأمر ، لم يحدد مسلما بعينه ، وإنما كان هذا التحريم يشمل كل مسلم . صغيرا أو كبيرا ، غنيا أو فقيرا ، ولذا جاء التنكير بقوله (لايحل دم رجل مسلم) تعظيما لشأن الرجل باعتناقه الإسلام .

ثم وضح إسلامه بقوله (يشهد أن لا إلا الله وأنى رسول الله) أى رجل هذه صفته ، وهذه عقيدته ، ومن كان كذلك لايحل قتله أو سفك دمه ، لأن الدم ذكى طاهر ، إلا إذا خرج عن الإسلام وتعاليمه.

وانظر إلى هذه الجمل الثلاث التي جاءت متآخية متوازنه وهى :

(التارك الإسلام ، والثيب الزانى ، والنفس بالنفس) عطف كلا منها على الأخرى لوجود المناسبة بينها جميعا ، حيث اشتراكها فى مخالفة شريعة الله سبحانه، فلزم الترابط بينها بالواو .

والتعبير بقوله : (لايحل دم رجل مسلم ... إلا ثلاثة نفر) جاء مبهما ثم وضحه بقوله (التارك للإسلام ، والثيب الزانى ، والنفس بالنفس) فأزال الإبهام ، وفصّل الإجمال .

وفى قوله ﷺ (لايحل دم رجل مسلم) كناية عن قتله وإن لم يُرق له قطرةَ دم.

(والثيب الزانى) ينطبق على الرجل والمرأة كليهما بأن يتأتى منهما النكاح ، أى : البالغ المكلف .

وقوله (ثلاثة نفر) أى أن حلّ الدم لا يتجاوز هؤلاء الأصناف الثلاثة ولارابع لهم .

هذه الخطبة القصيرة غنية بالأساليب البلاغية التى تحدد المعنى ، وتصلُ إلى الغرض فى أبسط عبارة وأخصرِ لفظ .

كنوز كسرى وقيصر

عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال :

{هلك كسرى ، ثم لايكون كسرى بعده ، وقيصر ليهلكَنّ ، ثم لايكون قيصرُ بعده ، ولتُقَسّمَنّ كنوزهما فى سبيل الله ، وسمّى الحربَ خُدعةَ} .

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

كسرى هو لقب ملك الفرس ، وقيصر لقب ملك الروم.

قال رسول الله ﷺ {هلك كسرى} معبرا بالفعل الماضى ، وقال ليهلكنّ قيصر ، بالفعل المضارع ؛ لأن كسرى الذى كان فى عهد رسول الله كان هالكا فى ذلك الوقت ، وأما قيصر فكان حيا ، ولذا كان التعبير بالماضى فيمن هلك ، وبالمضارع فيمن سيهلك .

وروى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : {قد مات كسرى فلا كسرى بعده . وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله} . والفرق بين مارواه مسلم وبين الحديث المذكور : أنه أكد الماضى بقد، إذ لايجوز أن يقول إذا مات كسرى وهو ميت بالفعل .

أما قوله (إذا هلك قيصر) فعبر بإذا ؛ لأن إذا تفيد الاستقبال ، وأن قيصر سيموت لامحالة ، إلا أن هلاك ملكه لم يقع إلا بعد وفاة الرسول وموت أبى بكر رضي الله عنه ، وإنما هلك ملكه فى خلافة عمر ، وتلاشى فى أيام عثمان رضى الله عنهما .

وأكد رسول الله ﷺ هلاك ملك قيصر فى حياته ، وهى حياة كلها أبهة وعظمة ، مما يدل على تحقق النبوءة ، وهذا يعد من مكرمات رسول الله ومعجزاته؛ بل إنه نفى أن يأتى بعد هلاك قيصر قيصرُ آخر .

وأقسم برب العزة أن يقسم كلَّ ما يترك كلٌّ من كسرى وقيصر من كنوز فى سبيل الله ، وأكد قسمه باللام ونون التوكيد .

وقد دعا النبى ﷺ لقيصر لما قرأ كتابه أن يثبت الله ملكه ، فلم يذهب ملك الروم أصلا إلا من الجهة التى خلا منها ، وأما كسرى فإنه مزق كتاب النبى ﷺ ، فدعا عليه أن يمزق الله ملكه كل ممزق ، فانقطع إلى اليوم وإلى يوم القيامة.

وسمى رسول الله ﷺ {الحرب خدعة} بضم الخاء وفتحها ، والفتح لغة الرسول ﷺ وهى أفصح اللغات ، والخَدعة : المرة الواحدة من الخداع .

والمعنى أن من خدع فيها مرة واحدة عطب وهلك ، ولاعودة له ، لأن الحرب قد تمنى بالظفر والغلبة ثم لاتفى به ، وإذا خدع أحد الفريقين صاحبه فى الحرب وغمى عليه ، ظهر عليه وفاز رغم كثرة عدد العدو وقوة شكيمته ، والحرب بين غالب ومهزوم فهى خداعة.

ففى الحرب تستعمل الحيلة قدر المستطاع ، فإذا أعيتك الحيل فقاتل.

وأصل الخداع : أن يظهر لك المرء خلاف ما يبطن ، وكل شىء تكتمه من غيرك فكأنك تخدعه .

يقول ابن العربى : الخديعة فى الحرب تكون بالتورية ، فتبدى شيئا وتصنع غيره ، فإذا أبديت الشىء اطمأن العدو إلى خطتك وخطّط بما يلائمها ، فإذا صنعت غير ما يتوقع كانت المفاجأة له والظفر لك.

وتكون أيضا بوضع الكمين ، وتكون بخلف الوعد ، وهذه من الأشياء المباحة ، وإن كانت خلف العدو والكذب على عمومه قبيح ، إلا أنه استثنى من القبح إذا كان فى الحرب .

فالكذب قبيح بالإجماع ، وجائز فى مواطن بالإجماع ، وأصل هذه المواضع الحرب ، وقد أذن الله فيه ، وليس للعقل فى تحليله أو تحريمه أثر ، إنما هو إلى الشرع.

يقول بعض أهل السير : قال النبى ﷺ لنعيم بن مسعود يوم الأحزاب : الخداع فى الحرب جائز كيف ما أمكن.

لبس الحرير

عن عقبة بن عامر قال : {أُهدى إلى النبى ﷺ فرّوجُ حرير ، فلبسه فصلى فيه ثم انصرف ، فنزعه نزعا شديدا كالكاره له وقال : لاينبغى هذا للمتقين} . **رواه البخارى**

★ ★ ★ ★

أُهدى رسول الله ﷺ حلة من حرير ، والذى أهداها إليه : أكيدر بن عبدالملك صاحب دومة الجندل ، ودومة الجندل موضع فاصل بين الشام والعراق ، وفروجُ حرير بالإضافة كما تقول : خاتم فضة ، ويجوز أن يكون موصوفاً بأنه من حرير.

حيث أهديت إلى رسول الله ﷺ هذه الحلة لبسها وصلى فيها ، ولكنه كرهها كرها شديدا فنزعها عنه حتى لايقتدى الناس به فيلبسون الحرير ، ولبس الحرير لاينبغى لمن يتقى المعاصى.

وقوله للمتقين يشعر بأن التحريم مرتبط بلبس الرجال للحرير دون النساء ، لأن المتقين جمع للذكور فلا يدخل فيه الإناث ، ولكن يتبادر إلى الذهن هذا **السؤال؟**

إذا كان لبس الحرير حراما على الرجال ، فكيف لبسه رسول الله ﷺ ؟

قلت إن رسول الله ﷺ لبس ثوب الحرير قبل التحريم ، وعندما نهاه جبريل عن ذلك نزعه عن نفسه .

فحرمة لبس الحرير للرجال فى كل الأحوال إلا عند الضرورة كمرض يستدعى لبسه لنعومته على الجلد ، أو حرب حتى يتباهى به فيدب الهلع فى نفوس الأعداء ، أو إذا لم يجد ثوبا غيره ولامناص من لبسه ، وقد قال رسول الله ﷺ :

{الذهب والحرير حلّ لإناث أمتى وحرام على ذكورها} ويروى عن على بن أبى طالب {أن سول الله أخذ حريرا فجعله فى يمينه ، وأخذ ذهبا فجعله فى شماله ثم قال : إن هذين حرام على ذكور أمتى} .

وبناء الفعل للمجهول « أهدى » ليفيد التركيز على الفعل ، أما الذى أهدى الحلة فلا يعتد به فى هذا الحكم الشرعى.

والعطف بالفاء فى قوله {فلبسه فصلى فيه} ليفيد أن الصلاة كانت بعد ارتدائه الحلة بلا مهلة أو تسويف ، فإذا انتهى الرسول من الصلاة وتفقد أحوال المصلين انصرف فعطف بثم ، لأن بين الصلاة والانصراف فترة من الزمن ، وعندما انصرف أخبره جبريل بالنهى عن لبس الحرير ، فنزعه وهو كاره للثوب ، فأكد نزعه بالمصدر والوصف فقال فنزعه نزعا شديداً . ثم شبه نزعه الشديد للحلة الحريرية بأنه كاره لها ، والكاره للشىء ينفر عنه ولا يبقى عليه ، ثم قال لايحق للمؤمن ولايجوز للمسلم أن يرتدى الحرير ، إلا عند الضرورة التى ذكرناها ، فالضرورات تبيح المحظورات .

الشروط الجائزة

عن عائشة ﵂ قالت : صعد رسول الله ﷺ المنبر فقال :

{ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله .؟ من اشترط شرطا ليس فى كتاب الله فليس له ، وإن اشترط مائة مرة}. رواه البخارى

* * * *

يقول المصطفى ﷺ إن من يشترط شرطا لم يكن فى كتاب الله ، فليس له هذا الشرط ، لأنه خارج عن حدود الشريعة الإسلامية ، ولو اشترطه مائة مرة ، وعلينا أن نضرب عن هذا الشرط صفحا لما فيه من فساد.

راعى رسول الله ﷺ أدب الخطاب فى إلقاء خطبته ، فقد أدّبه ربُّه فأحسن تأديبه ، فلم يعيّن من اشترط شروطا يخرج بها عن كتاب الله أو سنة رسوله ، لم يعينه لا باسمه ولا بصفته ، وإنما نكر الكلام تنكيرا فيه إبهام ، حتى لايقع الاتهام على أحد ، فيشتهرَ أمرهُ بين الناس بالفساد والضلال ، فقال {ما بال أقوام} حتى لا يقع المسلمُ فى حرج ، وحتى يعلمنًا كيف يمكن أدبُ الخطاب .

أراد الرسول ﷺ أن يؤكد بعض القوم يشترط مثل هذه الشروط الجائرة ، فاستعمل المصدرَ الذى يفيد المبالغةَ والتأكيد فقال (يشترطون شروطا) وقد عبر بالمصدر منكّرا ، ثم وصف هذه الشروط بأنها خارجة عن كتاب الله ، فاتضح فسادُها للمسلمين حتى ينأوْا عنها ولا يأخذوا بها.

فالرسول ﷺ يستنكر على القوم اشتراطهم أشياء لم تكن في كتاب الله ، ويوبخُهم على اشتراطهم هذه الشروط ، فاستعمل الأسلوب الخبرى : (من اشترط شرطا ليس فى كتاب الله).

وأساس الإنكار والتوبيخ فى هذه الخطبة أنهم يدَّعون الباطل ، يُقحمون على الشريعة الإسلامية ما ليس منها ، فيعكرون صفاءها ، ويطفئون أنوارها ، فهم خارجون عن الشرع وإن كرروا شروطهم مائة مرة.

ثم انظر إلى تكرار هذه العبارة مرة أول الجملة ومرة آخرها ، فرد عجزها على صدرها كما يقول البلاغيون (من اشترط شرطا ليس فى كتاب الله ... وإن اشترط مائة مرة) فكرر ذكر الشرط لإفادة التوكيد والتقرير.

وهكذا افتتحت الخطبة بالإنكار ، وانتقلت إلى التحذير ، وانتهت بفساد الشرط إذا كان خارجا عن كتاب الله ولو تكرر مائة مرة .

عذاب القبر

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

{مـر النبى ﷺ بحـائط من حـيطان المـدينة أو مكة ، فـسمـع صـوت إنسـانين يـعـذبان فى قـبـورهمـا ، فـقـال النبى ﷺ : يُعـذبان ومـا يـعـذبان فى كبيـر ، ثم قال : بلى كان أحدهما لايستتر من بوله ، وكان الآخر : يمشى بالنميمة ، ثم دعا بجريدة فكسرها كِسرتين ، فوضع على قبر كل منهما كسـرة ، فقـيل له : يارسـول الله لم فعلت هـذا ؟ قال ﷺ : لعله أن يُخـفف عنهما ما لم ييبسا أو إلى أن ييبسا}. **رواه البخارى**

★ ★ ★ ★

مر رسول الله ﷺ على بستان من النخيل محاطا بجدار لأم مبشّر الأنصارية، فسمع صوت شخصين يُعذبان فى قبرهما : أحدهما رجل كان لايتطهر من البول ، والآخر لامرأة كانت تمشى بين الناس بالنميمة بنقل الكلام وقصد الإضرار ، وقد نهى الشرع عن أكل لحوم الناس واغتيابهم ، فأخذ سعفة رطبة فشقها ، وجعل على هذا القبر نصفا وعلى ذاك القبر نصفا ، وقال لايُرفعان عنهما حتى يجفّا ، وقال : لايزال يخفف عنهما العذاب مادامتا رطبتين .

وذلك لأن عدم التنزه من البول يلزم منه بطلان الصلاة ، وتركها كبيرة ؛ إذ لامشقة فى التطهر من البول ، ولامشقة فى ترك النميمة ، خاصة عند ذوى النفوس الطاهرة النقية .

ونكر كلمة حائط فى قوله {مر النبى ﷺ بحائط} ؛ لأن المراد ما وقع فيه من عذاب القبر ، فيشمل كل حائط ، وليس حائطا معينا .

وعرف المدينة بأل ولم يعرف مكة فى قوله : من حيطان المدينة أو مكة .. ؛ لأن مكة علم فلا تحتاج إلى التعريف ، ولفظ مدينة يطلق على كل المدن فعرفت باللام حتى يكون المقصود هو مدينة الرسول ﷺ {وما يعذبان فى كبير ثم قال : بلى} ، ولفظ بلى مختص بإيجاب النفى ، فمعناه بلى إنهما ليعذبان فى كبير ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ (النور :١٥) ، وكيف يكون هينا وعدم الاستتار من البول يبطل الصلاة ، والنميمةُ تؤجج النار بين الناس ، وتوقع بينهم الخصومة والقتال .

ولم يصرح الرسول ﷺ باسمهما أو باسم أحدهما ، قصدا للتستر عليهما وخوفا من افتضاح أمرهما ، فالرسول ﷺ من شأنه الرحمةُ والرأفةُ على عباد الله.

وفى قوله (لعله أن يُخفَّف عنهما) استعمل أداة الترجى (لعل) مشبّها لها بعسى التى تفيد التمنى من الله أن يقبل منه الشفاعة.

وليس معنى {كان أحدهما لايستتر من بوله} أنه لايستر جسده عن أنظار الناس ، إنما المراد أنه لايستبرئ من بوله ولا يطهر نفسه ؛ لأنه مقبل على عبادة الصلاة ؛ لقول رسول الله فى حديث آخر {أكثر عذاب القبر من البول} فعدم الاستتار من البول ألا يجعل بين نفسه وبين التطهر حجابا ساترا من ماء أو حجر.

حساب القبر

عن أسماء بنت أبى بكر ﵄ أنها قالت : قال رسول الله ﷺ :

{ما من شئ لم أكن أريته إلا رأيته فى مقامى ، حتى الجنة والنار ، فلقد أوحى إلى أنكم تفتنون فى قبوركم مثل فتنة المسيح الدجال ، يقال: ما علمك بهذا الرجل ؟ فأما المؤمن أو الموقن فيقول : هو محمد رسول الله جاءنا بالبينات والهدى فأجبنا واتبعنا ، فيقال : نم صالحا ، قد علمنا إن كنت لموقنا به ..

وأما المنافق أو المرتاب، فيقول: لا أدرى، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته}. **رواه البخارى**

★ ★ ★ ★

حذر رسول الله ﷺ من فتنة القبر ، ومايكون فيه من أهوال ، فهى أشبهُ شىء بفتنة المسيح الدجال الذى يأتى فى آخر الزمان ليفتن الناس عن دينهم ، وفى ذلك اختبار لقوة إيمان المرء وثباته على دينه ، وفى القبر يُسأل المرء عن نبيّه ، فالمؤمن يقول : إنه محمد ﷺ قد جاءنا بالبينات والهدى ، فأجبناه واتبعناه .

ويقول المنافق : لا أعلم عنه شيئا ، وإنما سمعت الناس يقولون شيئا فقلتهُ.

أكد رسول الله ﷺ فتنة القبر ، حيث كان المؤمنون لايعتقدون أن فى القبر حسابا وعذابا ، فأزال الرسول هذا الإنكار بلام القسم وقد (فلقد أوحى إلىّ) وبنى الفعل للمجهول فقال (تفتنون فى قبوركم) حتى يركز على الفعل وهو تفتنون ، ولا ينصرف الذهنُ إلى شىء آخر غير الفتنة ، فالذى يفتنُهم فى جوف القبر وضيقه ، ماكان لهم من سيئ الأعمال ، أو إشراكهم بالله ، أو إنكارهم لرسالة محمد ، أو عصيانِهم لأمر من أمور الشرع ، ليس المهم أن يكون السبب هذا أو ذاك ؛ بل إن فى القبر فتنة لاجدال فيها ولاشك.

ثم شبه مايحدث فى القبر بأنه يشبه فتنةَ المسيح الدجال فى الابتلاء ، ففتنة القبر اختبار وابتلاء من الله لعباده ، وفتنةُ المسيح الدجال ليُرى إذا كان المرء سوف يَثبت على إيمانه ، أو يتخلى عنه ويَتبعُه فى دجَله ومراءاته ، فتشبيه فتنة القبر بفتنة الدجال هى من تشبيه الشىء المعقول بالشىء المعقول الذى لامدخل للحس فيه ، فيزيد من إدراك المعنى حين يقلّبه الفكر على وجوهه المختلفة.

واستعمال أسلوب القصر فى أول الحديث (ما من شىء لم أكن أُريته إلا رأيتهُ فى مقامى) ليفيد أن ما لم يره أمام بصره فى حياته ، يريه اللهُ له عن طريق الوحى والإلهام ، حتى الجنة ونعيمَها ، والنارَ وعذابها ، وهما أبعد مايكون عن الرؤية في حياة الناس الدنيوية .

واستفهام الملائكة للرجل فى قبره (ماعِلْمك بهذا الرجل؟) ليس هو السؤال عن جهل بعلمه أو جهله بالنبى محمد ، فالملائكةُ تعلم إيمانه أو كفره ، ولاتريد منه أن يقول بأنه هذا أو ذاك ، وإنما تريد أن تخبره أنهم على علم بكل شئونه وأحواله ، وكلمة الرجل هنا كناية عن سيد الخلق أجمعين محمدٍ رسول الله .

والأمر فى قوله الملائكة (نم صالحا فقد علمنا إن كنت لمؤمنا) جاء لإيناسه وهو فى هذه الحجرة الضيقة المظلمة ، التى تتحول إلى فِناء واسع مضىء ، لعلمهم بإيمانه ، وتأكدِهم من هذا الإيمان الذى دل عليه دخول اللام (إن كنت لمؤمنا).

وانظر إلى المقابلة التى تحسن المعنى وتزيدُه جمالا فى قوله (فأما المؤمن أو الموقن .. وأما المنافق أو المرتاب) فالمنافق صفةٌ للكافر وهو ضد المؤمن ، فالتضاد بين الفقرتين واضح لا لبس فيه .

وهكذا نرى فى الحديث براعةَ الاستهلال ، حيث افتَتح الخطبة بأسلوب آخاذ جميل يغرى بسماع مايقول :

ثم الانتقال إلى الغرض ، وهو التحذيرُ من فتنة القبر وفتنةِ الدجال ، فكلاهما أمر واقع لايصح إنكارهُ أو الطعن فيه.

ثم أنهى الخطبة بأحسن مايكون الانتهاء ، ولم يعد ثمة مزيد للقول بعد ذلك.

زيارة القبور

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : {مر النبى ﷺ بامرأة تبكى عند قبر . فقال : اتقى الله واصبرى ، قالت : إليك عنى ، فإنك لم تصب بمصيبتى ولم تعرفه ، فقيل لها : إنه النبى ﷺ ، فأتت باب النبى ﷺ فلم تجد عنده بوابين ، فقالت لم أعرفك ، فقال : إنما الصبر عند الصدمة الأولى}.

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

أتى رسول الله ﷺ على امرأة تبكى على صبى لها ، فقال لها اتقى الله واصبرى ، فقالت : وما تبالى مصيبتى ؟ فهى كبيرة تنشق لها الصدور ، فلما ذهب عنها ، قيل لها : إنه رسول الله ﷺ ، فأخذها مثل الموت من شدة الكرب الذى أصابها عندما عرفت أنه رسول الله ﷺ خجلا منه ومهابة . فلما ذهبت إلى بيت رسول الله ﷺ ، لم تجد على بابه خفرا يمنعون الناس من الدخول عليه ؛ لأنها تصورت أنه مثل الملوك له بوابين يمنعون الناس من الوصول إليه ، فوجدت الأمر على خلاف ما كانت تتصور ، فقالت والله ما عرفتك يارسول الله ، فقال : إنما الصبر الحقيقى هو الذى يكون عند الصدمة الأولى .

مر النبى ﷺ بامرأة .. نكر المرأة إذ كان أنس لايعرف عنها شيئا ولا اسمها تبكى عند قبر ، ووصفها بالبكاء عند قبر من القبور لايعرفه بالتحديد.

فقال لها الرسول : {اتقى الله واصبرى} الأمر هنا يفيد التجمل بالتقوى والصبر ، بأن تتقى الله فيما تبكى ، وأن تصبر على مصيبتها ، فهذا استحسان وترغيب فى التقوى والصبر عند المكروه .

قالت المرأة من شدة الكرب والحزن الذي ألمّ بها ، تنح عنى وابتعد عن مكانى، وعللت مقولتها بأنه لايعرف مصيبتها الفادحة ، ولم يصب مثل مصيبتها ، إذ لو عرفته لما كلمته بهذا الأسلوب الفظ الخشن . فلما عرفت أنه رسول الله ﷺ داخلها الروع والهلع ، وأرادت الاعتذار له ، وعندما أتت إلى بيته لم تجد عليه حرسا ولاخفرا شأن بيوت الملوك والأمراء ، واعتذرت بأنها لاتعرفه ، فقال لها الرسول ﷺ {إنما الصبر عند الصدمة الأولى} أسلوب قصر وتخصيص أى : أن الصبر الكامل الحقيقى لايكون إلا عند الصدمة الأولى ، حين يصدم القلب بغتة فلا يحدث السكون عند ذلك ، فإذا سكن كان هو الصبر ، أما السكون بعد فوات المصيبة لايكون صبرا وإنما هو سلوى كما يقع لكثير من أهل المصائب . ولفظة الصدمة استعيرت من معناها الأصلى وهو الضرب فى الشىء الصلب إلى كل أمر مكروه وحاصل ، فاستعمل مجازا عند فقد المرأة وليدها ، وهى صدمة أكثر من أن تتحملها امرأة .

الحيــــاة



مباهج الحياة

عن أبى سعيد الخدّرىّ رضي الله عنه يحدّث أن النبى ﷺ جلس ذات يوم على المنبر وجلسنا حوله ، فقال : إنى أخاف عليكم من بعدى ما يُفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ، فقال رجل : يارسول الله ، أو يأتى الخير بالشر ؟ فسكت. النبى ﷺ ، فقيل له ما شأنك ؟ تُكلم النبى ﷺ ولا يكلمك ، فرأينا أنه يُنزَل عليه ، فقال فمسح عنه الرُحضاء ، فقال : أين السائل ؟ وكأنه حمده ، فقال إنه لا يأتى الخير بالشر ، وإن مما يُنبت الربيعُ يقتل حبطا أو يُلِمّ ، إلا أن آكلة الخضراء أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ورتعت ، وإن هذا المال خضِرة حُلوة فنعم صاحب المسلم ما أعطي منه المسكين واليتيم وابن السبيل ، أو كما قال النبى ﷺ ، وإنه من يأخذه بغير حقه كالذى يأكل ولا يشبع ويكون شهيدا عليه يوم القيامة. **رواه البخارى**

★ ★ ★ ★

جلس رسول الله ﷺ على المنبر فقال : إن من خوفى عليكم أن تتكالبوا على زهرة الحياة الدنيا وتعجبوا بما فيها من حسن وبهجة ، فتحبط أعمالكم وتقعون في آثامها - فسأل رجل من الجالسين حول الرسول : مستبعدا ومستفسرا ، كيف يؤدى الخير إلى الشر ، وكيف تتحول النعمة إلى نقمة ، وكيف تصبح المتعة وبالا ؟.

سكت النبى ﷺ برهة ، وتصبب وجهه عرقا ، والرسول يمسح بيديه ما غسل جسده من العرق ، فكأنه رحضة ، والرحضاء : عرق يغسل الجلد لكثرته ، وحالة الرسول هذه حين ينفصد عرقا تبين أن الوحى نزل عليه.

سأل الرسول ﷺ عن الرجل وكأنه حمده على سؤاله ، وكان الناس قد ظنوا أن النبى ﷺ قد أنكر عليه سؤاله.

قال الرسول : إن الخير لا يلد الشر ، وما قضى الله من خير أو شر سيحدث لا محالة . ولكن قد يكون الخير سببا فى وجود الشر ومؤديا إليه ، وضرب لذلك مثلا حتى يتضح الأمر للمسلمين ، ضربه من البيئة بحيث يرون صورته كل يوم ، وهو ماثل أمام الأعين لا يغيب عنهم ساعة من الزمان. فهذا الربيع الذى تزهو الأرض بخضرته وجماله ينبت بعض الحشائش إذا أكثرت من أكله الإبل ، انتفخت بطونها وخارت مفاصلها ، وألقت ما فى أجوافها ، فقد يؤدى الخير إلى الشر ويكون سببا فى وجوده .

والمال حلو فى ذاته مفيد للمسلم إذا أخرج زكاته للمسكين واليتيم وابن السبيل ، فهذا مال حلال يؤدى منه الزكاة ، فهو خير كله . ولكن إذا سلبه غيره أو أخذه دون وجه حق ، انقلب المال شرا له ووبالا عليه ، فهو كالذى يأكل ولا يشبع ويشرب ولا يرتوى ، ويشهد عليه يوم القيامة أنه أسرف فيه وأنفقه فيما لا ينبغى ولم يؤد حق الله فيه.

لقد تحلّق المسلمون حول رسول الله لشعورهم بالأنس والرغبة فى سماع حديثه الحلو فيما يفيدهم فى دنياهم وآخرتهم ، وكيف لا وهو الرسول المبعوث هداية للمؤمنين .

أبدى الرسول خوفه على الأمة الإسلامية وأكد مخاوفه بما يواجهون بعد حياته من أمور قد تعود عليهم بالوبال والشر المستطير . وأخوف ما يخاف على أمته هذه الحياة الحلوة الزاهية الفاتنة ، فربما تلهيهم هذه الحياة بزينتها فيكثرون من الأخذ منها وينسون أنفسهم ، فكلما أخذوا منها رغبوا فى المزيد حتى ينسوا أداء واجباتهم الدينية .

قال رجل من الحاضرين ؛ لم يذكر اسمه ، فليس لاسمه أهمية ، وإنما القصد هو ما ألقاه من سؤال ، وما ترتب على هذا السؤال . أو يأتى الخير بالشر ؟ سؤال فيه معني التعجب ، والاسترشاد والاستبعاد ، إذ كيف يولد الشر من الخير ، والناس تعلم أن الخير لا يأتى إلا بالخير . سؤال فيه وجه خطورة يستحب أن يتبصر الناس

بشأنه . إلا أن الرسول ﷺ لم يبادر مسرعا إلى الإجابة ، ولام الحاضرون الرجل على سؤاله الذى لم يجبه عليه رسول الله ﷺ فظنوا أن الرسول وقع فى حرج عظيم ، إلا أن سكوته كان بسبب الوحى الذى نزل عليه فتصبب عرقا وسأل عن الرجل ، أين هو ؟ معجبا بسؤاله راضيا عنه ، وكأنه يحمده على هذا السؤال ، ليشجع غيره على الاستفتاء فى أمور الدنيا وما يأخذونه منها وما يدعون.

نفى الرسول ﷺ نفيا جازما أن يأتى الخير بالشر ، وأن يولد الشر من الخير، بأداة التوكيد وهى (إن) وضرب المثل لتتضح الصورة الفعلية إذا مثلت فى صورة حسية ملموسة.

فقد يكون الشىء فى ذاته خيرا ولكن سوء استعماله قد يحوله شرا ، والرسول يعبر عن ذلك فى إيجاز شديد ، فحذف بعض الكلمات من الحديث لأنها مفهومة دون أن ترد فيه فقوله : "وإن مما ينبت الربيع يقتل حبطا أو يلم" فحذف "ما" قبل يقتل ، أى ما يقتل ، والحبط وجع يأخذ البعير فى بطنه فينتفخ ، أو يلم فيقرب ويدنو من الهلاك ؛ لأنه يأكل كل ما يصادفه من حشائش قد تؤدى إلى هلاكه . أما البعير إذاكان مقتصدا فى تحرى دفع ما يلقى به إلى التهلكة ، وامتلأ شبعا واستقبل الشمس فيبقى نفعه ، ولا يتأذى بما أكل.

"وإن هذا المال خضرة حلوة" أعطى المال اللون الأخضر الزاهى الذى يريح النفس ، وذلك لفائدته وطيب العيش به ، فمثله بهذه الصورة الحسنة التى تعجب الناظرين ، والمال حسن فى ذاته ولكن إذا أنفق فى وجه الخير ، أما من يجمعه من حرام أو لم يستعمله فى حقه الواجب فيه ، فمثله بالآكل النهم الذى يأكل ولا يشبع . وينظر إلى ما هو أكثر من ذلك فيصاب بسعار المال وجمعه ، وتبقى فائدته محصورة فى النظر إليه وعّده بأطراف أنامله.

الغيب

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

{مفتاح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم أحد ما يكون فى غد ، ولايعلم أحد ما يكون فى الأرحام ، ولاتدرى نفس ماذا تكسب غدا ؟ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ؟ ومايدرى أحد متى يجىء المطر} .

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

{مفتاح الغيب خمس لايعلمها إلا الله} المفتاح كل ما يتوسل به إلى استخراج ما أغلق عليه ويتعذر الوصول إليه.

وفى القرآن الكريم ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ (الأنعام :٥٩).

والمفتاح : جمعه مفاتيح ، وجمع المفتح مفاتح ، والمفاتح بمعني واحد.

فقد شبه الغيب بالمخزن المغلق ، وهو مغلق لأن ما فى داخله شىء نفيس ، وذكر ما يتعلق بالمخزن من خواصه وهو المفتاح الذى قوى هذا التشبيه ودل عليه.

أو أنه شبه ما يتوصل به إلى معرفة الغيب بالمفتاح الذى يفتح به الشىء المخزون فينكشف بعد أن كان مجهولا .

فالغيب الذى لا يعلمه إلا الله كثير ، ويزيد على الخمسة المذكورة فى الحديث ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ (المدثر:٣١) . وإنما خصص الحديث بالخمسة ، لأن التخصيص بالعدد لاينفى الزائد عنه ، لأنهم كانوا يسألون عن هذه الخمس ، فذكرها الرسول دون زيادة .

وقوله {لا يعلمها إلا هو} تخصيص بأن علم هذه الأشياء ليس فى مقدور أحد سوى الله سبحانه .

ذكر هذه الغيوب أولا على سبيل الإجمال ، ثم زادها وضوحا وفصلها تفصيلا بقوله : {لا يعلم أحد مايكون فى غد .... إلى آخر الحديث} .

وعبارة {لا يعلم أحد ما يكون فى غد} كناية عن علم الله الساعة ووقت قيامها ، حيث قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ (لقمان :٣٤) ؛ لأن وقوع أشراط الساعة يكون فى الغد ، فى الاستقبال لا فى الحال ، وكرر نفى العلم مرتين فى الحديث ليُؤكد على نفى العلم المطلق بهذين الشيئين .

قيام الساعة ، فلا أحد يعلم وقت قيامها ، ولا أحد يعلم ما يصيب ما فى الأرحام من سعادة أو شقاء أو صحة أو مرض ، كما لا أحد يدرى مايصيبه من رزق فى مقتبل الأيام. ولايدرى المرء متى يحين أجله اليوم أم غدا ؟ ولايدرى أحد وقت نزول المطر وانقطاعه فى أى ساعة من ساعات الليل أو النهار على سبيل القطع واليقين.

وعبر بنفى العلم فى موضعين من مواضع الحديث ، ونفى الدراية فى ثلاثة مواضع ، والتعبير بالدراية أخص ؛ لأن الدراية علم فيه ممارسة وخبرة وتجربة ، فوضع كلاً منهما فيما يختص به ولايليق به غيره.

وعبر بيدرى دون يعلم ، إرادة لزيادة المبالغة ، حيث إن نفى العام يفيد نفى الخاص دون العكس ، فكأنه قال : لاتُعلم أصلا سواء احتلت على معرفتها أم لا.

وعبر بلفظ {نفس} فى موضعين : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (لقمان : ٣٤).

وعبر بلفظ {أحد} فى ثلاثة مواضع : لايعلم أحد ما يكون فى غد ، ولايعلم أحد مايكون فى الأرحام .... ومايدرى أحد متى يجىء المطر؟

لأن النفس هى الكاسبة ، كما فى قوله تعالى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (المدثر :٣٨) وهى المائتة ، المتوفاه ، كما فى قوله الله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ (الزمر :٤٢) فلو قيل بدلها لفظ أحد ، لاحتمل أن يفهم منه : لايعلم أحد ماذا تكسب نفسه ، أو بأى أرض تموت نفسه ، تفوت عندئذ المبالغة المقصودة ، وهى أن النفس لاتعرف حال نفسها لاحالاً ولا مآلاً ، فإذا لم يكن ثمة طريق لمعرفتها ، كان عدم معرفة ماعداها أولى.

تكوين الإنسان

عن انس بن مالك عن النبى ﷺ قال : إن الله عز وجل وكّل بالرحم ملكا يقول: يارب نطفة ، يارب علقة ، يارب مضغة ، فإذا أراد أن يقضى خلقه ، قال : أذكر أم أنثى ، أشقى أم سعيد ؟ فما الرزق وما الأجل ؟ فيكتب فى بطن أمه. رواه البخارى

★ ★ ★ ★

النطفة : الماء الصافى قليلا أو كثيرا.

والعلقة : الدم الجامد الغليظ .

والمضغة : قطعة اللحم.

ففى الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه : إن خلْق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ، ويكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد .

فالإنسان يمر بثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : ويكون فيها نطفة تستمر أربعين يوما.

والمرحلة الثانية : تتحول فيها النطفة إلى علقة ، ويكتب فيها الرزق والأجل ، والشقاء والسعادة ، وتكوين السمع والبصر ، وكونه ذكرا أو أنثى .

والمرحلة الثالثة : ويتحول فيها الدم الغليظ إلى قطعة من لحم تستمر أربعين يوما بعدها ينفخ فيها الروح ، وذلك بعد أربعة أشهر من الحمل.

وقوله "يارب نطفة" فيه إيجاز بالحذف وتقديره جعلت المنى نطفة فى الرحم.

وهذه الأخبار الثلاثة التي وردت على لسان الملك تصدر عنه فى أوقات متعددة وليست فى وقت واحد.

وليس المراد بالخبر هنا فائدة الخبر ولا لازم الفائدة ، وإنما المراد التماس تمام الخلق والدعاء بإفاضة الصورة الكاملة على الجنين ، حتى يصبح خلقا سويا وصورة بشرية تستريح لها النفس ويطمئن إليها الفؤاد .

وانظر إلى تعدد الطباق فى قوله أذكر أم أنثى ، أشقى أم سعيد ، حتى يشمل الحديث كل الأنحاء وجميع الاتجاهات . فالإنسان إما ذكر أو أنثى وإما شقى أو سعيد ولا ثالث لهما ، وفى قوله أذكر أم أنثى إيجاز ؛ لأن المعنى أذكر هو أم أنثى.

وكذلك شقى أم سعيد ، وإن كان يتضمن معنى أعاصٍ هو أم مطيع؟.

"فما الرزق وما الأجل؟".

الرزق فى كلام العرب بمعنى الحظ ، وهو نصيب الرجل فى حياته من مال وولد وصحة وسعادة .

والأجل مدة حياة المرء التى يسعى فيها لتحصيل معاشه ورزقه ، هو الوقت الذى يتردد فيه الأنفاس فى صدره وينتهى بخروج الروح من جسده .

فالله يبدأ بخلق الإنسان وكونه ذكرا أو أنثى ، ثم يحدد أجله ورزقه ، ثم ينتهى الأمر بأن يُكتب سعيدا أم شقيا ، مطيعا أم عاصيا .

وكل ما ذكر من الرزق والأجل ، والسعادة والشقاء والذكورة والأنوثة إنما يظهر ذلك للملك ويؤمر بإنفاذه وكتابته ، وإلا فقضاء الله وعلمه وإرادته سابق على ذلك.

ويجمل أن نوضح ما يتردد بأن الطب يعلم مافى الأرحام من ذكر أو أنثى ، ولكن هل يعلم الطب ما يحيط بالجنين من شقاء أو سعادة ، أو رزق أو أجل ؟ هل يعلم الطب ما يترتب على حياة الجنين بعد أن يصبح بشرا سويا ، وما سوف يكون عليه حاله من فقر وغنى ، وسخط ورضا ، وحظ ونصيب ؟ كلا ، فمازال الطب عاجزًا عن معرفة هذه الأحوال التى سطرها الله فى كتاب المرء ، وصدق الله حين يقول ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ﴾ (لقمان :٣٤) .

الاستسقاء

عن عبد الله بن أبى بكر عن عباد بن تميم عن عمه قال :

« خرج النبى ﷺ يستسقى وحوّل رداءه »

رواه البخارى

★ ★ ★ ★

خرج رسول الله ﷺ إلى الصحراء يريد الاستسقاء حيث أصاب الناس القحط لقلة الماء ، وعندما أراد الصلاة حوّل رداءه ، فنكس أعلاه أسفله ، وأسفله أعلاه ، وتوخى أن يجعل ما على شقّه الأيمن على الشمال ، ويجعل ما على الشمال على اليمين . والحكمة فى هذا التحويل من اليمين إلى الشمال وعكسه ، التفاؤل بتحويل الحال من الجدب إلى الخصب ، ومن أقوال العبر المأثورة : حوّل رداءك يتحول حالك.

فقوله "خرج النبى" جملة فعلية قصد بها تحقق خروج النبى ﷺ إلى المصلى أو إلى الصحراء ولم يرد ذكر إلى الجهة التى خرج إليها الرسول لكونها معلومة لا يختلف فيها أحد ، فقد خرج ليصلى فى الفضاء مع الناس حتى يتوجهوا إلى الله سبحانه بالدعاء والاستغفار دون أن يكون بينهم وبين الله حجاب.

خرج المسلمون مع رسول الله يطلبون الماء ، فالماء سبب فى حياتهم وحياة دوابهم ، فإذا شح الماء وأصبح مطلبه عزيزا لم يجدوا سوى الله المنعم يلوذون بكرمه وفضله ، وهم فى صورة من يبغى السقيا . فعبر عن ذلك بالفعل المضارع ، يستسقى، لأنه يفيد استحضار صورة السقى.

وعطف الجملة الماضية "وحول رداءه" على الجملة الفعلية الماضية "خرج النبى" من عطف الفعل الماضى على الفعل الماضى ، فذلك أدعى للتلاؤم بين

الفعلين، فكلاهما حقيقة واقعة لا مجال للشك فيها ، بعد أن بيّن الغرض من خروج الرسول وهو الاستسقاء ، ففصل بين الجملتين الماضيتين بفعل مضارع ليقف السامع على سبب خروج الرسول ﷺ .

يقول أبو حنيفة إن الاستسقاء ، مجرد استغفار ودعاء ، وليس فيه صلاة مسنونة فى جماعة .

وبعض الصحابة يقول : خرجنا مع عمر بن الخطاب يستسقى ، فما زاد على الاستغفار وقوله تعالى : ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً﴾ (نوح : ١٠/١١) . علق نزول الغيث بالاستغفار لا بالصلاة ، إلا أن ثمة أحاديث وردت عن رسول الله تفيد بأن الاستغفار والدعاء كان الرسول يرددهما فى الخطبة يصلى بعدها ركعتين كهيئة صلاة العيد ، دون أذان أو إقامة ، وكان الرسول ﷺ يردد فى دعائه : اللهم اسقنا غيثا مغيثا ، مريئا مريعا - أى مخصبا - نافعا غير ضار ، عاجلا غير آجل .

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

كتب للمؤلف

١- أثر النحاة فى البحث البلاغى - دار غريب ط٣

٢- القرآن إعجازه وبلاغته - النموذجية - ط٢

٣- القرآن والصورة البيانية - المنار - ص٤

٤- فن البلاغة - دار غريب ط٣

٥- فن البديع - دار الشروق - ص٢

٦- المختصر فى تاريخ البلاغة - دار غريب ط٢

٧- تيسير نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز - بيروت - ط١

٨- قصار السور - مؤسسة الخليج - ط١

٩- دراما الحسد والغريزة قصة سيدنا يوسف - مؤسسة الخليج - ط١

١٠- تفسير جزء الذاريات - دار غريب ط٢

١١- البلاغة العالية (مقدمة) - الآداب - ط٢

١٢- من علوم القرآن - الدوحة - ط١

١٣- نصوص من القرآن الكريم - الدوحة- ط١

١٤- مختارات من الشعر العباسى - القاهرة - ط١

١٥- دعاء الأنبياء والصالحين - مؤسسة الخليج - ط١

١٦- من بلاغة النبوة - مؤسسة الخليج -ط١

١٧- أصول البلاغة - الدوحة - ط٢ تحقيق ودراسة.

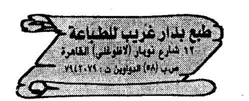
١٨- الإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة - الآداب - ط١ تحقيق ودراسة.

١٩- الإكسير فى علم التفسير - الآداب - ط٢ تحقيق ودراسة.

٢٠- مقدمة شرح نهج البلاغة - دار الشروق - ط١ تحقيق ودراسة.

٢١- خلاصة المعانى - السعودية - ط١ تحقيق ودراسة.

٢٢- الإيضاح - للخطيب القزوينى - تحقيق ودراسة - الآداب - ط١



طبع بدار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلي) القاهرة
ص.ب (٥٨) الدواوين ت : ٧٩٤٢٠٧٩